مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي

دكتور / خالد الزواوي

مؤسسة حورس الدولية

الزواوي ، خالد محمد أحمد
مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي / تأليف : خالد محمد أحمد الزواوي
الإسكندرية : مؤسسة حورس الدولية ، ٢٠١٢ .
٣٤٣ ص ، ٢٥ سم .
تدمك ١- ٤٥٠ - ٣٦٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ – الأخلاق في الأدب العربي
٢ – الشعر العربي – تاريخ – العصر الجاهلي
أ – العنوان .

٨١٠٫٩٠٣١

الإخراج الفنى وفصل الألـوان
وحدة التجهيزات الفنيـة بالمؤسسـة

إشراف عام: إدارة النشر بمؤسسة حورس الدوليـة

مديــر النشـــر مصطفـى غنيـــم

طبعة أولى	رقم الإيداع بدار الكتب	الترقيم الدولى I.S.B.N
2013	7960	978 – 977 – 368 – 450 - 1

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع
الإسكندرية ١٤٤ شارع طيبة – سبورتنج ت: ٥٩٨ ٣٠ ٥٩ – فاكس: ١٧١ ٢٢ ٥٩
Email: Horus.alex@hotmail.com Mob.: 01223293638
Horus.alex2007@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

شغفت بالشعر الجاهلى ، أيام كنت طالباً بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وكنا ندرس الأدب وكنا ندرس الأدب مع الدكتور طه حسين فى مدرج ٧٨ بالكلية ، ونحن فى قسم اللغة العربية ، فاستهوانى الشعر الجاهلى ، كما لم يستهونى شئ سواه ، وإن كنت أحفظ من الشعر العربى على إختلاف عصوره ، ولكن استهواء الشعر الجاهلى كان يزداد مع التدرج فى مراحل الدراسة ، وكانت أبحاثى التى أقدمها لأساتذتى تدور حول الشعر وخاصة الشعر الجاهلى ، وكنت أجد استحساناً من الأساتذة عليها ، وقرأت كتاب " فى الشعر الجاهلى " للدكتور طه حسين ، ففتح أمامى آفاقاً فسيحة من التفكير ، حتى تمكنت من الحصول على الماجيستير والدكتوراه فى الأدب الجاهلى ، ثم صدر لى كتابان فى الشعر الجاهلى ، أحدهما بعنوان : " الصورة الفنية عند النابغة " والثانى بعنوان : " تطور الصورة فى الشعر الجاهلى " ، وصدر من هذا الكتاب الأخير طبعة ثانية .. وإختيارى للعصر الجاهلى يرجع لأنه فى حساب الزمن يعتبر أول عصورالتاريخ العربى ، ثم إن الشعر الجاهلى هو الأصل الذى إنبثق منه الشعر العربى فى سائر عصوره ، وهو الذى أرسى عمود الشعر ، وثبت نظام القصيدة ، وصاغ المعجم الشعرى عامة .

ثم إن فى هذا الشعر الجاهلى وفرة من القيم الفنية الأصيلة ، لم يحظ بها كثير من الشعر العربى بعده ، من أجل ذلك تناولت فى كتابينى السابقين ظاهرة الصورة الفنية فى هذا الشعر ، ثم تطورها عبر شعراء هذا العصر ، وكانت

دراسة الصورة عودة إلى جذورنا الأصيلة ، إلى الجذور فى تاريخ أدبنا العربى ، من خلال هذه الزاوية الفنية المهمة ، زاوية الصورة التى هى الخلية الحية النامية داخل كيان عضوى موحد من الفن ومن الإبداع .

هذا إلى جانب ما فى الشعر الجاهلى من خصب الشعور ، ودقة الحس ، وصدق الفن ، وصفاء التعبير ، وأصالة الطبع ، وقوة الحياة .

لقد اكتفت الدراسات التقليدية فى معظمها بالتفسير اللغوى للقصيدة الجاهلية . ولكن هناك نظرة إلى ما وراء النص اللغوى فى تأمل إلى الصوغ الفنى للشعر الجاهلى الذى يحمل لغة راقية تكشف عن أخلاقيات العربى القديم ، ونافذاً إليها من خلال بينته وتأثيرها فى النص ، وحتى فى تناوله لظاهرة الوقوف على الأطلال ، مصوراً وجدانياته ومشاعره الجياشة ، وأحاسيسه تجاه الديار والبكاء عليها ، وولعه بهذه الأماكن ، وإستنطاقه لها . ثم تصويره الفنى للطبيعة الصحراوية والتكوين والتطور ، إلى جانب رمزية الصورة وتعبيرها عن الحياة الجاهلية ، ومن ثم علاقة الصورة بالأخلاق والبنية اللغوية ، والموسيقى بحيث يطغى الجانب الإنسانى فى الشعر على الجوانب الأخرى ، كبيان الفرق بين الرمز والصورة الفنية ، والتشبية والإستعارة والكناية .

د / خالد الـزواوى

تهيئـــة

تهيئة ..

وقد لاحظت أن انقطاعنا طويلاً عن دراسة هذه المرحلة من تاريخ أدبنا العربى بسبب نقصاً ضخماً نحتاج إليه دائماً ، لا يجوز لنا أن ننقطع عن هذه الجذور الأصيلة ، والعودة دائماً إليها قضية لازمة ، وخاصة إذا صاحبها عقل مشبع بقضايا عصرنا وأساليبه ، وإذا كانت العودة إلى الجذور تمدنا إلى الحضارة العربية ، فلا يجوز أن نكون انعزالاً عن حركة التاريخ بل تغذية معارف العصر كلها .

والعودة إلى الجذور هى ضرب آخر إلى التعمق فى الذات . فإن العودة إليها بشرط أن يعرف الإنسان كيف يصب هذا الشكل من أشكال الأصالة فى تيار الإنسانية . من أجل ذلك كانت وجهتى هذه المرة فى بحث قضية من أهم القضايا الإنسانية فى عصرنا الحاضر ، ألا وهى قضية " الأخلاق " فقد أدركت أن هذا الشعر الجاهلى ملئ بمكارم الأخلاق ، وساعدنى فى ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " وهذا فى العصر الإسلامى ، فتبين لى أن مكارم الأخلاق كانت سائدة فى عصر ما قبل الإسلام وهذا العصر هو العصر الجاهلى ، فأخذت أبحث عن هذه الأخلاق فى شعر شعراء هذا العصر ، وأحاول التعمق فى أسراره وخفاياه لأصل إلى ما أريد تحقيقه ..

لقد سار الكثيرون من الأدباء والمفكرين فى بحث الشعر الجاهلى ودراسته ، وخرجت كتب كثيرة حول الشعر وقضاياه المختلفة ، والشعراء فى هذا العصر .

وقد حاولت أن أتناول موضوعاً جديداً ، أحسبه لم يجد من يتعرض له ضمن كوكبة من بحثوا فى مصادره وتاريخه وأدبه عن قضية " مكارم الأخلاق " فى هذه الشعر الجاهلى ..

وأنا أعلم أن نهجاً علمياً خالصاً ينتظرنى فى هذه الدراسة ، لا أميل مع هوى ولا أتعصب إلى رأى ، ولا أعتسف الطريق من أمامى اعتسافاً . بل لعل من الصواب أن أذكر أنى حين إخترت هذا الموضوع " مكارم الأخلاق فى الشعر الجاهلى " ودخلت فيه لم يكن يحفزنى إلا الموضوع نفسه ، ولم يكن نصب عينى غاية بذاتها أتوخاها ، وأرمى إلى إقامة الدليل عليها ، غير ما وجدته فى عصورنا مقارنة بما كانت عليه العصور القديمة ، فيظن الناس أن أصحاب مكارم الأخلاق هم أصحاب المدينة والتقدم العلمى والتقنى الذى عملوا من أجله ، وتوصله إليه ، ونسوا أن الذين نشأوا فى الصحراء تربوا على الأخلاق وإن لم يحققوا من التقدم العلمى ما تحقق فى العصور الحديثة .

لقد كان قلبى مع هذا الشعر الجاهلى حيث كنت أقرؤه ، وكان عقلى عليه حين قدمت رسالتى الماجستير والدكتوراه فى الشعر الجاهلى ، وكانت فكرة الأخلاق فى هذا الشعر تراودنى ، فأردت أن أصل فى بهذا البحث إلى يقين يجتمع عنده إقتناع العقل ، وإطمئنان القلب معاً ، ولم يكن أمامى سبيل لذلك إلا أن آخذ نفسى بالبحث والدراسة حول هذا الموضوع ..

لقد قمت بفحص شعر الشعراء فى العصر الجاهلى فحصاً جيداً ، وقمت بدراسته دراسة دقيقة تقوم على استقرائه واستنطاقه ، واستشفاف دلالته ، فى حدود ألفاظه ومراميه ، وإن كنت قد درسته من قبل فى نتاجى الفكرى ، غير

أنى أعود اليه فى غير تحميل له فوق ما يحتمل ، ولا توجيهه وجهه بعينها لا تتضمنها ألفاظه .

ولم أكن أكتفى بقراءة البيت أو الأبيات ، وإنما أقلبها على جوانبها ، وأستوفى الأدلة والشواهد على بيان الفضيلة والخلق من ورائها ..

وقد دفعتنى الحماسة إلى الإلحاح على الوقوف بجانب الشاعر فيما يعلنه من مبادئ أخلاقيه فى شعره ، وهى نتيجة طبيعية لبيئته التى يعيش فيها ، وحياته التى يمارسها ، وليس قولاً مفتعلاً يراد به وصف نفسه بالأخلاق .

ومن الطبيعى أن يندفع الباحث فى غير مغالاة ولا إسراف ، فى حماسته لبحثه وآرائه ، بعد أن يكون قد وصل - عن طريق المنهج العلمى - إلى أدلة يقتنع بصوابها ، وحجج يطمئن إلى سلامتها ، فيؤكدها كلما سنحت له فرصة للتأكيد ، ويلح عليها كلما أمكنه الإلحاح . وأحسب أن الفرق واضح بين الحماسة البصيرة للرأى حين يصل إليه المرء بعد بحث وتحر وتحقيق ، وبين التعصب الأهوج للفكرة التى يدخل المرء بها فى بحثه ابتداء . فالحماسة الأولى من أمارات الحياة السلمية فى البحث والباحث . والتعصب الثانى من علامات عجز التفكير ، وضيق الأفق ، ومن هنا فإن كل رأى فى هذا الكتاب قد قامت من بين يديه وفرة من النصوص قادت إليه ، وإنتهت به . وأن النص هو الذى وجه البحث إلى ما فيه من آراء . وليست الأراء هى التى وجهت البحث إلى النصوص .

والباحث فى العصر الجاهلى يلقى عناء كبيراً من مصادر بحثه عندما يلقى الضوء على قضاياه المختلفة وقد درست هذه القضايا دراسة كافية وإن كان

فى كل مرة تحتاج إلى مزيد . أما قضية الأخلاق فى الشعر الجاهلى فسنلقى عليها الضوء كخطوة أولى فى سبيل دراسة هذا الموضوع ، وأرجو أن تتلوها خطوات ، تكمل ما فيه من نقص ، وتقوم ما قد يكون فيه من عوج . وحسب هذا البحث أن يكون قد شق الطريق ، وألقى فيها من المعالم ما يهدى السالكين ، وحسبى منه أنى أخلصت النية ، وبذلت أقصى الجهد . والله من وراء القصد .

د / خالد الـزواوى

العرب الأقدمون

العرب الأقدمون :

لم يكن عرب الجاهلية مجتمعاً واحداً ، بل كانوا طبقات اجتماعية مختلفة متباينة تمثل المجتمعات الإنسانية التى مرت بها البشرية فى تاريخها الطويل .

وكان المقصود بالبداية ظاهر القرية ، أو ضاحيتها وما أحاط بها ، وان كثيراً من القبائل كانوا يقطنون فى هذه البوادى قريبين من الحواضر ، متصلين بسكانها ، فهم إذاً غير تلك القبائل الموغلة فى الصحراء ، الضاربة فى الفيافى ، البعيدة عن العمران ، الذين قست قلوبهم ، وغلظت أكبادهم ، فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق : " الأعراب أشد كفراً ونفاقا " (التوبة ٩٧) هؤلاء هم الأعراب ، أما القبائل القريبة من القرى فليسوا بأعراب ..

روى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نقبل هدية من أعرابى ، فجاءت أم سنبلة الأسلمية بلبن ، فدخلت به علينا فأبينا نقبله ، فنحن على ذلك إلى أن جاء رسول الله معه أبو بكر ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : يا رسول الله هذه أم سنبلة أهدت لنا لبنا وكنت نهيتنا أن نقبل من أحد من الأعراب شيئا . فقال رسول الله ﷺ خذوها فإن أسلم ليسوا بأعراب هم أهل باديتنا ونحن أهل قاريتهم ، إذا دعوناهم أجابوا وإذا استنصرناهم نصرونا ..

وقد لحظ بعض الذين كتبوا فى العصور الإسلامية عن العصر الجاهلى هذه الفروق فى المجتمعات الجاهلية - فهم يقسمون عرب الجاهلية قسمين رئيسين : الملوك ، وغير الملوك . ثم يقسمون غير الملوك قسمين رئيسيين : أهل مدد وأهل وبر . ويقسمون أهل المدد إلى زراع وتجار ، وأما سائر عرب

الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : أهل مدد وأهل وبر . فأما أهل المدد فهم الحواضر وسكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع النخل والماشية والضرب فى الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر فهم قطان الصحارى وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعى ، ثم يتوجهون لطلب العشب ، وإبتغاء المياه ، فلا يزالون فى حل وترحال ..

وإن صح بعض الأعراب فى صحراوات الجزيرة كانوا فى معزل عن العالم المتمدين آنذاك ، فإنه من الصحيح كذلك أن بعض البيئات الاجتماعية الأخرى كانت متصلة بمعالم المدينة لذلك العهد ، مواكبة لركب الحضارة .

والقرآن الكريم فى خطابه لعرب الجاهلية الأخيرة حافل بالإشارات التى تدل على ما كان يرفل فيه أولئك الأقوام ودولهم فى الجاهلية الأولى من نعيم وترف ، وما كانوا يتمتعون به من قوة ومنعة . وفيه أيضاً تأنيب لعرب الجاهلية الأخيرة الذين كانوا يسيرون فى الأرض فيمرون بآثار منازل هؤلاء الأسلاف الأقدمين ، ويعلمون من امرهم ما يعلمون ، ولكنهم مع ذلك لا يتعظون بمصيرهم ، ولا يعتبرون بما آلوا إليه . فالقرآن الكريم يصف سبأ بالحياة الزراعية المستقرة الناعمة ، وبضربهم فى الأرض آمنين ، وذلك قوله تعالى : " لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور "

" وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين " (١٥،١٨ سبأ) .

فإذا ما عرض لذكر عرب الجاهلية الأخيرة وصفهم بأنهم لم يبلغوا معشار ما أوتيت الدول من قبلهم : " وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير " (٤٥ سبأ) .

ويصف القرآن الكريم قوم عاد بفن العمارة وبالصناعة ، وذلك قوله تعالى : " أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون " (١٢٨-١٣٤ الشعراء) .

ويصف ثمود بالحياة الزراعية المستقرة الخصبة ، وبفن العمارة كذلك ، وذلك قوله تعالى : " أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين " (١٤٦-١٤٩ الشعراء) .

وأما إشارات القرآن الكريم إلى مرور عرب الجاهلية بديار أولئك الأقوام من أسلافهم ، ومعرفتهم أخبارهم وأحوالهم ، فكثيرة منها : " وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين " (العنكبوت ٣٨) .

" ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا " (الفرقان ٤٠) .

" أفلم يهدى لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لأيات لأولى النهى " (طه ١٢٨) .

" أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون " (الروم ٩) .

" أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق " (غافر ٢١) .

وتدل هذه الأيات على أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا يدركون طرفاً من أخبار أسلافهم ، ويعرفون شيئاً عن هذه الحضارات التليدة التى ورثوا بعض بقاياها ورواسبها .

هذا إلى جانب ذلك الاتصال الوثيق الذى كان يربط عرب الجزيرة بالحضارات القائمة فى جوارها من فارسية ورومية ومصرية ..

وهكذا يمكن لنا أن ندرك ما كان عليه العرب فى هذا العصر سواء فى الجاهلية الأولى ، أو فى الجاهلية الأخيرة ، فقد كانوا يعرفون مكارم الأخلاق ويحسنونها ويعملون بها ، وذلك من خلال اتصالهم بمن جاورهم ومن خلال حياتهم الفطرية التى عاشوها فى هذه الحقبة ، ودل عليها من جاؤا بعدهم فى العصر الذى تلى العصر الجاهلى .

كانوا يعرفون المبادئ الكريمة ، والصفات الحسنة ، التى جاء القرآن يعلنها بعد ذلك على الأقوام من بعدهم ، والذين دخلوا فى الإسلام هم الذين تربوا على الأخلاق فى عصر ما قبل الإسلام ، ومن أجل ذلك قال رسوال الله - صلى الله عليه وسلم - " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

فمكارم الأخلاق كان يعرفها من هم فى العصر الجاهلى ، وسيكشف لنا شعرهم فى هذه الفترة عن هذه الأخلاق التى تربوا عليها ، وأعلنوها فى أشعارهم لتكون دليلاً على ما كانوا عليه ..

والآيات الكريمة التى ذكرها القرآن عن عرب الجاهلية الأولى والأخيرة خير شاهد ودليل على حياة هؤلاء العرب ، وقد أشرت إليها فى كتابى عن " الحوارات الإلهية " وإستدللت بها على مكانتهم وقدرتهم .

لقد كانت حياة العرب فى الجاهلية حياة متحضرة ، وليست حياة بدائية فى معزل عن غيرهم من أمم الأرض ، فقد إتصلوا بالحضارات المجاورة لهم ، إلى جانب حضاراتهم التليدة الموروثة ، وكانت حضارات متعاقبة موصولة ذات حلقات ، آخذ بعضها برقاب بعض ، بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ ، وإنتهت قبيل الإسلام بمائة وخمسين عاما .

غير أن بعض الكتب القديمة وصفت الحياة الجاهلية بأنها كانت قليلة الحظ من كل عمران ورقى ، بعيدة عن كل مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية وأن العرب كانوا أمة أمية جاهلة ، لا حظ لها من علم أو معرفة أو كتابة ، وقد استدلوا على ذلك بما ورد فى القرآن الكريم من وصف العرب فى جاهليتهم بأنهم أميون . قال تعالى : " وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم " (آل عمران ٢٠) .

وقال تعالى : " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل " (آل عمران ٧٥) وقال تعالى : " هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم " (الجمعة ٢)

غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعنى - كما ذكرت فى كتبى السابقة - الجهل بالكتابة والقراءة والعلم ، وإنما يعنى الأمية الدينية ، أى أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب دينى ، ومن هنا كانوا أميين دينياً ، ولم يكونوا مثل " أهل الكتاب " من اليهود والنصارى ، الذين كان لهم التوراة والإنجيل .

أو أن كلمة أميين تعنى أمميين ، وعلى ذلك يكون المعنى أن أممهم لم تكن تعرف كتاباً دينياً . والقرآن الكريم يبين ذلك : " ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون " (البقرة ٧٨-٧٩) .

وهكذا فقد كانوا يكتبون بأيديهم ، فالأمية إذن أمية دينية أى جهل بالدين وإنكار له وعدم تصديق ، ومن أجل ذلك فسر ابن عباس : " ومنهم أميون " قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله الله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند الله . وقال : قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين ، لجحودهم كتب الله ورسله .

فالعرب كانت تعرف الكتابة العربية بهذا الخط الذى عرفه الصحابة - رضوان الله عليهم - فى صدر الإسلام ، وأن معرفة الجاهليين بهذه الكتابة قد إمتدت فى الجاهلية .

ونحن إنما نثبت لهم ذلك ، وكما جاء فى كتاب " مصادر الشعر الجاهلى " للدكتور ناصر الدين الأسد ، لنبين ان العرب فى العصر الجاهلى كانوا قريبى الصلة بعصر صدر الإسلام ، الذى أعلنت فيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

ووجود المعلمين فى الجاهلية أمر ثابت منصوص عليه فى وضوح لا يقبل الشك ، فمن هؤلاء المعلمين فى الجاهلية : عمرو بن زُرارة ، وغيلان بن سلمة ، جاهلى أسلم يوم الطائف ، والطائف هى التى أخرجت ، بعد غيلان ، يوسف بن الحكم الثقفى ، وابنه الحجاج بن يوسف المعلمين فيها ، وشهرة الطائف ، وقبيلة ثقيف خاصة ، بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية ، دعت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن يجعل كتبة المصحف من قريش وثقيف ، ودعت عثمان بن عفان إلى أن يقول : " اجعلوا المملى من هذيل ، والكاتب من ثقيف " .

وهكذا لم يكن العرب أميين بالمعنى السائد فى الأذهان ، وكانت للعلم مجالس تعقد فتتدارس فيها الأخبار والأشعار والأنساب .

قال ابن عباس - رضى الله عنه - : " كانت قريش تألف منزل أبى بكر - رضى الله عنه - لخصلتين : العلم والطعام ، فلما أسلم أسلم عامة من كان مُجالسه " .

وهكذا كان إذن فى الجاهلية معلمون يعلمون القراءة والكتابة وضروباً من العلم ، منها : أخبار الأولين وقصص التاريخ ، وقامت فى البيئات الجاهلية المتحضرة مثل : مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار وغيرها - مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة .

نقول ذلك لنبين أن مكارم الأخلاق لم تكن بمستغربة على الجاهليين ، فهم قد اختلطوا بغيرهم ، واكتسبوا العادات العربية الأصيلة ، ومنهم الذين تربوا

على هذه الأخلاق ، فلما جاء الإسلام دخلوا فيه ، وأعلنوا إسلامهم ، فقبلهم الإسلام لمكارم أخلاقهم ، ثم بين لهم فضل هذه الأخلاق ..

لقد كان بعض الجاهليين يدونون الأخبار والقصص والتاريخ ، وأن هناك من كان يملى هذه الموضوعات فى مجالسه ، قال تعالى : " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا " (الفرقان ٥) .

وكان عرب الجاهلية يطالبون الرسول بآيات ومعجزات تقنعهم بنبوته . قال تعالى : " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا " (الإسراء ٩٠-٩٣) .

فهم يريدون أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرءونه ، وسيشكون فى هذا الكتاب ولو نزل عليهم فى صورة مادية يرونها ويلمسونها . قال تعالى : " ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين " (الأنعام ٧) .

ومن الأشعار التى تدل على أن أُمية العرب ليست أُمية كتابة وقراءة ، وأنهم كانوا يعرفون الخط العربى ما جاء فى بيت أبى ذؤيب :

برقم ووشم منا نمفمت بمشيمها المزدهاة الهَدِى

وبيت المرقش :

الدار قفر والرسوم كما رقّش فى ظهر الأديم قلم

وبيت طرفة :

كسطـــور الـــرق رقّشـــــه بالضحـــى مُرقّـــش يَشِمُه

ومن الشعر الجاهلى الذى يشير إلى معرفة عرب الجاهلية بالكتب الدينية ، قول امرئ القيس :

أتت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زَبور فى مصاحف رُهبان

وقول السموءل يصف اليهود :

وبقايـــا الأسبـــاط أسبـــاط يعقو ب دِراسِ التـــوراة والتابـوت

وقول النابغة يمدح الغساسنة النصارى ويذكر الإنجيل :

مجلّتهـــم ذات الإلـــه ودينُهـم قويم فما يرجون غير العواقب

وقول الأعشى :

ربـــى كريـــم لا يكـــدر نعمة وإذا يُناشَـــد بالمهـــارق أنشدا

والمهارق الكتب الدينية أو هى كتب العهود والأحلاف .

قيمة الشعر العربي

قيمة الشعر العربى :

إذا كان الشعر المسجل لمفاخر القبائل ومحامد الأفراد له خطره وقيمته عند القبائل والأفراد الممدوحين ، فقد كان له من الخطر والقيمة عند الشعراء المادحين أنفسهم ما يضارع ما كان له عند الممدوحين أو يزيد . فقد كان هذا الشعر عند غير المكتسبين بالمدح واجباً قومياً تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته ، أو واجباً أخلاقياً تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه .

وكان الشاعر يكثر التجوال والتطواف ، ويقطع على ظهر ناقته الأماد الواسعة يستسهل طى المفاوز ، ويستعذب تحمل المشاق والأهوال فى سبيل وصوله إلى ممدوحه ، وكان بعض الشعراء يتطلب من يكتب له شعره ، مع أنهم هم أنفسهم كانوا يحسنون الكتابة ويتقنونها ، على انه كانت ثمة دواع تضطر حتى من لا يعرف الكتابة من الشعراء ، إلى أن يستكتب من يعرفها . ومن ذلك ما ذكره ابن الأعرابى ، قال : بلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده ، فدعا كاتب من العرب ، فكتب إليه :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالتى فمدحك حولى وذمك قارح

فى أدب جم ، وستحياء يطلب عمرو بن كلثوم من صاحبه أن يبلغ النعمان بن المنذر رسالة فحواها أنه يمدح النعمان ولا يذمه ، وذلك يدلنا على نفس شفيفة وشخصية تعرف قيمة الأخلاق الكريمة .

وهذا القيط بن يعمر الإيادى ، الذى أرسل إلى قومه ينذرهم عزم كسرى على قتالهم ، وصحيفته فى ذلك مشهورة ابتدأها بالسلام فى قوله :

سلام فى الصحيفة من لقيط   إلى من بالجزيرة من إياد

وختمها بقوله :

هذا كتابى إليكم والنذير لكم   لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

وهناك من الشعراء فى هذا العصر ممن عرف بالأخلاق ، وكان شعره ينم عن روح عالية ، ونفس شفيفة ، ومن هؤلاء كعب بن مالك الأنصارى ، وقد كتب شعراً فى يوم أحد ، ذكر فيه أسماء النقباء وأرسله إلى أبى سفيان بن حرب ، وأبى بن خلف الجمحى يرد عليهما ، والنابغة الذبيانى ، وقد كتب قصائد أرسلها إلى النعمان يعتذر إليه ويحلف له أنه ما فرط من ذنب ، ومنهم كعب بن زهير بن أبى سلمى ، وأخوه بُجير بن زهير ، وقد كتب إلى بُجير شعراً يلومه فيه على إسلامه ، فكتب إليه بُجير ينذره ويُعلمه أن النبى ﷺ قد قتل بالمدينة كعب بن الأشرف ، ومن هؤلاء الشعراء لبيد بن ربيعة العامرى ، وقد كان عمر بن الخطاب ، أرسل إليه يكتب له ما قاله فى الإسلام من الشعر ، فانطلق لبيد إلى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتى بها فقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر .

ولعلك تستشف من ذلك الصفات الأخلاقية التى كان عليها هؤلاء الشعراء ، فهم أهل قِرى ، وهم ينعمون بالصدق فى القول ، وفى نجدة الصريخ وفى إغاثة الملهوف ، وهم محبون للشجاعة والإقدام والنخوة العربية ،

ومعروفون بالتسامح وبالدعوة إلى السلام ، وبالوفاء وعدم الغدر والخيانة ، إلى جانب إشادتهم بالفخر فى مواطن الفداء ، وتدلنا أشعارهم على التمسك بكل ما هو له علاقة بالأخلاقيات الكريمة ، وتحس فى نبرتهم بالحس الدينى الفطرى ، وبالتعامل الإنسانى ، والسلوك القويم ، ونظرتهم إلى القضايا الدينية المختلفة ، فمن الشعراء الذين كانوا يؤمنون بالبعث فى الجاهلية ، ويقرأون الكتب الدينية : أمية بن الصلت ، ومنهم من ولد فى الجاهلية ، وعُمر فى الإسلام ؛ وهذا دفعهم إلى انتقاء ألفاظهم ، واختيار كلماتهم ، وانتحاب أساليبهم الفنية ، فهذا هو امرؤ القيس يصف ذلك فيقول :

أذود القوافى عنى ذيادا ذياد غُلامٍ غوىٍّ جَـــرَادا
فلمـا كثرن وأعيينـــى تنقيت منهن عشرا جيـادا
فأعزل مرجانها جانبـا وآخُذُ من دُرها المستجادا

ويقول كعب بن زهير :

فمن للقوافى - شانها من يحوكها إذا ما سوى كعب وفوز جرول
يقــول فلا يعيـا بشـئ يقولـــه ومن قائليها من يسئ ويعمـــل
نُقومهـــا حتى تقـــوم متونهـــا فيقصـــر عنهـــا كل ما يُتمثـل
كفيتك لا نلقى من الناس واحـدا تنخـــل منها مثـل ما نتنخـــل

ومع ما قدمت من حديث واضح الدلالة على أهمية الآداب والأخلاق والسلوكيات عند العرب القدامى ، وعلى امتلاك هذا العصر الجاهلى لما قاله رسول الله ﷺ من أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وأن هذا دليل على ان

الأخلاق كانت واضحة فى هذه الفترة التى سبقت العصر الإسلامى . غير أننا لا نعمم فيما نذكر من أدلة وشواهد ، وبما نقوم به من تفسير للجانب الأخلاقى فى شعر شعراء هذا العصر ، فنحن لا نقصد أن كل شعراء الجاهلية كان شعرهم يحمل هذا الجانب الأخلاقى ، ولا نقصد كذلك أن جميع الشعراء فى العصر الجاهلى كانوا يتروون فى نظم قصائدهم ، ويثقفونها وينقحونها ، ولكننا نخص بحديثنا هذه الفئة من الشعراء التى كانت أشعارهم تتضمن العمل العقلى ، تفكر فيه بعقلها ، وتدفعه إلى كماله الأخلاقى بفطرتها ، كما تحسه بعاطفتها ، وتشعر به بخبرتها ، فكان الشاعر يردد نظره فى شعره ، ويجيل عقله فيه ، ويقلب رأيه فيما يقول ، ويجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله من نعمته ..

وإنك لتجد بعض هؤلاء الشعراء ينكرون ما كان يعتقده أهل زمانهم أنذاك من التشاؤم والتفاؤل ، وعقد التمائم لدفع الغوائل ، ويقررون ان الدهر قُلب لا يدوم له خير ، ولا يتصل له شر ، وقد عرفوا ذلك من قراءتهم للكتب الدينية القديمة ، واشتقاقهم من هذه المعانى ، كما فى هذه الأبيات :

لا يمنعنـــك مـــــن بغـــــا	ء الخيـــر تعقـــاد التمــــائم
ولقـــد غـــدوت وكـــنت لا	أغـدو علـــى واقٍ وحـــاتـــم
فـــإذا الأشائـــم كالأيـــا	مـــن والأيـامـــن كالأشائـــم
قـــد خـــط ذلـــك فـــى الزبو	ر الأوليـــــات القدائـــم

وحينما علم كعب بن زهير بإسلام أخيه بُجير كتب إليه يقول :

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالـــة فهل لك فيما قُلت بالخيفِ هل لكا ؟

سُقيت بكأس عند آل محمـــد فأنهلك المأمـــون منهـــا وعلكـــا

فخالفت أسباب الهدى وتبعته على أى شئ ويب غيـــرك دلكـــا ؟

فلما أتى الكتاب بجيرا كتب إلى كعب يقول :

مـن مُبلغ كعبـا فهـل لك فى التـى تلـوم عليها باطلاً وهى احـرم

إلى الله -لا العزى ولا اللات- وحده فتنجـــوا إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجـــو وليـــس بمفلـت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير- وهو لا شئ دينـــه وديـن أبى سلمى على محـــرم

ماذا تريد بعد ذلك من ألفاظ وعبارات تدل على فطرة فطره الله عليها ؟ يعرف الحل والحرام ، والباطل والحق ، ويعرف أن النجاة لمن يتمسك بحبل الله ، ويعتصم به ، ولم ينأى عن اللات والعزى فلا نجاة لمن يؤمن بهما ، ولن يحظى بأمن الله ورعايته إلا طاهر القلب مسلم ، فالدين دين الله ، لا دين الطاغوت والشيطان ..

وكان أبو سفيان بن حرب ، وأبى بن خلف الجمحى قد كتبا إلى الأنصار كتاباً يعاتبانهم فيه على إيوائهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويطلبان منهم أن يخلو بينه وبين قريش ، فكتب إليهما كعب بن مالك الأنصارى فى يوم أحد بهذا الشعر ، يرد عليها فيه ، ويذكر أسماء النقباء :

أبلغ أبيا أنه قال رأيه ... وحان غداة الشّعب والحَيْنُ واقعُ

أبى الله ما منتك نفسك إنه ... بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامع

وأبلغ أبا سفيان أن قد أضالنا ... بأحمد نور من هدى الله ساطع

فلا ترعين فى حشد أمرٍ تريده ... وألب وجمع كل ما أنت جامع

ودونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حين تبايعوا

ويختم الأبيات بقوله ، بعد ذكر أسماء النقباء :

أولاك نجوم لا يُغِبّك منهم ... عليك بنحسٍ فى دجى الليل طالعُ

ذلك هو شعر شعراء العصر الجاهلى الذى يحمل صوراً تشير إلى تمسكهم بالأخلاق والأدب ، ويكشف عن حرصهم على إعمال الحق فيما يكتبونه وفيما يتحدثون به فى مجالسهم ، وهم بحق أحرص الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، ويبذلون كل ما فى وسعهم لتحقيق الأمن والأمان لأقوامهم وعشيرتهم .

وللجاهليين كتب سجلوا فيها حكمهم وعلمهم ، ولهم كتب فى الأدب والأخبار الجاهلية التى تقص أخبار الجاهلية وأشعارها بما فيها من أيام ووقائع ومنازعات ، ولهم كتب دونوا فيها أنسابهم ، وكل ما يتصل بالقبيلة من أخبار حروبها وأيامها ، وذكر مفاخرها ومآثرها ، وشعر شعرائها ، وحكم بلغائها ، وربما أفردوا الحكم وجوامع الكلم - وهى من مكارم الأخلاق - فى كتاب خاص ، وهى إما حكماً عامة مما قالته حكماء العرب من شتى القبائل ، وإما مما

قالته الحكماء من غير العرب ثم عرفه العرب ونقلوه إلى لغتهم ، وذلك هو معنى أن يكون فى نتاج هؤلاء العرب ما يدل على الأخلاق ..

ومن هؤلاء الحكماء : عامر بن الظرب ، وأكثم بن صيفى ، والنعمان بن المنذر ، ولم تكن العلاقة بين العرب وأصحاب هذه الحكم ضعيفة واهية ، فقد أشارت النقوش البابلية غير مرة إلى صلات ملوك بابل وأشور ببلاد العرب ..

المذهبات

المذهبات :

وعن تسمية القصائد السبع أو العشر الجاهليات " بالمعلقات " فقد ذكر القدماء أنه قد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له " أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ... والمذهبات السبع ، وقد يقال لها : " المعلقات " . وقد نقل البغدادى ما يشبه هذا الكلام ، ثم قال : " ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا إستجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته " . وإن كان هذا الرأى من تفسير كلمة " المذهبات " أو " المعلقات " لم يسلم من النقل والاعتراض سواء من القدامى أو من المحدثين ، ونحن لا نملك وسيلة قاطعة للإثبات أو النفى ..

وقد وجد العلماء الرواة أمثال خلف الأحمر ، وحماد الرواية ، والأصمعى ، والمفضل الضبى ، وغيرهم ، وجدوا أمامهم دواوين الشعر الجاهلى مكتوبة قبل عهدهم وأنهم قرءوها وتدارسوها وأخذوا منها .

وأورد ابن سلام فى طبقاته قول عمر بن الخطاب : " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه " ثم عقب عليه بقوله : " فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر .. وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل " .

قال عمر بن الخطاب لابن عباس : على تروى اشاعر الشعراء ؟ قال ابن عباس فقلت : ومن هو ؟ قال : الذى يقول :

ولو أن حمدا يُخلِدُ الناس أخلدوا   ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء ، قلت : وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه ..

وقال عمر للوفد الذين قدموا عليه من غطفان : من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : فمن الذى يقول هذا الشعر :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى   على وجل تُظن بى الظنونُ

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة . قال : هو أشعر شعرائكم .

فزهير لم يفحش فى كلامه ، ولم يعمد إلى مدح أحد بما ليس فيه ، وإنما كان صادقاً أميناً فيما يعرض من مديح ، وتلك من الأخلاقيات الراقية ...

وكذلك كان النابغة فى شعره يصور الأخلاق والمبادئ العالية ، ويشعرنا باطلاعه على السابقين من الرسل والأنبياء ، وأن رسالاتهم كانت من أجل سعادة البشرية ، فنوح - عليه السلام لم يخن قومه ، ولم يخن رسالته ، وأعلن

دعوته ولقى فيها ما لقى من العنت والعذاب ، ومع ذلك صبر ليتم رسالته وحتى أغرق الله الكافرين .. ولم يكن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - المفتون بالشعر ، بل كان أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - هو كذلك حتى جعل بيته مثابة للعرب يؤمونه للعلم والطعام .. وكانت عائشة بنت أبى بكر - أم المؤمنين - أغزر حفظاً للشعر الجاهلى ، وأكثر تمثلاً به ، واستنشادها إياها ، والروايات كثيرة عن وفرة ما كانت ترويه من الشعر الجاهلى ، منها قولها عن نفسها : إنى لأروى ألف بيت للبيد ، وإنه أقل ما أروى لغيره . وقالت كذلك : لقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك .

وإذا كان هذا ما روى عن عائشة ، وأنها كانت تروى أشعار الشعراء فى هذه الفترة ، فذلك دليل على ان هذه الأشعار كانت تتضمن الأسس والمبادئ الرفيعة ، وتدل على الأخلاق التى يتمتع بها صاحب ههذا الشعر ، وهذا ما حاولت أن أثبته للجاهليين من أنهم كانوا يدعون إلى مكارم الأخلاق والذود عن حوضهم ، والدفاع عن الشرف ، والبعد عن الخيانة والغدر ..

وإذا كانت عائشة تروى الشعر القديم ، فقد كانت تنشده كذلك ، وكانت أيضاً تحث على طلب الشعر وتعلمه وروايته ، ومما كانت تقوله فى ذلك : رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وكانت أسماء بنت أبى بكر هى أيضاً ممن يُروى عنها الشعر الجاهلى ، فقد روى عنها عُروة قصيدتين .

وأما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان يستنشد أصحابه الشعر ، ويسائلهم عنه ، ويستعيد ما يستحسنه منهم ، ويبدى إعجابه ببعضه ، وقد ينهى عن رواية بعضه لأسباب ، فمما يدل على معرفتهم أنذاك بأخبار الجاهلية وشعرائها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب لعيينة بن حصن كتاباً ، فلما أخذ عيينة كتابه قال : يا محمد ، أتراني حاملاً إلى قومى كتاباً كصحيفة المتلمس ؟

مما يدل على إستنشاده للشعر ومساءلته الحاضرين مجلسه عنه ما رواه أنس بن مالك قال : جلس رسول الله ﷺ فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى ، ثم إستنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم - يعنى قوله :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب ... لعمرة وحشاً غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا ... كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر .

وقال أبو وداعة : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا بكر - رضى الله عنه - عند باب بنى شيبة ، فمر رجل وهو يقول :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذى بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقراف
الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يعود فقيرهم كالكافى
ويكللون جفانهم بسديفهم حتى تغيب الشمس فى الرّجاف

فتبسم رسول الله ﷺ وقال : هكذا سمعت الرواة ينشدونه .

وقال عدى بن أبى الزغباء يوم بدر :

أنا عدى والسحل أمشى بها مشى الفحل

يعنى درعه .. قال النبى ﷺ " وما السحل ؟ " قال : الدرع . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نعم العدى عدى بن أبى الزغباء .

بل لقد كان رسول الله ﷺ يتمثل ببعض هذا الشعر الجاهلى ، فقد كان إذا إستراث الخبر يتمثل بعجز بيت طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تُزوّد

ومن الشعر الجاهلى الذى كان ينشد بين يدى رسول الله فيستحسنه ، ما قالته عائشة : دخل على رسول الله ﷺ وانا أتمثل بهذين البيتين :

ارفع ضعيفك لا يَحربك ضعفُه ... يوماً فتدركه العواقب قد نُما

يجزيك أو يثنى عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال صلى الله عليه وسلم : ردى على قول اليهودى قاتله الله ، لقد أتانى جبريل برسالة من ربى : أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه .

وقال مسلم الخزاعى : كنت عند رسول الله ﷺ ينشده :

لا تأمنن وإن أمسيت فى حرم ... حتى تلاقى ما يمنى لك المانى

فالخير والشر مقرونان فى قَرَنٍ ... بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبى ﷺ قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظلّه ... حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلى الله عليه وسلم : ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنتره .

وقال الشريد بن سويد الثقفي : استنشدني النبي ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشدته ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هيه هيه ، حتى أنشدته مائة قافية .

وأنشد النبي ﷺ قول أمية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا

فقال صلى الله عليه وسلم : إن كاد أمية ليسلم ، وقال مرة أخرى : آمن شعره وكفر قلبه .

وكان أمية بن أبي الصلت ، يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ، وكان يرثي من قتل من قريش فمن ذلك قوله :

ماذا ببدر والعقنـ ـقل من مرازبةٍ جَحَاجِحْ

وهي قصيدة نهى رسول الله ﷺ عن روايتها كما نهى عن رواية بعض الشعر الجاهلي وإنشاده لما فيه من ذكر بعض الأسماء .

ويروى أن رسول الله ﷺ سمع كعب بن مالك ابن أبي كعب الأنصاري ينشد :

ألا هل أتى غسان عنا ودوننا   من الأرض غولةٌ مُتتعتِعُ

مُجالدنا عن جِذمنا كل فخمةٍ   مُدربة فيها القوانس تلمع

فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقل عن " جِذْمِنَا " وقل عن " ديننا " .

فكان كعب يقرأ كذلك ويفتخر بذلك ، ويقول : ما أعان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً فى شعره غيرى ...

تصنيف الشعراء

تصنيف الشعراء :

اتخذ النقاد المفهوم اللغوى للطبقة أداة لتصنيف الشعراء من بعد ما وجدت بذورها عند علماء الحديث ، وبحثوا فى الإرهاصات الأولى لفكرة الطبقات التى مهدت لابن سلام كى يدخل منها إلى ميدان الشعر .. وهناك عدة كتب حملت عنوان الطبقات أو اتخذت نفس المذهب النقدى ، وإن لم تحمل إسم الطبقات ، ودرسوا منهج المؤلفين فى تصنيف الشعراء فى كتبهم ، والمقاييس النقدية التى صنف النقاد الشعراء من خلالها كمقياس الزمان أو البيئة أو الجودة أو الكم أو القدرة على معالجة الأغراض الشعرية كافة .

قسم النقاد الأقدمون الشعراء طبقات أربعة ، وجعلوا الطبقة الأولى المقدمة على سائر الطبقات ، ويكونون مدرسة شعرية من خصائصها التأنى فى نظم الشعر ، وإعادة النظر فيه وتفتيحه ، حتى لقد قال الأصمعى : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولى المحك . وكان زهير يسمى كبرى قصائده الحوليات .

وذكر كعب بن زهير فى شعر له هذه " العملية الفنية " فى نظم الشعر ، فأشار إلى أنه ينتقى ألفاظه وقوافيه إنتقاء ، ويتنخلها تنخلاً ، ويثقف شعره حتى تلين متونه ويستوى بين يديه على ما يحب . ومن هنا جاز ان تسمى هذه المدرسة الشعرية مدرسة الصنعة .

ولم تكن الرابطة الفنية وحدها التى تجمع بين بعض هولاء الشعراء ، بل صلة الرحم كذلك التى تربط بين أفراد المدرسة الفنية الواحدة ، تنقلنا إلى مدرسة أخرى .

فلو تتبعنا هذه الصلة بين شعراء الجاهلية لوجدنا الكثير منهم ذوى رحم . مثل المرقش الأكبر والمرقش الأصغر ، وطرفة بن العبد . فقد كان المرقش الأكبر عم الأصغر ، والأصغر عم طرفة ، وكذلك كان مهلهل خال إمرئ القيس . فلعل الأمر فى هؤلاء الشعراء قد جرى على ما جرى عليه الشعراء السابقون من أصحاب المدرسة الفنية الواحدة .

أما شعراء الطائفة الثانية فهم جميعاً قد رووا الشعر الجاهلى وحفظوه وتمثلوا به . ومن الشعراء الرواة فى القرن الأول : الطرماح . قال محمد بن سهل رواية الكميت : أنشدت الكميت قول الطرماح :

إذا قُبِضَتْ نفس الطرماح أخلقت   عُرى المجد واسترخى عِنان القصائد

فقال الكميت : إى والله وعنان الخطابة والرواية .

والكميت بن زيد هذا كان كذلك راوية عالماً بلغات العرب خبيراً بأيامها ومثالبها ، ويقال : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ماجمع الكميت ، فمن صحح الكميت نسبه صح ، ومن طعن فيه وهن .

وكذلك كان يؤخذ بعض الشعر الجاهلى من غير الكميت ، وكانوا يميزون بين كلام أهل الجاهلية وكلام أهل الإسلام ، وأن زهيرا والنابغة كانا ينيران

الشعر ويسديانه ، وأن أمرأ القيس إتخذ من الشعر نعلين يطؤهما كيف يشاء ، وأن طرفة - وقد كنى عنه بابن العشرين- أشعر الناس .

.إن قيمة الشعر الجاهلى ترجع لأنه ديوان أمجادها وأحسابها ، وسجل مآثرها ومفاخرها ، ومستودع آدابها وأنسابها وأخبارها . ومن عناية القبيلة بالشعر أن بنى تغلب كانوا يعظمون قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هُجوا بذلك ، فقال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألهى بنى تغلبٍ عن كل مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبدا مذ كـان أولـهم يا لَلْرجال لشعرٍ غير مسئوم

وهذا رسول الله ﷺ حينما أراد أن يسمع بعض شعر أمية بن الصلت الثقفى ، استنشد رجلا من ثقيف ، قبيلة الشاعر ، هو الشريد بن سويد الثقفى ، فأنشده مائة بيت .

وهكذا كانت العناية بالشعر الجاهلى حتى أن العرب من المسلمين أقبلوا عليه لما كان يحتويه من شيم أصيلة ، وأخلاقيات تتربى عليها الأجيال وليس أدل على ذلك من موقف الرسول ﷺ وعائشة - رضى الله عنها - وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - من هذا الشعر ومن رواته ، ومن بعض ما جاء فيه وهو يحمل صورا ومعانى ذات قدر رفيع من الأدب والرقى فى التعامل والسلوك ، وفى ذكر المناقب والمآثر التى تدل على تمسكهم بالأخلاق ، والعمل بها ، وكثير من أبناء الشعراء الجاهليين عاشوا فى الإسلام ، وبعضهم عمر طويلاً ، ولم يكن غريباً عليهم ما كان يُنادى به من مكارم

الأخلاق ، فهم قد عاشوا عليها ، وإستمدوها من آبائهم ومن بيئتهم التي نشأوا عليها .. فكيف لا وهذه أبيات عاشوا يروونها وتأثروا بها من مثل هذا القول :

إذا مِتُّ فادفني إلى جنب كرمة ثُروى عظامي بعد موتي عُروقُها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ا مت أن لا أذوقها

كلام فيه ذكر للموت وتذكر له ، وفيه وصية لمن يحملونه إلى لحده ، بألا يجعلون مثواه في الفلاة ، وأن يتخيروا له نهاية يرضى عنها بعد موته ..

ولو أحببت لك أحسن من هذا :

لا تسألي الناس ما مالي وكثرته وسائلي القوم ما حزمي وما خلقي

القوم أعلم أني من سَراتهم إذا تطيشُ يدُ الرّعديدة الفرق

قد أركب الهوْل مسدولا عساكره وأكتم السر فيه ضربة العنق

لقد أستوحى قول الحق : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ...فلا المال ولا الولد بالمفاخر التي يتفاخر بها الناس ويتعالون ، وإنما بالأخلاق يتفاخر الناس وتتعالى :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهكذا رأينا في شعر شعراء العصر الجاهلي ما يدل على نبل أخلاقهم ، وسمو سجاياهم ، يدعون إلى تلمس سبل الخير ، قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجُلا

وحين سئل من أين أخذ الأعشى مذهبه ، أجاب : " من قبل العِباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك " .

ويعتبر الأعشى ، وأمرؤ القيس من أقدم الفحول من شعراء الجاهلية ، وكذلك النابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، وقد روى عنهم ما يؤكد تخلقهم بالأخلاق الكريمة ، وأنه جاء فى شعرهم ما يدل على تمسكهم بهذه الأخلاق ، ودعوتهم إليها ، وليس هذا غريباً فقد اختلطوا بغيرهم من الأمم والشعوب ، وتعرفوا على السجايا الحميدة ، وضمنوها أشعارهم ، وقد كانوا قريبين من عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبأصحابه ، وهم رضى الله عنهم ، قد إستحسنوا بعض أشعارهم ، ومنهم من روى لهم هذا الشعر لما فيه من حكمة ومن أدب ، فهذا هو النابغة الجعدى ، وقد عمر عمراً طويلا فى الجاهلية والإسلام ، قال : أنشدت النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا الشعر فأعجب به :

بلغنا السماء مجدُنا وجُدُودُنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال النبى ﷺ : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت : الجنة . فقال: إن شاء الله فقلت : إن شاء الله .

وهكذا كان يتوق إلى الجنة ، ويعمل لها ، ويأمل فى إرتيادها كأنه عليم بكنهها .

ولا خير فى حِلمٍ إذا لم يكن له بوادرُ تحمى صَفوهُ أن يُكدَّرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حَليمٌ إذاما أوْردَ الأمر أصْدرا

فقال النبى ﷺ أجدت ، لا فُض فوك .

ومن اليسير أن نجمع أسماء كثيرين من المعمرين الذين أدركوا الجاهلية من الشعراء وأدركوا الإسلام ، وكانوا على المبادئ والأخلاقيات التى نادى بها الإسلام ، بل أن منهم من اعتنق الإسلام ، ودخل فيه ، وأصبح من شعراء العصر الإسلامى ، فالشاعر حسان بن ثابت كانت له صلة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وروى بعض الصحابة شعره وأخباره ، وروت عنه أم المؤمنين عائشة ، وأختها أسماء بنت أبى بكر ، ويذكر أبو الفرج الأصفهانى ، صاحب كتاب الأغانى ، ما يدل على أن حسان بن ثابت ، ولد قبل الهجرة بنحو من ستين سنة ، وأنه كان غلاماً ابن سبع سنين أو ثمان حينما ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصبح من أشعر الناس ، إلى جانب أنه شاعر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو القائل :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فقد فتنوا بشعر الشعراء الجاهليين ، وكلما وجدوا شعراً فيه مكارم الأخلاق سألوا عن صاحبه ، حتى أن عائشة أم المؤمنين سألت عن صاحب هذه الأبيات :

جزى الله خيرا من إمام وبـــــاركت يد الله فى ذاك الأديم الممـــــــزق

فمن يسمع أو يركب جناحـــى نعامة ليدرك ما حاولت بالأمس يُسبــــق

قضيت أمورا ثم غادرت بعدهـــــا بوائق فى أكمامها لم تُفَتَّـــــــقِ

وما كنـــت أخشى أن تكون رفاتـه بكفّـــىْ سَبَنْتَى أزرقِ العين مُطّرقِ

وهذه أبيات فى الرثاء لذى الأصبع العدوانى :

وليس المرء فى شئ من الإبرام والنقض

إذا يفعلُ شيئاً خا له يَقْضِى وما يَقضِى

جديدُ العيش ملبوسٌ وقد يُوشكُ أن يُنضِى

وهذا بيت يروى لأمية بن أبى الصلت ، يقول :

من لم يمت عَبطةً يمت هَرما الموتُ كأسٌ فالمرءُ ذائقُها

أبيات من الشعر القديم فيها من الحكم والعظات ، ما يجعلنا نقدر هؤلاء الشعراء ونفخر بهم ونحترمهم ، فقد أضافوا إلينا مفهوماً جديداً ، وصححوا لنا مفهوماً قديماً ، ذلك أن العصر الجاهلى لم يعرف شيئاً عن المفاهيم الراقية حول الثوابت الأخلاقية ، وقد أثبتوا على أنهم على دراية كاملة بأسرار الخلق ، وأسرار الكون ، وأسرار الحياة ثم المصير الذى سنؤول إليه ، وبغيتهم فى التطلع إلى الحياة الكريمة فى الدنيا ، والحياة السعيدة فى الآخرة ، ويمنون الفوز فى الدارين ، ومن أجل ذلك جاءت أشعارهم صريحة بحقيقة الإنسان ، وتستنكر الزهو والتفاخر ، وتبصر الإنسان بوضعه الذى يجب ألا ينساه ، وهذه أبيات يقول فيها الشاعر :

تهـــزأتْ عرس واستنكــرتْ شيبـــى ففيهـا جنــف وازورار

لاتكثرى هُـــزءا ولا تعجبــى فليـــس بالشيـــب على المرء عار

عَمرك هــل تدريــن أن الفتى   شبابُــة ثــوبٌ عليــه مُعارُ

ويقول آخر :

فلا يَغــرُركُمُ كبرى فإنــى   كريمٌ ليس فى أمــرى شَتَــاتُ

ويقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبالك يسأم

فقد استثقل وطأة الزمن بما يحمله من شقاء ، وما يسببه من نصب ، ويقرر أنه سئم طول المقام ، فكل شئ أصبح متشابها ، ولا فرق بين غث وثمين ، وأن كل الأمور واحدة ، وهذا ما نحتاج معرفته ، ولا تجده مخالفا لأى عصر من العصور .

وهذه أبيات من قول الأعشى :

إنَّ محلا وإن مُرْتَحَلا   وإن فى السفر ما مضى مَهَلا

استأثر الله بالوفاء وبالـ   ـحمد وولى الملامةَ الرجُلا

والأرض حمالةٌ لما حَمَّل اللـ   ـهُ وما إن تَرُدُّ ما فَعَلا

يوما تراها كَشِبْهِ أردية الـ   ـعَصْب ويوما أديمُها نَغِلا

واستحسنوا هذا البيت :

يا خيــر من يركبُ المطى ولا   يشربُ كأسا بكف من بَخِلا

ومن شعر لبيد :

وكل امرئ يوما سيعلم سَعْيَهُ إذا كُشِفَتْ عند الإلهِ المَحَاصِلُ

وهو شبيه بقول الله تبارك وتعالى " وحصل ما فى الصدور " فهو يدل على أنه قيل فى الإسلام ، أو كان لبيد قبل إسلامه يؤمن بالبعث والحساب .

تلك إشارات من القديم إلى ما قصدت أن ألم به من حكم وخلق فى شعر شعراء العصر الجاهلى ، وأن هذا العصر كان عصراً زاهيا ..

الشك طريق اليقين

الشك طريق اليقين :

لعل مرجوليوث ، وهو من أوائل من أثار الشك فى الشعر الجاهلى فى مقالة كاملة بدأها عن وجود الشعر فى الجاهلية ، فقال : إن وجود شعراء فى بلاد العرب قبل الإسلام أمر شهد به القرآن ، إذ أن فيه سورة واحدة باسمهم ، ثم يشير إليهم من حين إلى آخر فى مواطن أخرى . ومن بين الأوصاف التى كان خصوم النبى ينعتونه بها أنه كان شاعرا مجنونا : " ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون " (الصافات ٣٦) . وكان النبى ينفى عن نفسه هذه الصفة ويجيبهم بأنه إنما " جاء بالحق " . ووردت فى سورة أخرى ثلاثة ألفاظ هى : كاهن ، ومجنون ، وشاعر : " فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون " (الطور ٢٩ / ٣٠) ثم قال : إن الذين وصفوه بأنه شاعر قالوا إنهم سيتربصون ليروا ما سيحدث له ، وأشار إلى أن القرآن قد ذكر أن لغته ليست لغة شاعر ، ولكنها لغة رسول كريم : " إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون " (الحاقة ٤٠ ـ ٤٢) فكلام النبى حقيقة مقررة وعظة واضحة .

ويشير إلى أن خلاصة صفات الشعراء مجموعة فى السورة التى تحمل اسمهم .

وفيها أنهم يتبعهم الغاوون ، وأنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون .

وتستثنى الآيات التى تلى هذه الأوصاف بعض الشعراء الأتقياء من هذا الحكم .

وكانت الشياطين تتنزل على الشعراء ، وكانوا يسترقون السمع فى المجالس السماوية فألقيت عليهم الشهب : " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " (الصافات ٦- ١٠)" إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين " (الحجر ١٨)

ومع أن مرجوليوث أعلن فى مقالته عن وجود الشعر فى الجاهلية إلا أنه ختم حديثه ختاما يكشف عن شكه فى كل ما أورد ، ولسنا هنا فى صدد الحديث عن الشك فى الشعر الجاهلى ، فقد تناولت بعض الأقلام هذه القضية بين مؤيد لها ، وبين معارض ، ولكل أسانيده ووجهة نظره ، ثم تعاور نفر من المستشرقين الحديث عن " صحة الشعر الجاهلى " وكان أكثرهم يرد ، فيما يكتب ، ما ذهب إليه مرجوليوث ، ويفند أدلته وافتراضاته ..

وحتى مرجوليوث لم يطمئن إلى شكه حتى قال : إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كما يبدو عليهم " لسان الوثنية الناطق ، بل كانوا مسلمين فى كل شئ ما عدا الاسم " والدليل هو ما فى هذا الشعر الجاهلى من إشارات إلى قصص دينى ورد فى القرآن ، وما فيه من كلمات دينية إسلامية مثل : الحياة الدنيا ، ويوم البعث والحساب ، وبعض صفات الله . وليس فى هذا شك على الشعر الجاهلى ، إنما هو برهان على أن هؤلاء الشعراء كانوا أهل لغة وبيان ، وأن فصاحتهم جعلت القرآن الكريم يكون بمثل ما هو عليه ، فهم قد نشأوا هذه النشأة العربية ، وعرفوا بنطقهم العربى إلى جانب إختلاطهم بغيرهم من الأمم والشعوب ، ومعرفتهم بكل ما جاء فى حضاراتهم ، وقد ساقتهم فطرتهم إلى الشك فى الآلهة المتعددة ، فجاءت أشعارهم تحمل معنى التوحيد ومن أجل ذلك اشتملت ، أو

اشتمل الكثير منها على مكارم الأخلاق التى نشير إليها ، ونخصص لها هذه الدراسة ..

فبالرغم من أن الشعراء الجاهليين يقسمون كثيرا ، إلا أنهم لا يكادون يختلفون فى قسمهم بالله ، وهو قسم شائع حقاً فى دواوينهم ، حتى إن عبيد ابن الأبرص الجاهلى يقسم بلغة القرآن ، وذلك بقوله :

حلفت بالله إن الله ذو نِعَمٍ   لمن يشاء وذو عفوٍ وتصْفَاحِ

وهذا آخر يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

وفكرتهم عن أعمال الله لا يستنكرها موحد ، فهى قد سبقت فى التعبير عما يعبر عنه القرآن فى كل التفصيلات على وجه التقريب " فهذا ذو الإصبع العدوانى يصف الله : بأنه الذى يقبض الدنيا ويبسطها ويمثل ببيت جليلة بنت مُرة على أن النساء كن يلجأن إلى الله إذا ضربهن أمر كالثكل وهو قولها :

إننى قاتلةٌ مقتولةٌ   ولعل الله أن يرتاح لى

ويتمثل كذلك ببيت عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيبُ

فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فمن يسأل الله يعطيه الله ، ولن يخيب .. تلك كانت من معالم الأخلاق التى كان يدعو بها رسول الله - ﷺ .

وقد كان الجاهليون يخشون ما يغضب الله من الذنوب ، فهذا امرؤ القيس يقول :

فاليوم أشرب غير مُستحقبٍ إثما من الله ولا واغِل

ويستنتج من ذلك أن ديانة هؤلاء الشعراء الجاهليين هى أقرب ما تكون للإسلام ، وقيل : إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا " موحدين متمسكين بالوحدانية بل إنهم ليكشفون عن معرفتهم بأمور يذكر القرآن أنها لم يكن يعرفها العرب قبل نزول الوحى ".

وكان البعض نصارى ، وحيثما يكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسة ، وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثرا كبيرا بتعبيرات الأناجيل ورسائل الحواريين والأناشيد . ومن هنا أيضا كانت تعاليمهم تحض على الفضائل وعلى الخير والمحبة ، وهذا ما تدعو إليه مكارم الأخلاق ، غير أن الشعر الجاهلى فيه ندرة كبيرة فى الإشارات إلى الكتاب المقدس ، وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا فى بلاط مسيحى .

ونعود إلى الألفاظ الإسلامية ، فنجد فى شعر عنترة العبسى ما يدل على أنه كان يعرف وحى القرآن ومصطلحات الإسلام ، وذلك فى إستخدامه الألفاظ " قبلة القُصاد " و " الركوع والسجود " و" حجر المقام " و" الجحيم "و" المحشر " وذلك فى قوله :

إذا بلغ الفطام لناصبى ... تخر له أعادينا سجودا

عجوز من بنى حام بن نوح ... كأن جبينها حجر المقام

كلما ذقت باردا من لماها ... خلته فى فمى كنار الجحيم

ورجعت عنهم لم يكن قصدى سوى ... ذكر يدوم إلى أوان المحشر

ومعروف أن حياة عنترة انتهت قبل الإسلام ، فليس فى ذلك شك فى هذا الشعر من أنه من عصر جاهلى ، وشعراء جاهليين ، إنما هم كانت أخلاقهم محمودة ، ولعل التعاليم الإسلامية كانت منتشرة ، وكانت معروفة قبل الإسلام وجاء الإسلام ليؤكدها ويرشحها ، ويشيد بها ، وعندما جاء القرآن كان أول من استعمل لفظ " الدنيا " للدلالة على الحياة أو هذا العالم ، غير أن الشعراء الجاهليين كانوا على معرفة تامة بهذا التعبير ، كما جاء فى قول عبيد بن الأبرص ، "طيبات الدنيا " وقول ذى الإصبع " عرض الدنيا " .

ويمكن القول بعد هذا العرض الذى عرضناه ، أن ما جاء فى مقالة مرجوليوث دليل على صحة الشعر الجاهلى ، وليس على الشك فيه ، وأن هذا الشعر نقل إلينا عن طريق رواة ثقات أمثال حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، وأذاعه المفضل الضبى ، فى كتابه " المفضليات " والأصمعى فى كتابه : " الأصمعيات " وأبو الفرج الأصفهانى ، فى كتابه " الأغانى " وقد يفترض أن الشعر الجاهلى اعتراه بعض التغيير أثناء التناقل ، فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها ، وقد يؤدى تثبت الذاكرة إلى إسقاط أبيات ، أو تغيير فى ترتيبها ، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسيها . ومثل هذه الظواهر شائعة فى كل مكان .غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من

الشخصية الفردية ما يكفينا للإستدلال على أن القصائد فى معظمها ، من نظم الشعراء المنسوبة إليهم ، فالمعلقات السبع مثلا كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة ، وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها من بعض كل التميز ، ونجد الأمر نفسه فى القصائد الثلاث الباقية (للأعشى والنابغة وعبيد) التى عدها بعض النقاد من المعلقات . فلقد تركت شخصية امرئ القيس وزهير ولبيد والنابغة والأعشى طابعها على شعرهم .

ليس إذن هؤلاء الشعراء من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم هذا الشعر الذى يضاف إليهم ، فلم يكونوا جهالا ولا أغبياء ، ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة ..

وإذاكان شعراء الجاهلية قد عرفوا الله ، وذكروه فى شعرهم ، وعرفوا الصلاة والركوع والسجود ، وعرفوا الآثام والذنوب ، ومن ثم الأوبة إلى الله عز وجل ، فإن ذلك مما يؤكد دراستنا فى الإستدلال على تمسكهم بمكارم الأخلاق التى دعا إليها الإسلام ، وليس ما يقال من شك حول هذا الشعر فى هذا العصر ، من هذه الزاوية ، فمعرفة الشعراء للألفاظ الإسلامية وللصفات الكريمة ، وللذات العلية معرفة فطرية ، سبقهم إليها السابقون من العصور الخوالى ، وقد عزا بعض القدماء شعرا عربيا إلى آدم ، بينما أورد آخرون قصائد غنائية عربية منذ عهد إسماعيل ، كما أن الأقوام الذين أرسلت إليهم الرسل قد عرفوا الله عن رسالاتهم ، ومنهم من اهتدى بفطرته حتى الأنبياء ، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - اهتدى إلى معرفة الله بالفطرة - فطرة الله التى فطر الناس عليها - عندما نظر إلى السماء فرأى كوكبا قال هذا ربى ، ثم رأى القمر فقال هذا ربى ،

ثم رأى الشمس فقال هذا ربى ، ثم وجه وجهه للذى فطر السماوات والأرض . يقول القرآن الكريم : " وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين " (الأنعام ٧٥-٧٩) هذا سيدنا إبراهيم وقومه الذين اتبعوه ، وأمنوا معه . وعرفت السيدة مريم المطهرة الركوع والسجود " يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين " (آل عمران ٤٣) ويونس النبى دعا الله وهو فى بطن الحوت " لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين " (الأنبياء ٨٧) فاستجاب له الله ونجاه من الكرب العظيم ، وآمن معه قومه وعرفوا الله ، وهكذا عرف السابقون ربهم ، واهتدوا إليه ، فلا غرابة فى أن يذكر الشعراء الجاهليون الله فى شعرهم ، وأن يعرفوا صفاته وتعاليمه التى كشف عنها العصر الإسلامى .

ورغم أن الدكتور طه حسين سلك سبيل مرجوليوث فى الإستنباط والإستنتاج والتوسع فى دلالات الروايات والأخبار ، وتعميم الحكم الفردى الخاص واتخاذه قاعدة عامة ، ثم صاغ تلك المادة وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفنى ، وبيانه الأخاذ حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من الشك فى الشعر الجاهلى من الوجهه اللغوية والفنية ، وأنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والإقتصادية للعرب الجاهليين - مع أن العرب كانوا على اتصال بمن

حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوى - ومع أن العرب كانوا على علم باللغة العربية .

وقد ختم الدكتور طه حسين فى كتابه " فى الأدب الجاهلى " حديثه عن دوافع شكه فى الشعر الجاهلى بعبارة فيها جماع ما ذكر ، وفيها تمهيد لما سيذكر ، وذلك قوله :" إن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل : أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، بل لا يمثل لغتهم - أليس هذا الشعر قد وضع وضعا ، وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام ؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن فى هذا . ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الأسباب المختلفة التى حملت الناس على وضع الشعر والنثر ونحلهما بعد الإسلام " .

وقد كان لكتاب " فى الشعر الجاهلى " أثر كبير ، ودوى شديد ، فأشرع كثير من العلماء والأدباء أقلامهم وتناولوا الكتاب وما فيه بالنقد والنقض وتفاوت نقدهم واختلفت طرائقهم ، فاعتدل البعض ، وغلا البعض الأخر ، واستدل كلٌ بما لديه من أسانيد لما يقول ، وهم بين معارض ومؤيد ..

وقد بينا فى دراستنا عن " مكارم الأخلاق فى الشعر الجاهلى " ما كان عليه العرب فى بيئتهم ، وما اتصف به الشعراء فى هذا العصر من الحكمة والتحلى بالأخلاق ، وأنهم استمدوا ممن جاورهم من الأمم الحضارة والعلم .. وأصبح شعرهم ذا قدسية عند الناس ، ومن أجل ذلك حفظوه ، وبقى دالا بنفسه على قيمته ، مشيرا إلى ما كان عليه بعضهم من شيم أعلنوها فى شعرهم ، فهذا لبيد الشاعر يقول :

من هداه سُبُلَ الخير اهتدى ناعم البالِ ومن شاء أضَل

ويقول الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالـ حمد وولّى الملامةَ الرجلا

وقد أخذ الأعشى مذهبه من قِبل العِباديين ، نصارى الحيرة .

ولو دققنا فى شعر هؤلاء الشعراء وأمثالهم فى العصر الجاهلى ، ولاحظنا ما فى شعرهم من قيم رفيعة عالية ، دعتهم إلى أن يحافظوا على شعرهم ، وأن يفعل مثلهم من سيأتى بعدهم ، ولوجدنا أن الإسلام لا يمكن أن يكون شجرة منبتة الأصل عن البيئة التى وجدت فيها ، لا تمت بنسب إلى عقول العرب ، فهذا يخالف طبيعة الأشياء .

والأولى أن الإسلام كان نتيجة كبرى لتفاعلات هائلة كانت تضطرب بقلب الجزيرة العربية ، فتكشفت عنه ، وأتى مجملا لخلاصتها وزبدتها .

وهذا القول يضع الأمور فى نصابها ، ويفسر لنا حقائق كبرى ، نقابلها فى تاريخ العرب ، وفى أخلاقهم ، وفى طبيعة تكون الإسلام وتطور اللغة ، وسلامة بنيتها ، ورقى الجماعة وتنظيمها ، وسمو تشريعها .

ونحن نجد عند شعراء هذا العصر التسامى فى تصور الأمور وتصويرها ، والتعلق بالجميل من كل شئ ، وإدراك العلاقة بين مظاهر الجمال فى الكون ، واختيار بعضها للتعبير عن البعض الآخر .

فالشاعر الجاهلى إذا نظر فى الخَلق أو الخُلُق ، لم يباعد تعلقه بالحقيقة وواقع الحياة ، بينه وبين اختيار الأجمل والأكمل جميعا . تجد ذلك فى حبه ما

يحب وفى كراهته ما يكره على السواء . وليس ألصق بطباع العربى - من الشهامة والتضحية بذاته تضحية لا يرجو من ورائها شيئا فى سبيل أصدقائه ، والشعر يضع بين أيدينا الدليل على أنهم كانوا يجزعون أشد جزع إذا رأوا جارا ينكث بعهد جاره .وتجده فى تصوير الأشياء ، واختياره وجوه الدلالة عليه وتجده فى انتحاءاته الفكرية وفى إدراكه معنى الفضائل وفى تقويمه لها .

ولهم فى تصوير خلجات النفس دقة بالغة ، هى خلة من خلال النفس العربية ، فهذا امرؤ القيس يجعل الليل والنهار سواء عليه ، يقول :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وفضلوا عليه النابغة فى قوله :

وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همّهِ تضاعف فيه الحزنُ من كل جانب

فإنه جعل صدره مألفا للهموم ، وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه ، كما تريح السائمة بالليل إلى أماكنها .

وفى افتتاحية الشاعر الجاهلى لقصيدته كان يلجأ إلى التعبير الرمزى ، وذلك عن طريق الغزل الذى يقدم به الشاعر لقصيدته ، فهو لا يقصد به إلى موضوعه ، وإنما يقصد به إلى غير ذلك مما يهم الشاعر أمره ، ويأخذ عليه نفسه ، ومن هنا يأخذ ذلك الاستفتاح الغزل للقصيدة الجو الذى يعيش فيه الشاعر ، والذى يملى عليه شعره . فالمرأة فى ذلك رمز ، وأسماء النساء

تقليدية ، تجرى فى الشعر عند الشعراء دون وقوع على صاحبتها ، ومن ذلك المقدمة الغزلية لمعلقة الحارث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يمل منه الثواءُ

ومنها :

وبعينيك أوقدتْ هندٌ النـــ ــار أصيلاً تُلوى بها العلياءُ

فأسماء شخصية خيالية . وهند لقب جرى على بنات ملوك المناذرة ، ولذلك نجد اسم هند يكاد يقع فى شعر كل شاعر اتجه إلى ملوك المناذرة بمدح أو بذم .

فهذه الأسماء إنما أريد بها إثارة معان معينة فى نفوس المتلقين ممن يهمهم الأمر .

ومن الأسماء أيضا اسم "هر" فهذا الاسم بقى فى شعر الشعراء الجاهليين كما جاء فى مطلع قصيدة لطرفة :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر

وقد مثلت هذه الافتتاحيات فى القصيدة الجاهلية بافتتاحيات السور فى القرآن الكريم . فكلاهما يرمز إلى شئ آخر غير المضمون والمقصود من النص ، وإن كان فيها إشارة إلى أهمية ما سيأتى بعدها ، وإلى الدعوة إلى التفكر والتأمل فى مثل هذه الافتتاحيات ، وهى على كل حال تمثل قيمة بالغة للغة ، ولعرض ما بعدها من قيمة . وقد أشرت إلى ذلك فى كتابى " تطور الصورة فى الشعر الجاهلى " وتناولت القضية بتفصيلاتها ..

وقد تناول الشعر الجاهلى من شئون الحياة ومظاهرها ، كل ما يمكن أن يتعلق به الشعر عند قوم كهؤلاء ، مرت بهم عهود طويلة رفيعة من الحضارة واستقلال الشخصية ، ونجد فى أساليبه وموضوعاته ، وصور الأداء فيه ، كل ما وجد فى الشعر عند الأمم الأخرى وأكثر من ذلك . قال عمر بن الخطاب : " كان الشعر علم قوم ، لم يكن لهم علم أصح منه " .

ويقول ابن سلام :" فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، تشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر ورواياته " .

فضائل الكلم

فضائل الكلم :

كان زهير يندب الشر الذى دب بين قومه ، وأرث نار الحرب فيهم طويلاً ، وقد دفعه كثرة ما فاض من دمائهم إلى تصوير شناعة الحرب وهول خطوبها ، يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المرجم

لقد أصبحت الحرب رحى فتاكة تدور على الناس ، لا تترك وراءها إلا الموت والخراب ، بعدما طالت وتضاعفت أهوالها ، وآثارها فى القوم . وزادت أهوال الحرب حتى صح عند العرب جميعا أن الوحدة التى ظلوا يحاربونها أول الأمر يجب أن تعود .

ثم تمخض هذا الصراع الفكرى والاعتقادى الطويل آخر الأمر عن أشرف عقيدة ، وأسمى رأى وقع عليه الإنسان منذ فتح بصره على الحياة . تمخض عن الإسلام ، وعن التوحيد المجرد .

وكأنما كان الإسلام هو الخلاصة النقية التى تبلورت فيها كل آمال هذه الأمة ، وتمثلت فيها مطالبها النفسية ، وما كانت تستشرف إليه من مقعد تجتمع عليه كلمتها المتفرقة .

وكأنما كانت هذه الأمة تساق سوقا إلى هذه الغاية ، وتهيأ لتقبل هذه الدعوة ، وللنهوض بالأعباء المترتبة بعدذلك على قبولها .

والإسلام لم يلق الحرب إلا من قريش ، ولم يقف منه موقف العناد إلى هذه البيئة التى كان سلطان الدين القديم يظلها ، ويخضع لها جميع رقاب العرب

ويوم غلب على معقل النضال هذا فى مكة ، سارع الناس إلى الدخول فى دين الله أفواجا ، ودانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، لم يخالف عليه أحد كأنه الوضع الطبيعي الذى لابد ان تنتهى إليه الأحوال .

ولم تلبث الوحدة الجديدة أن آتت ثمارها ، فقذفت إلى البحر بالبقية الباقية فى اليمن من سلطان الفرس ، وملك الأبناء ، ثم اتجهت إلى الشمال تريد الروم . ولكن مؤتة كانت عقبة مؤقتة ، لم تصرف العرب عن التفكير فى التخلص من آخر مظاهر السلطان الأجنبى فى الجزيرة نفسها ، كما لم تصرف أحد المسلمين عن تحقيق الوحدة العربية فى الجزيرة .

وأخذ العرب يشعرون بنعمة الدين ، الذى وهبه الله لهم ، وأخذ يخف عن الناس ذلك الروع الذى كان يقع بهم من جراء التهديد الهائل الذى كانوا يجدونه من جيرانهم .

وإنا لنقرأ نغمة الانتشاء بهذا واضحة فى شعر شاعر كالنابغة الجعدى :

بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا — وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

القرآن قمة البلاغة ، ومعجزة الدين الجديد - وكانت معجزة الدين الجديد القرآن . والقرآن أثر فنى رفيع ، بالغ من الرفعة أسمى ما يمكن أن ينتهى إليه أثر فى هذه اللغة ، وهو كتاب تنظيم وحشد لقوى أمة ، وتشريع لعالم بأسره أولا .

وارتفاع مستواه الجمالى إلى هذا الحد إنما أراده الله ليلقى النبى به تلك المُثل البلاغية الكبرى من الشعر الجاهلى التى كانت سلاحا من أسلحة القوة فى الخصومة والفتن التى غلبت قبل الإسلام ، ولولا أن كان هذا المستوى البلاغى للشعر الجاهلى لما تذوق العرب ما له من جمال .

والعرب قوم ذوو لسن ، وذوق قولى ممتاز ، فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله ،كما أخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة ، المبرأة من النقائص التى كانت تصيب الشرائع الأخرى .

فشغلوا بالقرآن ، وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله ...

ومن قبل كان الشعراء الجاهليون ينظمون فضائل الكلم فى قصائدهم مما أعانهم بعد ذلك على الاستماع إلى القرآن الكريم ، وكانت أغراضهم فى الشعر تحمل المعنى الأخلاقى حتى فى شعر الغزل ، فقد عرفوا به ، ولكننا نجد عندهم الغزل العذرى الذى نشأ بعد ذلك فى الإسلام ، وترعرع فى وادى القرى فى بيئة بين بين ، لا هى من الحضر بمعنى الكلمة ، ولا هى من البادية بمعنى الكلمة حيث تضطرب الحياة بين الجفوة واللين ، والشقوة الملهمة والأمل الخلُب .

وهذا المذهب من الشعر العذرى أو الشعر العفيف اشتق أصوله من مقدمات وقعت فى الشعر الجاهلى ، وأستاذ الجميع فى هذا هو عنترة العبسى .

ففى غزل عنترة صورة فريدة من المزج بين الهوى والبطولة ، والبطولة ضرب من الأخلاق ، والسمو النفسى ، فعنترة المحب الرجل فى وقت جميعا ، وخير ما يمثل عرضه قوله :

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهل ... مِنّى وبيضُ الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغركِ المبتســـم

وهو شاعر عفيف ، وفىٌّ فى حبه ، لا يتعدد هواه كما يفعل امرؤ القيس ، وهو وإن جرى على عادة الشعراء غيره فى التمدح ببطولته وجرأته على غيره ، إلا أنه لا يزال رجلا قوى الخلق :

أغشى فتاة الحى عند حليلها ... وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها

وهو شديد الشغف بهذه الفضائل التى كانت فى عهده من سمات الرجولة ، والخلق الحسن .

وأغض طرفى ما بدتْ لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها

إنى امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفسَ اللجوج هواها

وهو شاعر مطبوع رقيق النفس ، صادق الشعور :

أفمن بكاء حمامة فى أيكة ... ذَرَفَتْ دموعُك فوق ظهر المحمل

كالدر أو فَضَضِ الجمان تقطعت ... منه عقائد سلكه لم يوصَل

ثم قوله :

وأنتِ التى كلّفتِنى دَلَج الأجى ... وبيضُ القَطا بالجَلْهتين جُثوم

فليس أروع من هذه الصورة ، وليس أعرق فى الشاعرية من الدلالة بها على هواه ، وليس أكثر منها توفيقا فى الربط بين حبه وبين صورة من صور بطولته : وهى السُّرى فى الليل ، تحقيقا لمطامحه وآماله .

أنت التى كلفنى هواك مجافية الكرى ، وأطار من عينى الرقاد ، ودفع بى إلى قطع المفاوز فى ظلمة الليل ورهبته ،وطيور القطا البيض لا تزال تتراءى خلال فحمة الليل ، جثوما على ضفتى الوادى . لم يُثِيرها بعد خوف إنسان فارق الرقاد كما فارقته . فالناس لا يزالون هجوعا ، ولم يَجْفُ الفراش إلا جَنْبُ مكروب مثلى .

انظر كيف دل على ظلمة الليل حتى لا تتراءى فيه إلا هذه الطيور ناصعة البياض ، وكيف دل على سكونه ، حتى إن هذه الطيور التى لا يخفى عليها سمع أضأل الأصوات وأخفها ، لا تزال مهوّمةً نائمة ، وكيف أشار إلى انفراده هو باليقظة بجعله هذه الطيور جثوما نوّما على جنبتى الوادى .

والوادى أول شئ يرده أول مستيقظ : ترده العذارى حين يستيقظن فى الصحراء ليملأن جرارهن والصبح لما يتفجر نوره .

هذا هو عنترة ، الشاعر الجاهلى ، والشاعر البطل ، ورأس هذه المدرسة التى نشأت بعد ذلك، عذرية الهوى ، عفة الشعر .

المعلقة الأولى

إمرؤ القيس

امرؤ القيس :

امرؤ القيس فحل من فحول أهل الجاهلية وهو رأس الطبقة الأولى وقرن به ابن سلام زهيرا والنابغة وأعشى قيس . قال يونس بن حبيب : إن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر ، وإن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وإن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيرا والنابغة . وقيل للفرزدق من أشعر الناس ؟ : الملك الضليل . ثم قيل من ؟ قال : ابن العشرين يعنى طرفة . قيل له : ثم من؟ قال : أبو عقيل " يعنى نفسه " .

ويدل على تقدم امرئ القيس فى الشعر : ما روى أنه وفد قوم من اليمن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يا رسول الله : أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس بن حجر ، قال : وكيف ذلك ؟ قالوا : أقبلنا نريدك فضللنا الطريق فبقينا ثلاثا بغير ماء ، فاستظللنا بالطلح والسمر فأقبل راكب متلثم بعمامة وتمثل رجل ببيتين وهما :

ولما رأت أن الشريعة همها	وأن البياض من فرائضها دامى
تيممت العين التى عند ضارك	يفيئ عليها الظل عرمضها طامى

فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس بن حجر ، قال : والله ما كذب هذا ضارج عندكم . فجثونا على الركب إلى ماء كما ذكروا عليه العرمض يفئ عليه الطلح فشربنا رينا ، وحملنا ما يكفينا ويبلغنا الطريق .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - ذاك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها ، منسى فى الآخرة خامل فيها . يجئ يوم القيامة ومعه لواء الشعراء إلى

النار ، وروى يتدهدى بهم النار . فيروى أن كلا من لبيد وحسان ابن ثابت . قال : ليت هذه المقال فى وأنا المدهدى فى النار .

ونقل السيوطى عن ابن عساكر عن ابن الكلبى ، قال : أتى قوم رسول الله ﷺ فسألوه عن أشعر الناس ؟ فقال : ائتوا حسان . فقال : ذو القروح يعنى "امرأ القيس" إلا أنه لم يعقب ولداً ذكراً أو إناثا ، فرجعوا فأخبروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : صدق . شريف فى الدنيا ، وضيع فى الآخرة ، هو قائد الشعراء إلى النار . ولا قول لأحد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسقطت التفاصيل الواردة عن العلماء بالشعر . ولا يحتج بقوله تعالى " وما علمناه الشعر " لأن المراد ما علمناه قوله ، وإلا فإن معرفة كلام العرب مقصورة عليه صلى الله عليه وسلم .

وقد بدأ أمرؤ القيس معلقته بقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

إذا تناولنا معلقة امرئ القيس التى يتحدث فيها عن عشقه لابنة عمه عنيزة نجده بعد أن أفاض الوصف فى تعلقه بها يأتى بأبيات نلمح فيها عمق الوصف ، ورقة الكلمة وعذوبة الأسلوب ، وسمو العبارة ، وذلك من مثل قوله فى أم الحويرث وأم الرباب ، وقد فاضت ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره إذا قامتا ، وشبه طيب رياهما بطيب نسيم هب على قرنفل وأتى برياه ، وذلك فى وصفهما بالجمال وطيب النشر ، يقول :

إذا قامتا تضوّع المسكُ منهما نسيم الصّبا جاءت بريّا القرنفُلِ

ففاضتْ دُموعُ العين منى صبابة على النّحْرِ حتى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِى

.لقد سالت دموع عين الشاعر من فرط وجده بأم الحويرث ، وأم الرباب ، وشدة حنينه إليهما ، حتى بل دمعه حمالة سيفه ، وفاضت دموع عينه منه للصبابة . وقد نصبت كلمة صبابة ، على أنها مفعول له كقولنا : زرتك طمعا فى برك ، قال تعالى :" يجعلون أصابعهم فى أذانهم من الصواعق حذر الموت " أى لحذر الموت ، وكذلك ررتك للطمع فى برك .

وإنك لتلمح عاطفة الشاعر فى هذين البيتين ، وترى إلى أى حد كان الشاعر مجيدا فى الوصف ، ومعبرا عن مشهد يحمل إلينا التعاطف والتآزر معه .

ونقف عند هذا البيت الذى يقول فيه :

تُضئُ الظلامَ بالعشاء كأنها منارة مُمْسَى راهبٍ مُتَبتِّلِ

والممسى بمعنى الإمساء والوقت جميعا ، ومنه قول أمية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبّحنا ربى ومسانا

والمتبتل : المنقطع إلى الله بنيته وعمله ، والبتل : القطع ، ومنه قيل مريم البتول لانقطاعها عن الرجال ، واختصاصها بطاعة الله تعالى ، فالتبتل إذن الانقطاع عن الخلق والاختصاص بطاعة الله تعالى ، ومنه قوله تعالى " وتبتل إليه تبتيلا " .

يقول : يضئ هذا الوجه بنوره ظلام الليل ، وكأنه مصباح راهب منقطع عن الناس ، وخص مصباح الراهب لأنه يوقده ليهتدى به عند الظلام ، فهو يضيئه أشد الإضاءة ، يريد أن نور هذا الوجه يغلب ظلام الليل ، كما أن مصباح الراهب يغلبه .

هذه المعانى التى يحملها هذا البيت قريبة الشبه ، أو هى مشابهة لمعانى صدر الإسلام ،بل إنها لتدل عليه - إن صح هذا التعبير- فنحن إذن أمام شعر من العصر الجاهلى ، ولشعراء جاهليين ، لكن فيه من الحسن والجمال والأيات ما يعد بحق من الفضائل ، ونحن نجد مثل هذا المعنى فى القرآن الكريم كما ذكرت فى قول الله تعالى :" وتبتل إليه تبتيلا " ثم انظر إلى من أصابته الهموم ، ومسته الشدائد ، كيف يكون حاله عليه ، لقد استطاع امرؤ القيس أن يصور هذا المشهد ، عندما قال :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَه	علىّ بأنواعِ الهمُومِ ليبتلى
فقلتُ له لما تَمطّى بصُلْبِه	وأردفَ أعجازاً وناءَ بكَلْكَلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلى	بصُبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ
فيا لكَ من ليلٍ كأن نجومَهُ	بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ

شبه ظلام الليل فى هوله وصعوبته ونكارة أمره بأمواج البحر ، فيقول : ورب ليل يحاكى أمواج البحر فى توحشه ، وقد أرخى على صاحبنا ستور ظلامه مع أنواع الأحزان ، أو مع فنون الهم ، ليختبره أيصبر على ضروب الشدائد وفنون النوائب أم يجزع منها ، وهو هنا يدعو إلى الصبر والتجلد وهما

من شيم مكارم الأخلاق ، وهى أيضا من المعانى السامية التى نادى بها الإسلام بعد ذلك ، فمن أصابته مصيبة فصبر كان جزاؤه عظيماً عند الله ، وقال : " اشتدى أزمة تنفرج " .

وفى البيت الثانى استعار الشاعر بالليل كلمة " صُلب " ، واستعار لطوله لفظ " التمطى " ليلائم الصلب ، واستعار لأوائله لفظ " الكلكل " ولمآخيره " الأعجاز " .

وفى الصلب ثلاث لغات مشهورة ، وهى : الصلب ، بضم الصاد وسكون اللام ، والصلب بضمهما ، والصلب بفتحهما ، ومنه قول العجاج يصف جارية :

ريا العظام فخمة المخدم　　　فى صلبٍ مثل العنان المؤدم

ولغة غريبة وهى الصالب ، وقال العباس عم النبى - صلى الله عليه وسلم - يمدح النبى - عليه السلام - :

تنقل من صالب إلى رحمٍ　　　إذا مضى عالم بدا طبق

ويقول شاعرنا لليل لما مد صلبه يعنى لما أفرط طوله ، وأردف أعجازا يعنى ازدادت مآخيره امتدادا وتطاولا ، وناء بكلكل يعنى أبعد صدره ، أى بعُد العهد بأوله ، وطول الليل ينبئ عن مقاساة الأحزان والشدائد والسهر المتولد منها ، لأن المغموم يستطيل ليله ، والمسرور يستقصر ليله ، فلما أفرط الليل طوله ، وناءت أوائله وازدادت أواخره تطاولا ، قال له : ألا أيها الليلُ الطويل انكشف وتنحَّ بصبح ، أى ليزُل ظلامك بضياء من الصبح ، ثم قال : وليس الصبح بأفضل منك عندى لأنى أقاسى الهموم نهارا كما أعانيها ليلا ، أو لأن

نهارى أظلم فى عينى - لازدحام الهموم على حتى حكى الليل . أو قل : وما الإصباح فى جنبك أو فى الإضافة إليك أفضل منك ، لأنه لما ضجر بتطاول ليله خاطبه وسأله الإنكشاف . وخطابه مالا يعقل يدل على فرط الوله ، وشدة التحير .

ألست معى وكأن الشاعر يستنطق مشاعرنا وأحاسيسنا ، وكأنه عليم ببواطن أمورنا ، فنقل عنا ما نكابده وما نحس به عند الشدائد ، ولسان حاله يقول : أنا جزء منكم ، وأعلم بما يكون عليه المرء فى الأزمات ، وساعة النكبات ، فليس الجاهلى بمنأى عن مثل هذه المواقف ، وتلك المشاهد ...

ويعود مخاطبا الليل : فيا عجب لك من ليل كأن نجومه شُدت بحبال من الكتان إلى صخور صلاب ، وذلك أنه استطال الليل فيقول : إن نجومه لا تزول من أماكنها ولا تغرب فكأنها مشدودة بحبال إلى صخور صلبة ، وإنما استطال الشاعر الليل لمعاناته الهموم ، ومقاساته الأحزان فيه ، ويروى عجز البيت : كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل ، أى كأن نجومه قد شدت إلى يذبل بكل حبل محكم الفتل . والروايتان تدلان على قسوة الليل ومعاناة الشاعر فيه .

ومن مكارم الأخلاق التى عرفها الجاهليون الكرم وتحمل أثقال الحقوق ونوائب الأقوام من قرى الأضياف ، وإعطاء العفاة والعقل عن القاتلين ، يقول امرؤ القيس :

وقِرْبَةِ أقْوامٍ جَعَلْتُ عِصامَها على كاهِلٍ مِنّى ذَلُولٍ مُرَحّلِ

يقول : ورب قربة أقوام جعلت وكاءها على كاهل ذلول قد رُحل مرة بعد مرة أخرى منى ، فقد تعود التحمل للحقوق والنوائب ، واستعار حمل القربة

لتحمل الحقوق ثم ذكر الكاهل لأنه موضع القربة من حاملها ، وعبر بكون الكاهل ذلولا مرحلا عن إعتياده تحمل الحقوق ، وربما تمدح فى هذا البيت بخدمة الرفقاء فى السفر وحمله سقاء الماء على كاهل قد مرن عليه ، وفى الحالين هو ينبئ عن مكرمة اعتادها العربى ، وأصبحت شيئا لازما فى حياته.

ويستخدم امرؤ القيس فى شعره بعض الألفاظ التى عُرفت فى الإسلام من مثل كلمة الحرث وهى بمعنى إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ، كما فى هذا البيت :

كِلانا إذا ما نالَ شيئا أفاته   وَمَن يحترثْ حرثى وحَرْثك يهزِلِ

فقد استعار كلمة الحرث للسعى والكسب كقوله تعالى :"من كان يريد حرث الأخرة" والإحترات والحرث واحد . يقول : كل واحد منا إذا ظفر بشئ فوته على نفسه ، أى إذا ملك شيئا أنفقه وبذره ، ثم قال : ومن سعى سعيى وسعيك افتقر وعاش مهزول العيش ، وهذ تعبير ندركه فى عصرنا الحديث .

ومن مكارم الأخلاق فى شعر القدماء الفروسية والبطولة والفخر بها ، ووصف الخيل وبيان مكانتها ومنزلتها عند العربى ، وحتى يومنا هذا ، وقد أوصى سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بتعلم الفروسية عندما قال : "علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل" فقد كان يدرك أهمية الخيل ومالها من منافع للبشر فى السلم وفى الحرب .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخيل فى كرها وفرها ، مبينا صفاتها وأهميتها ، فيقول سبحانه وتعالى :"والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا" .

وها هو امرؤ القيس يكشف لنا عن تمسك الشاعر العربى بالفروسية ، ويعدد أوصافها ومميزاتها فيقول :

وقد اغْتَدى والطيرُ فى وُكُناتِها	بمُنجردٍ قَيدِ الأوابِدِ هيكلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معا	كجُلْمودِ صَخْرٍ حطهُ السيلُ عن عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِلّ اللبْدُ عن حال مَتْنِه	كما زَلّتِ الصّفْواءُ بالمُتَنَزّلِ
على الذَّبْلِ جياشٍ كأن اهتزامهُ	إذا جاشَ فيه حميُهُ غَليُ مِرْجَلِ
مِسَحٍّ إذاما السّابحاتُ على الونى	أثَرْنَ الغبَارَ بالكَديدِ المرُكّلِ
يُزِلّ الغلامَ الخِفَ عن صَهَواتِهِ	ويُلوى بأثْوابِ العَنيفِ المُثقلِ
دَريرٍ كخُذْروفِ الوليد أمَرّه	تَتابُعُ كَفّيْهِ بخيطٍ مُوَصّلِ
له أيطَلا ظَبيٍ وساقا نَعَامَةٍ	وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
ضليعٍ إذا استَدْبَرتَهُ سَدّ فرجَه	بضافٍ فُوَيْقَ الأرض ليس بأعزلِ

يقول : وقد اغتدى والطير بعد مستقرة على مواضعها التى باتت عليها على فرس ماض فى السير قليل الشعر ، يقيد الوحوش بسرعة لحاقه إياها . كما أنه عظيم الألواح والجرم ، وهو هنا يتمدح بالفروسية بعد ما تمدح بتحمل حقوق العفاة والأضياف والزوار ، وهو من مكارم الأخلاق ، وتمدح بالصبر والجلد فى طى الفيافى والأودية ، وهى شيمة عرفها العربى القديم ، ثم هو يتمدح هنا بصفات العربى الأصيلة فى استقبال يومه فى البكور ، ثم فى خروجه إلى حيث يكون العمل فيقول : وربما باكرت الصيد قبل نهوض الطير من أوكارها على

فرسى هذه ، وقوله : قيد الأوابد ، جعله لسرعة إدراكه الصيد كالقيد لها لأنها لا يمكنها الفوت منه كما ان المقيد غير متمكن من الفوت والهرب .

وتأخذ من هذا البيت معنى نبيلا ، لو حرصنا عليه لربحنا الكثير ، وهو استقبال اليوم ، والقيام بالعمل فى البكور ، فكلما استيقظ المرء مبكرا ، وبدأيومه منذ أول شروق الشمس كان فى ذلك البركة طول اليوم ، إلى جانب الإحساس بالقوة والنشاط والرغبة فى العمل ، وكما قيل " البركة فى البكور " .

ويصف الشاعر مركبته ، وآلته التى تحمله إلى حيث غايته ، وهى هنا هذاالفرس ، فيقول : هذا الفرس مكر إذا أريد منه الكر ، ومفر إذا أريد منه الفر ومقبل إذا أريد منه إقباله ، ومدبر إذا أريد منه إدباره . وقوله : معا ، يعنى أن الكر والفر والإقبال والإدبار مجتمعة فى قوته لا فى فعله لأن فيها تضادا . وقد أفاض الدكتور محمد زكى العشماوى ، أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأسكندرية فى هذا المعنى إفاضة بالغة بحيث جسمت الصورة وشخصتها وجعلتها ناطقة موحية . ويعود الشاعر هنا فيشبه فرسه فى سرعة مرة ، وصلابة خلقة بحجر عظيم ألقاه السيل من مكان عال إلى أسفل .

وهذا الفرس الكميت يزل لبده عن متنه لانملاس ظهره واكتناز لحمه ، وهما يحمدان من الفرس ، كما يزل الحجر الصلب الأملس المطر النازل عليه ، وقيل : بل أراد الإنسان النازل عليه ، والتنزل والنزول واحد ، والمتنزل فى البيت صفة لمحذوف وتقديره : بالمطر المتنزل أو الإنسان المتنزل ، والمعنى أنه لاكتناز لحمه وانملاس صلبه يزل لبده عن متنه ، كما أن الحجر الصلب يزل المطر أو الإنسان عن نفسه .

ويعمد الشاعر إلى تصوير نشاط فرسه ، وضمور بطنه ثم شبه تكسر صهيله فى صدره بغليان القدر ، ونسى أن يصور وقع أقدام فرسه ، وسبحان الله تعالى المصور المبدع فى قوله :" والعاديات ضبحا فالموريات قدحا " فقد صورت كلمة "ضبحا" وكلمة "قدحا" تصويرا يغنى عن أبلغ تصوير .. فإذا كانت الخيل تضبح من شدة جريانها ، وسرعتها تقدح الأرض بحوافرها حتى أن الشرر يتطاير منها دليل قوتها ، وسرعة عدوها ، فإن شاعرنا هنا يبالغ أيضا فى وصف سرعة فرسه وقوته وشدة جريانه وأنه يصب الجرى والعدو صبا بعد صب .. فهو يجئ به شيئا بعد شيئ ، إذا أثارت جياد الخيل التى تمد أيديها فى عدوها الغبار فى الأرض الصلبة التى وُطئت بالأقدام والمناسم والحوافر مرة بعد أخرى فى حال فتورها فى السيل وكلالها ، يعنى إنه يجئ بجرى بعد جرى إذا كلت الخيل والسوابح وأعيت ، وأثارت الغبار فى مثل هذا الموضع .

إن هذا الفرس يزل ويزلق الغلام الخفيف عن مقعده من ظهره ، ويرمى بثياب الرجل العنيف الثقيل ، يريد أنه يزلق عن ظهره من لم يكن جيد الفروسية عالما بها ، ويرمى بأثواب الماهر الحاذق فى الفروسية لشدة عدوه وفرط مرحه فى جريه ، وإنما عبر بصهواته ولا يكون له إلا صهوة واحدة ، لأنه لا لبس فيه فجرى الجمع والتوحيد مجرى واحداً عند الاتساع لأن إضافتها إلى ضمير الواحد تزيل اللبس كما يقال : رجل عظيم المناكب وغليظ المشافر ،ولا يكون له إلا منكبان وشفتان،ورجل شديد مجامع الكتفين ،ولا يكون له إلا مجمع واحد. وقد يقصد بالصهوات لتعدد حركته فالراكب لايثبت على صهوة واحدة ، فتعدد الصهوات لتعدد تحرك الفارس على ظهره من شدة عدوه ، كما تقول المشارق

والمغارب لتعدد غروب الشمس وشروقها مرة بعد أخرى ، أو من شروقها من مكان لمكان آخر ، وكذلك الغروب .

وقد شبه الشاعر سرعة هذا الفرس بسرعة دوران الحصاة على رأس الصبى ، فهو يدر العدو والجرى أى يديمهما ويواصلهما ويتابعهما ، ويسرع فيها إسراع خذروف الصبى إذا أحكم فتل خيطه وتتابعت كفاه فى فتله وإداراته بخيط قد انقطع ثم وصل ، وذلك أشد لدورانه لانملاسه ومرونه على ذلك . والمعنى : أنه مديم السير والعدو متابع لهما ، ثم شبهه فى سرعة مرّه ، وشدة عدوه بالخذروف فى دورانه إذا بولغ فى فتل خيطه وكان الخيط موصلا .

وللفرس خاصرتان كخاصرتى الظبى فى الضمر ، وله ساقان كساقى النعامة فى الانتصاب والطول ،وصور عدوه بإرخاء الذنب ، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب .

إن هذا الفرس عظيم الأضلاع منتفخ الجنبين إذا نظرت إليه من خلفه رأيته قد سد الفضاء الذى بين رجليه بذنبه السابغ التام الذى قرب من الأرض وهو غير مائل إلى أحد الشقين ، فسبوغ ذنبه من دلائل عتقه وكرمه ، وشرَطَ كونه فويق الأرض لأنه إذا بلغ الأرض وطئه برجليه ، وذلك عيب ، لأنه ربما عثر به ، وإستواء عسيب ذنبه أيضا من دلائل العتق والكرم .

ويستمر الشاعر فى وصف فرسه ، ووصف صيده ، مشبها انملاس ظهر فرسه واكتنازه باللحم بالحجر الذى تسحق العروس به أو عليه الطيب ، بالحجر الذى يكسر عليه الحنظل ويستخرج حبه ، فيقول :

كأنّ على المتْنَينِ منه إذا انْتَحى مَداكَ عروسٍ أو صَلايَةَ حنظل

ثم يقول :كأن دماء أوائل الصيد والوحوش على نحر هذا الفرس عصارة حناء على شعر الأشيب :

كأن دِماءَ الهاوياتِ بِنَحْرِهِ عُصارةُ حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ

وهاهو مشهد الصيد يتراءى أمام اعيننا من خلال هذه الأبيات التى يقول فيها :

فَعَنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نِعاجَهُ عَذارى دَوارٍ فى مُلاءٍ مُذَيَّلِ

فأدْبَرنَ كالجِزْعِ المفصَّلِ بَيْنَه بجيدٍ مُعَمٍّ فى العَشيرةِ مُخْوَلِ

فألحَقنا بالهادياتِ ودُونَه جَواحِرُها فى صَرَّةٍ لم تُزَيَّلِ

قطيع من بقر الوحش يعرض لهم ويظهر ، كأن إناث ذلك القطيع نساء عذارى يطفن حول حجر منصوب يطاف حوله فى ملاء طويل ذيولها ...

فالمها فى بياض ألوانها كالعذارى لأنهن مصونات فى الخدور لا يغير ألوانهن حر الشمس وغيره ، وأذيالها الطويله وشعرها المسبوغ كالملاء المذيل ، وحسن مشيها كحسن تبختر العذارى فى مشيهن .

والدوار :حجر كأن أهل الجاهليه ينصبونه ويطوفون حوله تشبيها بالطائفين حول الكعبة إذا نأوا عن الكعبة .

فأدبرت النعاج كالخرز اليمانى الذى فصل بينه بغيره من الجواهر فى عنق صبى كرم اعمامه واخواله ، فقد وصف بقر الوحش بالخرز اليمانى لأنه يسودّ طرفه وسائره ابيض ، وشرط كونه فى جيد معم مخول لأن جواهر قلادة

مثل هذا الصبى أعظم من جواهر قلادة غيره ، وشرط كونه مفصلا لتفرقهن عن رؤيته .

ثم يقول :فألحقنا هذا الفرس بأوائل الوحش ومتقدماته وجاوز بنا متخلفاته فهى دونه أى اقرب منه فى جماعة لم تتفرق أو فى صيحة.. يعنى أنه يلحقنا بأوائل الوحش ويدع متخلفاته ثقة بشدة جريه فيدرك أوائلها وأواخرها مجتمعة لم تتفرق بعد ، يريد أنه يدرك أوائلها قبل تفرق جماعتها ، يصفه بشدة عدوه .

ثم والى بين ثور ونعجة من بقر الوحش فى طلق واحد ولم يعرق عرقا مفرطا يغسل جسده ، يريد أنه أدركها وقتلهما فى طلق واحد قبل أن يعرق ، اى أدركهما دون معاناة مشقة ومقاساة شدة ، نسب فعل الفارس إلى الفرس لأنه حامله وموصله إلى مرامه :

فَعادى عِداءً بين ثورٍ ونَعْجَةٍ دِرَاكاً ولَمْ يَنْضَحْ بماءٍ فَيُغْسَلِ

هذا هو فرس الشاعر ، لا يهدأ ولا يكل ولا يتعب ، بل دائم السير ، سريع العدو يقصد صيده فى غير عناء ، ودون أن ينضح بماء ، وكانت للجياد عندهم منزلة كبيرة ، يعتنون بها ، ويخدمون عليها ، وإذا أجهدت نفسها أسرعوا للعناية بها وقاموا بتنظيفها ، وتسرع النساء فى مسح جسدها وما علق بها من شدة سيرها :

تظل جيادنا متمطرات يطلمهن بالخمر النساء

فهذا الفرس الذى صاد هذا الصيد الخصب جعل القوم يطبخون ويشوون ، فظل المنضجون اللحم وهم صنفان ، صنف تنضجون شواء مصفوفا على الحجارة فى النار ، وصنف يطبخون اللحم فى القدر :

فظل طُهاةُ اللحم من بين مُنْضج صَفِيفَ شِوَاءٍ او قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

وَرُحنا يكادُ الطَّرفُ يَقْصُرُ دُونَهُ مَتَى ماتَرَقَّ العَيْنُ فيه تَسَفَّلِ

ثم أمسينا وتكاد عيوننا تعجز عن ضبط حسنه ، واستقصاء محاسن خلقه ومتى ماترقت العين فى أعالى خلقه وشخصه نظرت إلى قوائمه ، فهو كامل الحسن رائع الصوره وتكاد العيون تقصر عن كنه حسنه ، ومهما نظرت العيون إلى أعالى خلقه اشتهت النظر إلى أسافله . وبات مسرجا ملجما قائما بين يدى غير مرسل إلى المرعى :

فَبَاتَ عليه سَرْجُهُ ولِجَامُه وباتَ بِعَيْنِى قائماً غَيْرَ مُرْسَلِ

وهكذا فرغ الشاعر من وصف الفرس ، وقد اعطانا صورة واضحة من اعتزاز العربى به ، وعلى قدرته فى تحمل المشاق والصعاب ، وعلى تمكنه من الصيد ، حتّى أنهم لايستطيعون الاستغناء عنه فى حياتهم ، والذين يعلون من شأن الخيل ويحبونها يعرفون بسمو أخلاقهم ، ورقة أحاسيسهم ومشاعرهم ، وهى من خصائص المكرمين .

وكان يمكن أن أكتفى بهذا القدر من العرض فى بيان شيم العربى ، وما تربى عليه من فضائل ومكارم ، غير أنى أحببت أن أطلع القارئ على وصف الشاعر للمطر فى رحلته ، وكيف أن هذا المطر وغزارته يشكل سيلا يلقى بالأشجار العظام ، وأن هذا السيل يقلع كل شئ من مكانه ، وإن كان

المطرمطلوبا فى الصحراء إلا أن هذا الوصف يأخذ بالألباب حتى ليطلعنا على ماتكابده فى حياتنا المعاصرة من جراء مثل هذا المطر الغزير ، ومثل هذه السيول التى لا تبقى ولا تذر .. إنها صوره موحية اردت ألا أحرمك من مشاهدة منظرها . يقول الشاعر :

أصاح ترى بَرْقاً أُريكَ وَمِيضَه كلَمْعِ اليَدَيْن فى حَبيٍّ مُكَلّلِ

يضيءُ سَنَاهُ أو مَصَابِيحُ راهبٍ أمَالَ السَّلِيطَ بالذُّبالِ المُفَتّلِ

قَعَدْتُ لَهُ وصُحْبَتى بَيْنَ ضارجٍ وبين العُذَيْبِ بَعْدَ ما متأمَّلى

على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيمَنُ صَوْبِهِ وأيْسَرُهُ على السِّتَارِ فَيَذْبُلِ

فأضْحَى يَسُحُّ الماءَ حوْلَ كُتَيْفَةٍ يكُبّ على الأذْقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

وَمرَّ على القَنانِ منْ نَفَيانِهِ فأنْزَلَ منه العُصْمَ من كلّ منزِلِ

وَتَيْماءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُماً إلا مَشِيداً بِجَنْدَلِ

كأن ثَبيراً فى عَرانينِ وَبْلِهِ كبيرُ أناس فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ

كأنَّ ذُرَى رَأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً من السَّيْلِ والأغثَاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

وألْقَى بصَحراءِ الغَبيطِ بَعاعَه نزولَ اليمانى ذى العيابِ المحمَّلِ

كأن مَكاكىّ الجواءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلافاً من رَحيقٍ مفلْفَلِ

كأنَّ السِّباعَ فيه غَرْقَى عَشِيَّةً بأرْجَائِهِ القُصْوَى أنابِيشُ عُنْصُلِ

فى هذا المشهد يقول الشاعر ياصاحبى هل ترى برقا أريك لمعانه وتلألؤه وتألقه فى سحاب متراكم صار أعلاه كالأكليل لأسفله ، أوفى سحاب مبتسم بالبرق يشبه برقه تحريك اليدين ؟ أراد أنه يتحرك تحركهما ، وتقدير البيت ، أريك وميضه فى حبى مكلل كلمع اليدين ، فلمعان البرق وتحركه كتحرك اليدين .

ثم جعل يصف المطر فقال : هذا البرق يتلألأ ضوؤه فهو يشبه فى تحركه لمع اليدين ، أو مصابيح الرهبان أميلت فتائلها بصب الزيت عليها فى الإضاءة ، يعنى أن تحرك البرق يحكى تحرك اليدين ، وضوءه يحكى ضوء مصباح الراهب إذا أفعم صب الزيت عليه فيضئ ، وهو يريد أن يميل المصباح إلى جانب فيكون أشد إضاءة لتلك الناحية من غيرها .

ثم يقول : قعدت وأصحابى للنظر إلى السحاب بين هذين الموضعين وكنت معهم فبعُد متأملى وهو المنظور إليه ، أى بعُد السحاب الذى كنت أنظر إليه وأرقب مطره وأشيم برقه ، يريد أنه نظر إلى هذا السحاب من مكان بعيد فتعجب من بعد نظره .

إن هذا السحاب أيمنه على قطن ، وأيسره على الستار ويذبل ، يصف عظم السحاب وغزارته وعموم جوده ، وقوله : بالشيم ، أراد : إنى إنما أحكم به حدسا وتقديرا لأنه لا يرى ستارا ويذبل وقطن معا .

فاضحى هذا الغيث أو السحاب يصب الماء فوق هذا الموضع المسمى بكتيفةٌ ، ويلقى الأشجار العظام من هذا الضرب الذى يسمى كنهبلا على

رؤوسها ... والمعنى : أن السيل هذا الغيث ينصب من الجبال والآكام فيقلع الشجر العظام .

ولقد مر على هذا الجبل مما تطاير وانتشر وتناثر من رشاش هذا الغيث فأنزل الأوعال العصم من كل موضع من هذا الجبل لهولها من قطره على الجبل وفرط انصبابه .

إن هذا الغيث لم يترك شيئا من جذوع النخل بقرية تيماء ، ولا شيئا من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعا بالصخور أو مجصصا ، يعنى أنه قلع الشجار وهدم الأبنية إلا ما كان مرفوعا بالحجارة والجص .

كأن ثبيرا فى أوائل مطر هذا السحاب سيد أناس قد تلفف بكساء مخطط ، شبه تغطيته بالغثاء بتغطى هذا الرجل بالكساء .

كأن هذه الأكمة غدوة مما أحاط بها من أغثاء السيل فلكة مغزل ، شبه استدارة هذه الأكمة بما أحاط بها على الإغثاء باستدارة فلكة المغزل وإحاطتها بها بإحاطة المغزل .

ثم يقول : ألقى هذا الحيا ثقله بصحراء الغبيط فأنبت الكلأ وضروب الأزهار وألوان النبات فصار نزول المطر به كنزول التاجر اليمانى صاحب العياب المحمل من الثياب حين نشر ثيابه يعرضها على المشترين . والمعنى أنه ألقى ثقله بصحراء الغبيط فنزل به نزولا مثل نزول التاجر اليمانى صاحب العياب من الثياب .

وكأن هذا الضرب من الطير سقى هذا الضرب من الخمر صباحا فى هذه الأودية ، وإنما جعلها كذلك لحدة ألسنتها وتتابع أصواتها ونشاطها فى تغريدها لأن الشراب المفلفل يحذى اللسان ويسكر فجعل نشاط الطير كالسكر ، وتغريدها بحدة ألسنتها من حذى الشراب المفلفل إياها .

وأخيرا يقول : كأن السباع حين غرقت فى سيول هذا المطر عشيا أصول البصل البرى ، شبه تلطخها بالطين والماء الكدر بأصول البصل البرى لأنها متلطخة بالطين والتراب .

وهكذا فإنما عمدت إلى هذا المشهد لأطلعك على ما فيه من صور أخاذة ، ومن تصوير لمنظر سقوط المطر بغزارة ، وما أحدثه من اقتلاع الأسجار ، وما سببه السيل من إغراق كل شئ حوله ، وإن كان فى هذا المطر ، إنما للكلأ والنباتات وألوان الزهور ، وهو مشهد جاء بعدما بينت من أهمية الفرس عند الشعراء الجاهليين ، وأن فى ذلك قيمة تعلو كل قيمة فى هذا العصر ، وهى أيضا من محاسن السلوك التى يعتادها العربى فى حياته ، ومن قبل تكلمنا عن الصبر والجلد فى حياتهم ، وأشرت إلى ذلك فى شعرهم ، كما أشرت إلى فخرهم واعتدادهم بأنفسهم ، وبتمثيلهم ذلك فى قصائدهم عن طريق فروسيتهم ، ومهارتهم فى هذا الميدان ، واتخاذ ذلك وسيلة لبيان قدراتهم فى الصيد ، ولا ننسى أنهم يعيشون فى بيئة صحراوية ، حيث وهج الشمس فى الصيف وسخونة الرمال ، وبرودة الجو فى الشتاء وقسوته ، وهم على ذلك راضون ، وقادرون على استكمال مسيرتهم فى هذه الأجواء ، مع تمسكهم بالمبادئ السامية ، والقيم العالية ..

الهوامش

* الدأب والدأب ، بتسكين الهمزة وفتحها : العادة ، وأصلها متابعة العمل والجد فى السعى ؛ يقال : دأب يدأب دأباً ودئاباً ودُؤوباً ، وأدأبت السير : تابعته .

* مأسل ، بفتح السين : جبل بعينه . ومأسل ، بكسر السين : ماء بعينه ... ضاع الطيب وتضوع : انتشرت رائحته . الريا : الرائحة الطيبة .

* الصبابة : رقة الشوق ، وقد صب الرجل يصب صبابة فهو صب ، والأصل صبب فسكنت العين وأدغمت فى اللام . المحمل : حماله السيف ، والجمع المحامل ، والحمائل جمع الحمالة .

* الإضاءة : قد يكون الفعل المشتق منها لازما وقد يكون متعديا ، تقول : أضاء الله الصبح فأضاء ، والضوء والضوء واحد ، والفعل ضاء يضوء ضوءا وهو لازم . المنارة : المسرجة ، والجمع المناور والمنائر . الممسى : بمعنى الإمساء ، والوقت جميعا . الراهب يجمع على الرهبان مثل راكب وركبان وراع ورعيان ، وقد يكون الرهبان واحدا ويجمع حينئذ على الرهابنة والرهابين ، كما يجمع السلطان على السلاطنة والسلاطين . المتبتل : المنقطع إلى الله بنيته وعمله ، والبتل : القطع ، ومنه قيل مريم البتول لانقطاعها عن الرجال واختصاصها بطاعة الله تعالى ، فالتبتل اذن الانقطاع عن الخلق والاختصاص بطاعة الله تعالى ..

* السدول : الستور ، الواحد منها سدل . الإرخاء : إرسال السدل وغيره . الابتلاء : الاختبار .

* الهموم :جمع الهم ، بمعنى الحزن وبمعنى الهمة . الباء فى قوله : بأنواع الهموم ، بمعنى مع .

* تمطى أى تمدد ، ويجوز أن يكون التمطى مأخوذا من المطا ، وهو الظهر ، فيكون التمطى مد الظهر ، ويجوز أن يكون منقولا عن التمطط فقلب إحدى الطاءين ياء كما قالوا ، تظنى تظنيا والأصل تظنن تظننا ، وقالوا تقضى البازى تقضيا أى تقضض تقضضا ، والتمطط التفعُل من المط ، وهو المد .

* وفى الصلب ثلاث لغات مشهورة ، وهى : الصلب ، بضم الصاد وسكون اللام ، والصلب بضمهما ، والصلب بفتحهما ، ولغة غريبة وهى الصالب .

* الإرداف : الإتباع والاتباع وهو بمعنى الأول ههنا . الإعجاز : المأخير ، الواحد عجز .

* ناء : مقلوب نأى بمعنى بعُد ، كما قالوا راء بمعنى رأى وشاء بمعنى شأى . الكلكل : الصدر ،والجمع كلاكل . الباء فى قوله ناء بكلكل للتعدية ، وكذلك هى فى قوله تمطى بصلبه .

* الانجلاء :الانكشاف ، يقال جلوته فانجلى أى كشفته فانكشف

* الأمثل : الأفضل ، والمثلى الفضلى ، والأماثل الأفاضل .

* الأمراس جمع مرس : وهو الحبل ، وقد يكون المرس جمع مرسة وهو الحبل أيضا فتكون الأمراس حينئذ جمع الجمع ، وقوله : بأمراس كتان ، من إضافة البعض إلى الكل ، أى بأمراس من كتان ، كقولهم : باب حديد ، وخاتم فضه ، وجبة خز .

* الأصم : الصلب ، وتأنيثه الصماء ، والجمع الصم . الجندل : الصخرة ، والجمع جنادل .

* العصام : وكاء القربة ، والجمع العصم . الكاهل : أعلى الظهر عند مركب العنق فيه ، والجمع الكواهل . الترحيل : مبالغة الرحل ، يقال : رحلته إذا كررت رحله .

* أصل الحرث إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ، ثم يستعار للسعى والكسب كقوله تعالى: " من كان يريد حرث الآخرة " والأحتراث والحرث واحد .

* غدا يغدو غدوا ، واغتدى اغتداء ، واحد . الطير : جمع طائر مثل الشرب فى جمع شارب والتجْر فى جمع تاجر والركب فى جمع راكب . ثم يجمع على الطيور مثل بيت وبيوت وشيخ وشيوخ . الوكنات : مواقع الطير واحدتها وكنة ، وتقلب الواو همزة فيقال أكنة ، ثم تجمع الوكنة على الوكنات ، بضم الفاء والعين ، وعلى الوكنات ، بضم الفاء وفتح العين ، وعلى الوكنات ، بضم الفاء وسكون العين ، وتكسر على الوكن ، وهكذا حكم فِعْلة ، نحو ظلمة وظلمات وظلمات وظلمات وظلم .

* المنجرد : الماضى فى السير ، وقيل بل هو قليل الشعر . الأوابد : الوحوش ، وقد أبد الوحش يأبد أبودا ، ومنه تأبد الموضع إذا توحش وخلا من القطان ، ومنه قيل للفذ آبدة لتوحشه عن الطباع . الهيكل : قال ابن دريد ، هو الفرس العظيم الجرم ، والجمع الهياكل .

* الكر : العطف ، يقال : كر فرسه على عدوه أى عطفه عليه ، والكر والكرور جميعا الرجوع ، يقال : كر من قرنه يكر كرا وكرورا . والمكر مفعل من كر

يكر ، ومِفعَل يتضمن مبالغة كقولهم : فلان مسعر حرب وفلان مقول ومصقع ، وإنما جعلوه متضمنا مبالغة لأن مفعلا قد يكون من أسماء الأدوات نحو المعول والمخرز ، فجعل كأنه أداة للكرور وآله لتسعير الحرب وغير ذلك .

* مفر : مفعل من فر يفر فرارا ، والكلام فيه نحو الكلام فى مكر . الجلمود والجلمود :الحجر العظيم الصلب ، والجمع جلامد وجلاميد . الصخر : الحجر ، الواحدة صخرة ، وجمع الصخر صخور . الحط : إلقاء الشئ من علو إلى أسفل ، يقال حطه يحطه فانحط . وقوله : من علٍ أى من فوق ، وفيه سبع لغات ، يقال ، أتيته من عل ، مضمومة اللام ، ومن علو ، بفتح الواو وضمها و كسرها ، ومن على ، بياء ساكنة ، ومن عال مثل قاص ، ومن معال مثل معاد ، ولغة ثامنة يقال من علا وقوله كجلمود صخر ، من إضافة بعض الشئ إلى كله مثل باب حديد ، أى كجلمود من الصخر .

* زال الشئ يزل زليلا وأزللته أنا ، الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس .

* الصفواء والصفوان والصفا : الحجر الصلب . الباء فى قوله بالمتنزل للتعدية .

* الذبل والذبول واحد ، والفعل ذبل يذبل . الجياش : مبالغة جائش وهو فاعل من جاشت القدر تجيش جيشا وجيشانا إذا غلت ، وجائشٌ البحر جيشا وجيشانا إذا هاجت أمواجه . الاهتزام : التكسر . الحمى : حرارة الغيظ وغيره ، والفعل حمى يحمى . المرجل : القدر من صفر أو حديد أو نحاس أوشبهه ، والجمع المراجل ، وروى ابن الأنبارى وابن مجاهد عن ثعلب أنه

قال : كل قدر من حديد أو صفر أو حجر أو خزف أو نحاس أو غيرها فهو مرجل .

* سح يسح : قد تكون بمعنى صب يصب ، وقد يكون بمعنى انصب ينصب ، فيكون مرة لازما ومرة متعديا ، ومصدره إذا كان متعديا السح والسحوح ، تقول : سح الماء فسح هو ، ومسح مفعل من المتعدى ، وقد قررنا أن مفعلا فى الصفات يقتضى مبالغة ، فالمعنى أنه يصب الجرى والعدو صبا بعد صب ، السابح من الخيل : الذى يمد يديه فى عدوه ، شُبّه بالسابح فى الماء . الونى : الفتور ، والفعل ونى ينى ونيا وونى . الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة . المركل من الركل : وهو الدفع بالرجل الضرب بها ، والفعل منه ركل يركل ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام :"فركلنى جبريل" والتركيل التكرير والتشديد ، والمركل : الذى يركل مرة بعد أخرى .

* الخف : الخفيف . الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والجمع الصهوات ، وفعلة تجمع على فعلات ، بفتح العين ، إذا كانت اسما ، نحو شعرة وشعرات وضربة وضربات ، إلا إذا كانت عينها واواً أو ياء أو مدغمة فى اللام فإنها تسكن حينئذ ، نحو بيضة وبيضات وعورة وعورات وحبة وحبات ، فإذا كانت صفة تجمع على فعلات ، مسكنة العين أيضا ، نحو ضخمة وضخمات وخدلة وخدلات . ألوى بالشئ : رمى به ، وألوى به ذهب به . . العنيف : ضد الرقيق

* الدرير : من در يدر ، وقد يكون در لازما ومتعديا يقال : درت الناقة اللبن فدر اللبن ، ثم الدرير ههنا يجوز أن يكون بمعنى الدار من در إذا كان متعديا ، والفعيل يكثر مجيئه بمعنى الفاعل نحو قادر وقدير وعالم وعليم ،

يجوز أن يكون بمعنى المدر من الإدرار وهو جعل الشئ دارا ، وقد يكثر الفعيل بمعنى المفعل كالحكيم بمعنى المحكم والسميع بمعنى المسمع ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ريحانة الداعى السميع   يؤرقنى وأصحابى هجوع

أى المسمع . الخذروف : حصاة مثقوبة يجعل الصبيان فيها خيطا فيديرها الصبى على رأسه . الوليد : الصبى ، والجمع الولدان ، وجمع خذروف خذاريف ، والوليدة : الصبية ، وقد يستعار للأمة ، والجمع الولائد . الإمرار : إحكام الفتل .

* الأيطل والأطل : الخاصرة ، والجمع الأياطل والأطال ، أجمع البصريون على أنه لم يأت على فِعِل من الأسماء إلا إبل ، ومن الصفات إلا بلز وهى الجارية التارة السمينة الضخمة ، وحكى الكوفيون إطلا من الأسماء أيضا مثل إبل ، فقد اتفق الفريقان على اقتصار فعِل على هذه الثلاثة .

الظبى : ويجمع على أظْب وظباء ، والساق على الأسوق والسوق ، والنعامة تجمع على النعامات والنعام والنعائم . الإرخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب . السرحان : الذئب . التقريب : وضع الرجلين موضع اليدين فى العدو . التتفل : ولد الثعلب .

* الضليع : العظيم الأضلاع المنتفخ الجنبين ، والجمع الضلعاء ،والمصدر الضلاعة والفعل ضلع يضلعُ . الاستدبار : النظر إلى دبر الشئ ، وهو مؤخره ، وتتبع دبر الشئ . الفرج : الفضاء بين اليدين والرجلين ، والجمع الفروج . الضفو : السبوغ والتمام ، والفعل ضفا يضفو ، أراد بذنب ضاف

فحذف الموصوف اجتزاء بدلالة الصفة عليه ، كقولهم : مررت بكريم ، أى بإنسان كريم .

فويق ، تصغير فوق وهو تصغير التقريب مثل قبيل وبعيد فى تصغير قبل وبعد . الأعزل : الذى يميل عظم ذنبه إلى أحد الشقين .

* المتنان : تثنية متن وهما عن يمين الفقار وشماله . الانتحاء : الاعتماد والقصد . المداك : الحجر الذى يسحق به الطيب وغيره ، والذى يسحق عليه أيضا مداك ، والدوك : السحق والفعل منه داك يدوك دوكا . الصلاية : الحجر الأملس الذى يسحق عليه شئ كالهبيد وهو حب الحنظل .

* تثنية الدم والدمان والدميان ، والجمع دماء ودمى ، والتصغير دمى ، والقطعة منه دمة ، حكاها الليث ، وقد دمى الشئ يدمى إذا تلطخ بالدم ، وأدميته أنا ودميته ، الهاديات : المتقدمات والأوائل ، وسمى المتقدم هاديا لأن هادى القوم يتقدمهم ، ومنه قيل لعنق الفرس هادٍ لأنه يتقدم على سائر جسده . عصارة الشئ ماخرج منه عند عصره . الترجيل : تسريح الشعر .

المرجل : المسرح بالمشط .

* عنّ : أى عرض وظهر . السرب : القطيع من الظباء أو النساء أو القطا أو المها أو البقر أو الخيل ، والجمع الأسراب . النعاج : اسم لإناث الضأن وبقر الوحش وشاء الجبل ، الواحدة نعجة ، وجمع التصحيح نعجات ، والمراد بالنعاج فى هذا البيت إناث بقر الوحوش ، وبالسرب القطيع منها .

* العذراء : البكر التى لم تمس ، والجمع عذارى . الدوار : حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله تشبيها بالطائفين حول الكعبة إذا نأوا عن الكعبة .

* الملاء : جمع ملاءة ، وإنما تسمى ملاءة إذا كانت لِفْقين . المذيل : الذى أطيل ذيله وأرخى .

* الجزع : الخرز اليمانى . الجيد : العنق ، والجمع الأجياد ، ورجل أجيَد ، يعنى طويل العنق ، وجمعه جِيد . المعم : الكريم الأعمام . المخول : الكريم الأخوال وقد أعم وأخول إذا كرم أعمامه وأخواله ، وهذان من الشواذ لأن القياس من أفعل فهو مفعل أما فى حالهما فهو : افعِل فهو مفعَل .

* الهاديات : الأوائل المتقدمات . الحواجر : المتخلفات . وقد حجر أى تخلف .

* الصرة : الجماعة ، والصرة الصيحة ، ومنه صرير القلم وغيره . الزيل والتزييل التفريق ، والتزيل والانزيال التفرق .

* المعاداة والعداء : الموالاة . الثور يجمع على الثيران والثيرة والثورة والثيرات والأثوار والثيار . الدراك : المتابعة .

* الطهو والطهى : الإنضاج ، والفعل طها ويطهو ويطهى ، الطهاة جمع طاه ، كالقضاة جمع قاض والكفاة جمع كاف . الإنضـاج : يشتمل على طبخ اللحم وشيه .

* الصفيف : المصفوف على الحجارة لينضج . القدير : اللحم المطبوخ فى القدر .

* الطرف : اسم لما يتحرك من أشفارالعين ، وأصله التحرك ، والفعل منه طرف يطرف . القصور : العجز ، والفعل قصر يقصر . الترقى والارتقاء والرقى واحد ، والفعل من الرقى رقى يرقى ، وأما رقى يرقى فهو من الرقية ، وقد رقيته أنا أى حملته على الرقى .

* أصاح : أراد أصاحب أى يا صاحب فرخم كما تقول فى ترخيم حارث يا حار وفى ترخيم مالك يا مال ، ومنه قراءة : من قرأ " ونادوا يا مال ليقض علينا ربك ". والألف نداء للقريب دون البعيد ، كقول : أزيد إذا كان زيد حاضرا قريبا منك ، ويا نداء للبعيد والقريب ، وأى وأيا وهيا لنداء البعيد دون القريب . الوميض والأيماض : اللمعان ، تقول : ومض البرق يمض وأومض إذا لمع وتلألأ . اللمع التحريك والتحرك جميعا .

* الحبى : السحاب المتراكم ، سمى بذلك لأنه حبا بعضه إلى بعض فتراكم وجعله مكللا أنه صار كالإكليل لها ، ويروى مكلل ، بكسر اللام ، وقد كلل تكليلا ، وانكل انكلا لا إذا ابتسم .

* السنا : الضوء ، والسناء : الرفعة . السليط : الزيت ، ودهن السمسم سليط أيضا ، وإنما سميا سليطا لأضاءتهما السراج ، ومنه السلطان لوضوح أمره . الذبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة ، وقد يثقل فيقال ذبّال .

* ضارج والعذيب : موضعان . بعدما : أصله بعُد ما فخففه فقال بعد ، وما زائدة ، ويقدير بعُد متأملى .

* ويروى : علا قطناً ؛ من علا يعلو علوا ، أى هذا السحاب . القطن : جبل ، وكذلك الستار ويذبل جبلان ، وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة .

* الصوب : المطر ، وأصله مصدر صاب يصوب صوبا أى نزل من علو إلى أسفل . الشيم : النظر إلى البرق مع ترقب المطر .

* الكب : إلقاء الشئ على وجهه ، والفعل كب يكب ، وأما الإكباب فهو خرور الشئ على وجهه ، وهذا من النوادر ، لأن أصله متعد إلى المفعول به ثم لما نقل بالهمزة إلى باب الأفعال قصر عن الوصول إلى المفعول به ، وهذا عكس القياس المطرد لأن ما لم يتعد إلى المفعول فى الأصل يتعدى إليه عند النقل بالهمزة إلى باب الأفعال ، نحو قعد وأقعدته وقام وأقمته وجلس وأجلسته ، ونظير كب وأكب عرض وأعرض ، لأن عرض متعد إلى المفعول به لأن معناه أظهر ، وأعرض لازم لأن معناه ظهر ولاح .

* الذقن : مجتمع اللحيين ، والجمع الأذقان ، والأذقان مستعار فى البيت للشجر . الدوحة : الشجرة العظيمة ، والجمع دوح . الكنهبل ، بضم الباء وفتحها ضرب من شجر البادية .

* القنان : اسم جبل لبنى أسد . النفيان : ما يتطاير من قطر المطر وقطر الدلو ومن الرمل عند الوطء ومن الصوف عند النفش و غير ذلك .

* العصم : جمع أعصم ، وهو الذى فى إحدى يديه بياض من الأوعال وغيرها .

* المنزل : موضع الإنزال .

* تيماء : قرية عادية فى بلاد العرب . الجذع يجمع على الأجذاع والجذوع ، والنخلة على النخلات والنخل والنخيل . الأطم : القصر ، والأطم الأزج ،

والجمع الأطام . الشيد : الجص ، والشيد الرفع وعلو البنيان ، والفعل منه شاد يشيد . الجندل . الصخر ، والجمع الجنادل

* ثبير : جبل بعينه . العرنين : الأنف ، وقال جمهور الأئمة : هو معظم الأنف ، والجمع العرانين ، ثم استعار العرانين لأوائل المطر لأن الأنوف تتقدم الوجوه . البجاد : كساء مخطط ، والجمع البجد . التزميل : التلفيف بالثياب ، وقد زملته بثياب فتزمل بها أى لففته بها ، وجر مزملا على جوار بجاد وإلا فالقياس يقتضى رفعه لأنه وصف كبير أناس ، ومثله ما حكى عن العرب من قولهم : جحر ضرب بمجاورة ضب . الوبل : جمع وابل وهو المطر الغزير العظيم القطر ، ومثله شارب وشرب وراكب وركب وغيرهما ، والوبل أيضا مصدر وبلت السماء تبل وبلا إذا أتت بالوابل .

* الذروة : أعلى الشئ ، والجمع الذرى . المجيمر : أكمة بعينها . الغثاء : ما جاء به السيل من الحشيش والشجر والكلأ والتراب وغير ذلك ، والجمع الإغثاء . المغزل بضم الميم وكسرها معروف ، والجمع المغازل . فلكة مفتوحة الفاء .

* الصحراء تجمع على الصحارى والصحارى معا . الغبيط هنا : أكمة قد انخفض وسطها وارتفع طرفها ، وسميت غبيطا تشبيها بغبيط البعير . البعاع : الثقل . قوله نزول اليمانى ، أى نزول التاجر اليمانى . العياب :جمع عيبة الثياب .

* المكاك ضرب من الطير ، والجمع المكاكى . الجواء : الوادى ، والجمع الجوء .

* غدية : تصغير غدوة أو غداة . الصبح : سقى الصبوح ، والاصطباح والتصبح : شرب الصبوح . السلاف : أجود الخمر وهو ما انعصر من العنب من غير عصر . المفلفل : الذى ألقى فيه الفلفل ، يقال فلفلت الشراب أفلفله فلفلة فأنا مفلفل والشراب مفلفَل .

* الغرقى : جمع غريق مثل مرضى ومريض وجرحى وجريح . العشى والعشية : ما بعد الزوال إلى طلوع الفجر وكذلك العشاء . الأرجاء : النواحى ، الواحد رجا ، مقصور ، والتثنية رجوان . القصوى والقصياء : تأنيث الأقصى : وهو الأبعد ، والياء لغة نجد والواو لغة سائر العرب .

* الأنابيش : أصول النبت ، سميت بذلك لأنها ينبش عنها ، واحدتها أنبوشة . العنصل : البصل البرى .

المعلقة الثانية

طرفة بن العبد

طرفة بن العبد

هو طرفة بن العبد ، أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ، وعد عبد القادر البغدادى مرتبته ثانى مرتبة ، ولهذا ثنى بمعلقته . ولا يعارض هذا ما قيل فى امرئ القيس من الخلاف فى الأربعة : امرئ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، لأن المراد معلقته فقط إذ ليس له فيما عداها ما يوازن حوليات زهير .

أما ابن سلام ، فقد عده فى الطبقة الرابعة ، وقرنه بعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل التميمى ، وعدى بن زيد العبادى . قال فأما طرفة فأشعرهم ، وله قصائد حسان جياد ، وبلغ فى حداثة سنه ما بلغ القوم فى طول أعمارهم .

وكان طرفة فى صغره ذكيا ، حديد الذهن ، ومات أبوه وهو صغير . ويروى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - تمثل بقوله :

بعيداً غدا ما أقرب اليوم من غد

ولعل المراد انه تمثل به مقلوبا ، أو نحو ذلك لأن الله ما علمه الشعر وما ينبغى له .

وحدث المفضل الضبى أن طرفة كان فى حسب كريم وعدد كثير ، وكان شاعرا جريئا على الشعر . وكان من أحدث الشعراء سنا ، وأقلهم عمرا ، قتل وهو ابن عشرين سنة فيقال له : ابن العشرين ، وقبره بالبحرين .

وقد بدأ طرفة معلقته بقوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

لم يعش طرفة طويلا ، غير أن شعره لاقى استحسانا كبيرا ، ورغم أن فترته التى عاشها كانت قصيرة إلا أنها كانت فترة خصبة تنبئ أيضا عن صفات العربى الكريمة ، وقد عُرف عن طرفة أنه يميل إلى اللهو والمجون ، والتشبيب بالنساء ، وشرب الخمر ، لكن طبيعته كانت تمثل المعانى النبيلة ، والعادات العربية الأصيلة التى تشير إلى النجدة والكرم إلى جانب الإشادة بالفخر وبالبطولة ، وإنه كان يمثل الجانب الدنيوى فى حياته إلا أنه كان صاحب حكمة ، وصاحب رأى صائب ظهر ذلك فى شعره ، وأنه أيضا فى عون من يحتاج إليه ، فإذا القوم قالوا من فتى يذود عنا ، ويدفع شرا عنا ، خال أنه المراد بقولهم ، فسارع فى دفع الشر ، وعمل على كفايتهم المهم ، ولم يتبلد فيهما ، فهو المنجد رغم حداثة سنه ، وهو الذى يفتخر بذلك . يقول :

إذا القومُ قالوا من فَتىً خلتُ أننى　　　عُنيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتَبلّدِ

فيقبل على ناقته يضربها بالسوط كى تسرع فى سيرها ، وكى يبلغ ما يريد ، وتتبختر الناقة فى سيرها كما تتبختر الجارية فى الرقص :

أحلتُ عليها بالقطيع فأجْذَمَتْ　　　وقد خَبَّ آلُ الأمْعَزِ المتوقّدِ

فذالتْ كما ذالتْ وليدة مجلسٍ　　　تُرِى رَبَّهَا أذيالَ سَحْلٍ مُمَدّدِ

ثم هو يقول : أنا لا أحل التلاع مخافة حلول الأضياف بى ، أو غزو الأعداء إياى ، ولكنى أعين القوم إذا استعانوا بى ، إما فى قرى الأضياف ، وإما فى قتال الأعداء والحساد . فهو الكريم البطل ، وهما صفتان من صفات الأخيار ، يقول :

ولستُ بحلالِ التلاعِ مخافة ... ولكنْ متى يسترفد القومُ أرْفد

فإنْ تبْغنى فى حلْقة القوم تلْقنى ... وإن تلْتمسْنى فى الحوانيتِ تصطد

وإنْ يلتقِ الحىُ الجميعُ تُلاقِنى ... إلى ذروةِ البيت الشريف المُصمّد

فإن تطلبه فى محفل القوم تجده هناك ، وإن تطلبه فى بيوت الخمارين تصطاده هناك . فهو يجمع بين الجد والهزل ، بين الدين والدنيا ، وليس فى هذا إقلال من شخصيته ، ومن تمسكه بمكارم الأخلاق ، فهو وإن كان يجد فى شربه الخمر متنفسا له من ضيق أو هم ، ولكنه فى ذاك الوقت همام فى نجدة الغير ، وإن اجتمع الحى للافتخار فهو ينتمى إليه ، وينتمى أيضا إلى ذروة البيت الشريف ، أى أعلى الشرف ، فهو أوفى القوم حظا من الحسب والنسب ، وأعلاهم سهما فى ذلك .

ولم يغفل طرفة عن شربه الخمر ، حتى أحس بأن فى ذلك ما يسئ إليه ، وأنه غير راض عن ذلك ، فعشيرته قد تجنبته كما يتجنب البعير المطلى بالقطران ، وهو لا يحب ذلك لأنه أصبح فى عزلة لما رأى القوم أنه لا يكف عن هذا الطريق المشين ، وهنا يشعر بالذنب ، ويعود لطبيعته وسجيته التى تدفعه إلى طريق الخير والفضيلة .

ولما أفردته عشيرته ، رأى الفقراء الذين لصقوا بالأرض من شدة الفقر ، لا ينكرون إحسانه ، وإنعامه عليهم . ورأى الأغنياء الذين لهم بيوت الأدم لاينكرونه لاستطابتهم صحبته ومنادمته ، فهو يقول : إن هجرتنى الأقارب وصلتنى الأباعد وهم الفقراء والأغنياء . فهؤلاء لطلب المعروف ، وهؤلاء لطلب العلم . وفى ذلك يقول :

إلى أنْ تحامَتْنى العَشيرةُ كُلّها　　　وأفْرِدْتُ إفْرادَ البَعيرِ المُعبَّدِ

رَأيْتُ بنى غَبْراء لا يُنكِرُونَنى　　　ولا أهلُ هذاكَ الطِّرافِ المُمدَّدِ

والشاعر بذلك يعطينا صورة واقعية حقيقية عن الإنسان والمجتمع ، فإذا كان الإنسان صاحب مال وجاه وسلطان ، التف حوله الناس ، وتظاهروا له بالولاء ، وإذا فقد ماله ، وأصبح لا يملك شيئا ، وزال عنه سلطانه وجاهه ، بعد عنه الناس وتركوه ، وهكذا الدنيا ، ولا يتأتى هذا المعنى لشخص إلا إذا كان ذا عقل وبصيرة ، وصاحب خبرة وتجربة مع حداثة عهده .

فيا أيها الإنسان الذى لا يملك شيئا ، إن كنت تستطيع أن تضمن لى الخلود ، فسأكف عن حضور اللذات ، وسأترك مصاحبة الندمان ، أما وأنك لست بقادر على أن تضمن لى البقاء ، فدعنى وشأنى ، فلا أنت بقادر على أن تدفع منيتى إذا لم أحضر الحرب ، ولا بقادر على موتى إذا أنا شربت الخمر ، فهو بطل يشارك فى الحروب إذا دُعى لها ، وهو فى السلم يحضر اللذات .

يقول :

فإنْ كنتَ لا تستطيعُ دَفْعَ مَنِيّتى　　　فَدَعْنى أبادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِى

فإن كنت لا تستطيع أن تدفع موتى عنى ، فدعنى أبادر الموت بإنفاق أملاكى . يريد أن الموت لابد منه ، فلا معنى للبخل بالمال ، وترك اللذات .

وللشاعر فى حياته ثلاث خصال هن من لذة الفتى الكريم ، لم يبالى متى قام عُوَّدُه من عنده أيسين من حياته ، أى لم يبالى متى مات . فأما الخصلة الأولى والخصلة الثانية ، فهما المرأة والشراب ، ولا يمنع ذلك من أن يكون

صاحب مبدأ وصاحب نجدة فى الأساس والأصل فى شخصيته ، فمن أجل هذا كانت خصلته الثالثة إغاثته المستغيث وإعانته اللاجئ إليه إذ يقول :

وكَرِّى إذا نادىَ المُضافُ مُحَنَّبا   كَسِيدِ الغَضا نَبَّهتَهُ المُتَورِّدِ

إنه يعطف فى إغاثته فرسه الذى فى يده انحناء وهو محمود فى الفرس إذا لم يفرط ، يسرع فى عدوه إسراع ذئب يسكن فيما بين الغضا إذانبهته وهو يريد الماء . وهو هنا يشبه فرسه بذئب اجتمع له ثلاث خلال : إحداها كونه فيما بين الغضا ، وذئب الغضا أخبث الذئاب . والثانية إثارة الإنسان إياه ، والثالثة وروده الماء ، وهى تزيد فى شدة العدو .

وللشاعر نظرة فى الحياة وفى الموت ، ففى الحياة إذا كثر مالك ، كثر مريدوك ، وإذا قل مالك انصرف عنك مؤيدوك ، أما فى الموت فلا فرق بين غنى وفقير ، فالتراب يجمعهما سويا ، لا فرق بين البخيل والجواد ، ولا بين عالم وجاهل ، ولا أسود وأبيض ، فالقبر يجمعهم جميعا ، وقد أشار إلى ذلك أبو العلاء المعرى عندما قال :

رب لحدٍ قد صار لحداً مرارا   ضاحك من تزاحم الأضداد

ويقول طرفة :

أرى قَبْرَ نَحّامٍ بخيلٍ بماله   كقبر غَوِىٍّ فى البطالَةِ مُفْسِدِ

تُرى جَثْوَتَيْنِ من تُرابٍ عَلَيْهِمَا   صَفَائحُ صُمٌ من صَفيحٍ مُنَضَّدِ

أرى الموتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويصطفى   عَقيلَةَ مَالِ الفاحِشِ المُتَشدِّدِ

أرى العيْشَ كنزا ناقصاً كل ليلةٍ   وماتنقُص الأيامُ والدَّهرُ يَنْفَدِ

لَعمْرك إنَّ الموْتَ ما أخطأ الفَتَى   لكا لطَوَلِ المرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ

أرى قبر البخيل والحريص بماله كقبر الضال فى بطالته المفسد بماله ، فقبر البخيل والجواد كومتين من التراب عليهما حجارة عراض صلاب فيما بين قبور عليها حجارة عراض قد نضدت . تلك نظرة واقعية من واقع الحياة وما يؤول إليه الإنسان ، ولا تصدر هذه النظرة إلا من متأمل متفكر ممعن فيما يدور حوله .

فهو يرى الموت يختار الكرام بالإفناء ، ويصطفى كريمة مال البخيل المتشدد بالإبقاء . أو أن الموت يعم الاجواد والبلاء فيصطفى الكرام ، وكرائم أموال البخلاء ، فلا تخلص منه لواحد من الصنفين ، فلا يجدى البخل على صاحبه بخير ، فالجود أحرى لأنه أحمد ، وفى ذلك دعوة للإنفاق والبذل والعطاء فى غير إسراف ، وفيما يفيد ، ومن ورائه نفع .

ونشعر ونحن نقرأ هذه الأبيات أننا أمام حكيم ، خبير ببواطن الأمور ، مجرب قد أثقلته التجارب فجعل يشبه البقاء بكنز ينقص كل ليلة ، وكذلك المال ينقص حتى يكون مآله إلى النفاد . فما تنقصه الأيام والدهر ينفد لا محالة ، وكذلك العيش صائر إلى النفاد لا محالة .

إننى أقسم بحياتك أن الموت فى مدة إخطائه الفتى ، أى مجاوزته إياه ، بمنزلة حبل طول للدابة ترعى فيها وطرفاه بيدى صاحبه ، فهو لا يتخلص منه ، كما أن الدابة لا تفلت مادام صاحبها آخذا بطرفى طولها ، لما جعل الموت بمنزلة صاحب الدابة التى أرخى طولها ، قال : متى شاء الموت قاد الفتى لهلاكه ، ومن كان فى حبل الموت انقاد لقوده .

إنه مؤمن بالموت ، مصدق به ، ويتصرف فى حياته على هذا اليقين ، الذى نعتبره صادرا عن شخصية تعرف مداها فى حياتها ، وهذه من مكارم الأخلاق التى ننشدها فى هذا الشعر ، وإذا كان شاعرنا قد شبه الموت هذا التشبيه وهو فى العصر الجاهلى ، فقد شبهه إمامنا الشيخ محمد متولى الشعراوى بسهم أطلق ومقدارك فى الحياة بمقدار وصوله إليك ، وكلا التشبيهين دليل بقاء المرء فى حياته مده تقصر وتطول بقدر أجلك فيها ، ولكنها فى نهاية الأمر منتهية لا محالة .

وإذا كانت هذه هى الحياة فلماذا الصراع ، والخلف بين الناس ، ومن أجل ذلك يستغرب الشاعر هجران أقربائه إياه مع تقربه منهم ، فهذا ابن عمه متى تقرب منه تباعد عنه ، يقول :

فمالى أرانى وابْنَ عَمّىَ مَالِكا ... متَى أدْنُ منه يَنْأ عَنّى ويَبْعُدِ
يَلُومُ وما أدْرى عَلامَ يَلُومُنى ... كما لامنى فى الحىّ قُرْطُ بن مَعْبدِ
وأيْأسَنى من كُلّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ ... كأنَّا وَضَعْنَاهُ إلى رَمْسٍ مُلْحَدِ
على غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غيرَ أنّنى ... نَشَدْتُ فلم أغْفِلْ حَمولَةَ مَعْبَدِ
وقرّبتُ بالقُربى وَجَدّتك إنّنى ... متَى يَكُ أمْرٌ لِلنكيثَةِ أشْهَدِ
وإنْ أدْعَ للجُلّى أكُنْ على حُماتِها ... وإنْ يأتِكَ الأعداءُ بالجهْدِ أجْهَدِ
وإنْ يقْذِفُوا بالقذع عِرْضَك أسْقِهِمْ ... بكأسِ حِياضِ الموتِ قبلَ التهدُّدِ
بِلا حَدَثٍ أحْدَثْتُهُ وَكمُحْدَثٍ ... هجائى وقَذفى بالشكَاةِ ومُطْرَدِى

إنه يستغرب ممن يتودد إليهم ، ولا يتقربون منه ، ويتساءل يلومنى مالك وما أدرى ما السبب الداعى إلى لومه إياى ، كما لامنى هذا الرجل فى القبيلة ، يريد أن لومه إياه ظلم صراح ، كما كان لوم قرط إياه كذلك .

إن مالك قنطنى من كل خير رجوته منه ، حتى كأنا وضعنا ذلك الطلب إلى قبر رجل مدفون فى اللحد ، يريد أنه أيأسه من كل خير طلبه كما أن الميت لا يرجى خيره .

يلومنى على غير شئ قلته ، وجناية جنيتها ، ولكننى طلبت إبل أخى ولم أتركها فنقم ذلك منى وجعل يلومنى .

وقربت نفسى بالقرابة التى ضمنا حبلها ، ونظمنا خيطها ، ويقسم أنه متى حدث له أمر يبلغ فيه غاية الطاقة ، ويبذل فيه المجهود أحضره وأنصره .

وإن دعوتنى للأمر العظيم والخطب الجسيم أكن من الذين يحمون حريمك ، وإن يأتك الأعداء لقتالك أجهد فى دفعهم عنك غاية الجهد .

وهو هنا يقدس العرف الجاهلى حين يقسم بالذود عن الحمى والحوض ، فمن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ثم هو مغوار شجاع يدافع عن الأعداء ، كما يدافع عن شرفه . فنفسه فداء .

إن الأعداء لو أساؤا القول فيك ، وأفحشوا الكلام ، أوردتهم حياض الموت قبل أن أهددهم ، فهو يبيدهم قبل تهديدهم ، أى لا يشتغل بتهديدهم بإهلاكهم .

ومع ذلك يقول : أجفى وأهجر وأضام من غير حدث إساءة أحدثته ، ثم أهجى وأشكى وأطرد كما يهجى من أحدث إساءة ، وجر جريرة ، وجنى جناية ويشكى ويطرد .

ثم يقول : لوكان ابن عمى غير مالك لفرج كربى ولأمهلنى زمانا :

فلو كان مولاى امْرَأ هُوَغيرُه لفرج كُربى أو لأنْظَرَنى غدِى

ولكنَّ مولاى امرؤٌ هو خانِقى	على الشكرِ والتَّسآلِ أوْ أنا مُفْتَدِ
وظُلْمُ ذَوِى القُربَى أشدُّ مَضَاضَةً	على المرء مِنْ وقع الحُسامِ المُهنَّدِ
فَذَرْنِى وخُلِقى إننى لك شاكِرٌ	ولو حَلَّ بيتى نائياً عِنْدَ ضَرْغَدِ
فلَو شَاء رَبى كُنتُ قَيْسَ بنَ خالدٍ	ولوْ شاء ربى كنت عمرو بن مَرْثَدِ
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارنى	بَنُونَ كرامٌ سادةٌ لِمُسَوَّدِ

ويستمر الشاعر في كلامه فيقول : لو كان ابن عمى حانيا على لما شكوت ضجرا ولكن ابن عمى رجل يضيق الأمر على حتى كأنه يأخذ على مُتنفَّسى على حال شكرى إياه ، وسؤالى عوارفه وعفوه ، أو كنت فى حال افتدائى نفسى منه ، فهو لا يزال يضيق الأمر علىّ سواء شكرته على آلائه ، أو سألته بره وعطفه ، أو طلبت تخليص نفسى منه .

إن ظلم الأقارب أشد تأثيرا فى تهييج نار الحزن والغضب من وقع السيف القاطع المحدد أو المطبوع بالهند ، وهذا شئ نحس به جميعا ، ونعترف به ، فهو واقع فى حالنا المعاصر ، وعلى مر الزمان .

من أجل ذلك يقول : خل بينى وبين خلقى وكلنى إلى سجيتى وطبيعتى فإنى شاكر لك وإن بعدت غاية البعد حتى ينزل بيتى عند هذا الجبل الذى سمى بضرغد ، وبينهم وبين ضرغد مسافة بعيدة ، وشقة شاقة ، وبينونة بالغة .

ولو شاء الله بلغنى منزلة قيس بن خالد ، وعمرو بن مرثد ، وهما سيدان من سادات العرب مذكوران بوفور المال ، ونجابة الأولاد ، وشرف النسب وعظم الحسب ، وتلك منزلتهما وقدرهما .

ولو حدث ذلك لصرت حينئذ صاحب مال كثير ، ولزارنى بنون موصوفون بالكرم والسؤدد لرجل مسود يعنى به نفسه ، فلو بلغنى الله منزلتهما لصرت وافر المال ، كريم العقب ، وهو الولد . وهذه حقيقة نعلمها جميعا فإذا زاد مال الرجل تجمع الناس حوله ، وإذاقل ماله تفرق الناس عنه وتركوه .

والشاعر هنا ينقل إلينا حكمة قديمة نلمسها فى واقعنا المعاصر وفى الحياة بصفة عامة .. وهكذا الناس .

لقد كان الشاعر الجاهلى حريصا كل الحرص على الإعتزاز بنفسه والفخر بها ، وكان يشعر بالكرامة ويدافع عنها ويدعو لها ، ثم هو يعتد بنسبه وحسبه ، وبهما يعلن شرفه ومكانته فى مجتمعه ، ويشيد بنفسه فى دفع الملمات ، والدخول فى الخطوب ليجد لها حلا ، فيقول طرفة فى ذلك : أنا الضرب الذى عرفتموه ، وكانت العرب تتمدح بخفة اللحم ، لأن كثرته داعية إلى الكسل والثقل ، وهما يمنعان من الإسراع فى دفع الملمات ، وكشف المهمات ، فهو خفيف يدخل فى الأمور بخفة وسرعة ، ويتصف باليقظة وذكاء الذهن :

أنَ الرجُلُ الضَّرْبُ الذى تَعْرِفُونَه ... خَشَاشٌ كَرأسِ الحَيةِ المُتَوَقِّدِ

فآليتُ لا ينفَكُ كَشْحِى بِطانَة ... لِعَضْبٍ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهنَّدِ

حُسامٍ إذا ما قُمْتُ مُنْتَصِراً به ... كَفَى العَوْدَ منهُ البدْءُ ليس بِمعْضَدِ

أخى ثِقَةٍ لا يَنْثَنِى عن ضَرِيبَةٍ ... إذا قِيلَ مَهْلاً قال حاجِزُهُ قَدِى

إذا ابْتَدَرَ القَوْمُ السِّلاَحَ وَجَدْتِنى ... مَنِيعاً إذَا بَلَّتْ بِقَائِمِهِ يَدِى

هاهو الرجل الضرب الذى تعرفونه يحلف أن لا يزال كشحه لسيف قاطع رقيق الحدين طبعته الهند بمنزلة البطانة للظهارة ، فلا يزال كشحه بطانة لسيف قاطع إذا ما قام منتقما به من الأعداء ، كفى الضربة الأولى به الضربة الثانية ، فيغنى البدء عن العود .

سيفه هذا سيف يوثق بمضائه كالأخ الذى يوثق بإخائه ، لا ينصرف عن ضريبة أى لا ينبو عما ضرب به ، إذا قيل لصاحبه كف عن ضرب عدوك ، قال مانع السيف وهو صاحبه : حسبى فإنى قد بلغت ما أردت من قتل عدوى ، يريد أنه ماض لا ينبو عن الضرائب ، فإذا ضرب به صاحبه أغنته الضربة الأولى عن غيرها ، فإذا استبق القوم أسلحتهم وجدته منيعا لا يقهر ، ولا يغلب إذا ظفرت يده بقائم هذا السيف .

ولا يزال طرفة فى تعداد مفاخره ، مما يعلى شأنه ، ويجعله فى مصاف الذين يعلنون عن مبادئهم وما يعتزون به ، وهو فى ذلك لا ينسى أن يعلن عن أهمية الإبل والنوق فى حياتهم الصحراوية ، وعن استخدامهم لها فى كثير من المواطن فهى وسيلتهم للتنقل فى هذه الصحراء ، وهى أيضا وسيلتهم لبيان قدرتهم عليها ، واستخدامهم لها . يقول مستمرا فى فخره :

وبركٍ هُجُودٍ قد أثارَتْ مَخَافتِى	بَوَادِيَهَا أمْشى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ
فَمَرَّتْ كَهَاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ	عَقِيلَةُ شَيْخٍ كالْوَبِيلِ يَلَنْدَدِ
يقُوْلُ وقَدْ تَرَّ الوَظِيفُ وسَاقُهَا	ألسْتَ ترى أن قد أتيتَ بِمُؤْيِدِ

رب إبل كثيرة باركة قد أثارتها عن مباركها مخافتها إياى فى حال مشيى مع سيف قاطع مسلول من غمدها .

يقول : فمرت بى فى حال إثارة مخافتى إياها ناقة ضخمة لها جلد الضرع ، وهى كريمة مال شيخ قد يبس جلده ، ونحل جسمه من الكبر حتى صار كالعصا الضخمة يبسا ونحولا ، وهو شديد الخصومة - (وربما هنا يقصد أباه) - قال هذا الشيخ فى حال عقرى هذه الناقة الكريمة وسقوط وظيفها وساقها عن ضربى إياها بالسيف : ألم تر أنك أتيت بداهية شديدة بعقرك مثل هذه الناقة الكريمة النجيبة ؟

فظلَّ الإماءُ يَمْتَلِلْنَ حُوَارَها ... وَيُسْعَى عَلَيْنا بالسَّدِيفِ المُسَرْهَدِ

فإنْ مُتُّ فانْعَيني بما أنا أهْلُه ... وَشُقِّي عَلَيَّ الجيْبَ يا ابنَةَ مَعْبَدِ

ولا تَجْعَليني كامْرِئٍ لَيْسَ هَمُّه ... كَهمِّي ولا يُغْني غِنَائي ومَشْهَدِي

بَطيءٍ عن الجُلَّى سريعٍ إلى الخَنا ... ذَلولٍ بأَجْماعِ الرِّجالِ مُلَهدِ

لقد ظل الإماء يشوين الولد الذى خرج من بطنها تحت الجمر والرماد الحار ، ويسعى الخدم علينا بقطع سنامها المقطع . يريد أنهم أكلوا أطايبها وأباحوا غيرها للخدم ، وذكر الحوار دال على أنها كانت حبلى ، وهى من أنفس الإبل عند العرب .

ولما فرغ طرفة من تعداد مفاخره ، أوصى ابنة أخيه ، ومعبد أخوه ، فقال : إذا هلكت فأشيعى خبر هلاكى بثنائى الذى استحقه وأستوجبه ، وشقى جيبك على ، يوصيها بالثناء عليه والبكاء ، ويقول : ولا تسوى بينى وبين رجل لا يكون همه مطلب المعالى كهمى ، ولا يكفى المهم والملم كفايتى ، ولا يشهد الوقائع مشهدى ، فلا يغنى غناء مثل غنائى ، ولا يشهد الوقائع شهودا مثل

شهودى . فلا تعدلى بى من لا يساوينى فى هذه الخلال فتجعلى الثناء عليه كالثناء على ، والبكاء على كالبكاء عليه .

إنه ينهى ابنة أخيه أن تعدل غيره به ، ويقول : ولاتجعلينى كرجل يبطأعنَ الأمر العظيم ويسرع إلى الفحش ، وكثيرا ما يدفعه الرجال بأجماع أكفهم فقد ذل غاية الذل .

فلو كُنتُ وَغلاً فى الرِّجَالِ لَضَرَّنى　　　عَداوةُ ذى الأَصْحَابِ والمُتَوحِّدِ

ولكنْ نَفَى عَنِّى الرجالَ جَرَاءتى　　　عَلَيْهِمْ وإقدامِى وَصِدْقِى ومَحْتِدِى

فلو كنت ضعيفا من الرجال لضرتنى معاداة ذى الأتباع والمنفرد الذى لا اتباع له إياى ، ولكننى قوى منيع لا تضرنى معاداتها إياى .

ولكن نفى عنى مباراة الرجال ومجاراتهم شجاعتى ، وإقدامى فى الحروب ، وصدق صريمتى وكرم أصلى ، وهوهنا يتمدح بمضاء الصريمة ، وذكاء العزيمة .

ثم هو يقسم ما يغم أمره رأيه ، فيقول :

لَعَمرُكَ ما أمْرِى عَلَىَّ بِغُمَّةٍ　　　نَهارِى ولا لَيْلى عَلَىَّ بِسَرْمَدِ

فما تغطى الهموم رأيه فى نهاره ، ولا يطول عليه ليله حتى كأنه صار دائما سرمدا ، فلا النوائب تغمه فيطول ليله ، ويظلم نهاره .

وهكذا تمضى بنا أبيات طرفة فى معلقته لتكشف عن خلق فتى من فتيان العرب القدامى ، صاحب همة ونشاط وإقدام وشجاعة ، معلنا عن شخصية قوامها الأخلاق العربية الأصيلة ، فى عزيمته وصريمته ، وفى فخره ومدحه،

وحتى فى حكمه التى ضمنها أبياته ونعمل بها حتى وقتنا الحاضر ، ثم هاهو ينهى معلقته ببيتين من الشعر هما خاتمة المطاف فى أفعاله وأقواله ، وهما بمثابة دليل على فطنته وذكائه ، ونظرته إلى معالجة الأمور ، حتى أصبحا مثلا على أن الأيام خير من يوجه ومن يعلم ، وما يمد بالخبرة والتجربة :

ستُبْدى لكَ الأيامُ ما كنْتَ جاهِلا ويأتيكَ بالأخْبارِ مَنْ لَمْ تزَوّدِ

ويأتيك بالأخبارِ مَنْ تبِعْ لَه بَتَاتًا ولم تَضْرِبْ له وَقْتَ مَوْعِدِ

ستطلعك الأيام على ما تغفل عنه ، وسينقل إليك الأخبار من لم تزوده ، وسينقلها إليك من لم تشتر له متاع السفر ، ولم تبين له وقتا لنقل الأخبار إليك .

الهوامش

* عُنيتُ : من قولهم عنى يعنى عنيا بمعنى أراد ، ومنه قولهم : يعنى كذا أى يريده ، واين تعنى بهذا أى اين تريد بهذا ، والجمع المعانى .

* الاحالة : الإقبال هنا . القطيع : السوط . الإجذام : الإسراع فى السير . الآل : ما يرى شبه السراب طرفى النهار ، والسراب ما كان نصف النهار . الأمعز : مكان يخالط ترابه حجارة أو حصى ، وإذا حمل على الأرض أو البقعة قيل المعزاء ، والجمع الأماعز .

* الذيل : التبختر ، والفعل ذال يذيل . الوليدة : الصبية والجارية وهى فى البيت بمعنى الجارية . السحل : الثوب الأبيض من القطن وغيره .

* الحلال : مبالغة الحال من الحلول . التلعة : ما أرتفع من مسيل الماء وانخفض عن الجبال أو قرار الأرض ، والجمع التلعات والتلاع . الرفد والإرفاد : الإعانة ، والإسترفاد الإستعانة .

* البغاء : الطلب ، والفعل بغى يبغى . الحلقة تجمع على الحلق بفتح الحاء واللام وهذا من الشواذ ، وقد تجمع على الحلق مثل بدرة وبدر وثلة وثلل . الحانوت ، بيت الخمار ، والجمع الحوانيت . الاصطياد : الاقتناص .

* الصمد : القصد ، والفعل صمد يصمد ، والتصميد مبالغة الصمد .

* التحامى : التجنب والاعتزال . البعير المعبد : المذلل المطلى بالقطران ، والبعير يستلذ ذلك فيذل له .

* الغبراء : صفة الأرض جعلت كالاسم لها . الطراف : البيت من الأدم ، والجمع الطروف وكنى بتمديده عن عظمه .

* الكر : العطف . والكرور : الانعطاف . المضاف : الخائف المذعور ، والمضاف ، والمضاف الملجأ . المحنب : الذى فى يده انحناء . السيد : الذئب ، والجمع السيدان . الغضا : شجر .

* النحام : الحريص على الجمع والمنع . الغوى : الغاوى الضال ، والغى والغاوية الضلالة ، وقد غوى يغوى .

* الجثوة : الكومة من التراب وغيره ، والجمع الجثى . التنضيد : مبالغة النضد .

* الاعتيام : الاختبار . العقائل : كرائم المال والنساء ، الواحدة عقيلة . الفاحش : البخيل . النفاد والنفود الفناء ، والفعل نفد ينفد ، والإنفاد الإفناء .

* العَمر والعُمر بمعنى ولا يستعمل فى القسم إلا بفتح العين . ما أخطأ الفتى : ما مع الفعل هنا بمنزلة مصدر حل محل الزمان ، نحو قولهم اتيك خفوق النجم ومقدم الحاج أى وقت خفوق النجم ووقت مقدم الحاج . الطول : الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه . الإرخاء : الإرسال . الثنى : الطرف ، والجمع الإثناء .

* النأى والبعد واحد

* الرمس : القبر وأصله الدفن . ألحدت الرجل : جعلت له لحداً .

* النشدان : طلب المفقود . الإغفال : الترك . الحمولة : الإبل التى تطيق أن يحمل عليها . معبد : أخوه . غير أننى : استثناء منقطع تقدير ولكننى .

* القربى : جمع قربة ، وقيل هو اسم من القرب والقرابة ، وهو أصح القولين . النكثية: المبالغة فى الجهد وأقصى الطاقة ، يقال: بلغت نكثية البعير أى أقصى ما يطيق من السير.

* الجلى: تأنيث الأجل ، وهى الخطة العظيمة ، والجلاء بفتح الجيم والمد لغة فيها . الحماة : جمع الحامى من الحماية.

* القذع : الفحش . العرض : موضع المدح والذم من الإنسان ، قاله ابن دريد ، وقد يفسر بالحسب والعرض النفسى ، والجمع الأعراض . التهدد والتهديد واحد . القذف : السب .

* الشكاية والشكوى والشكية والشكاة واحد . والمطرد بمعنى الاطراد وأطردته صيرته طريدا .

* فرجت الأمر : كشفته ، والفرج انكشاف المكروه . كربه الأمر والغم : إذا ملأ صدره ، والكربة اسم منه ، والجمع كرب . الإنظار : الإمهال : والنظرة اسم بمعنى الانظار .

* خنقت الرجل خنقا : عصرت حلقه . التسآل : السؤال .

* مضنى الأمر وأمضنى : بلغ من قلبى وأثر فى نفسى تهييج الحزن والغضب
الحسام : فعال من الحسم وهو القطع .

* ضرغد : جبل .

* التسويد مصدر سودته فساد .

* الضرب : الرجل الخفيف اللحم.

* لا ينفك : لا يزال ، وما انفك ما زال . البطانة : نقيض الظهارة . العضب : السيف القاطع . شفرتا السيف : حداه ، والجمع الشفرات والشفار .

* الانتصار : الانتقام . المعضد : سيف يقطع به الشجر ، والعضد قطع الشجر ، والفعل عضد يعضد ، والمعضد : سيف من أردأ السيوف .

* أخى ثقة : يوثق به ، أى صاحب ثقة . الثنى : الصرف ، والفعل ثنى يثنى والانثناء الانصراف . الضريبة ما يضرب بالسيف ، والرمية : ما يرمى

بالسهم ، والجمع الضرائب والرمايا . مهلا : أى كف . قدى وقدنى : أى حسبى .

* ابتدر القوم السلاح استبقوه . المنيع : الذى لايقهر ولا يغلب . بل بالشىء يبل به بلا إذا ظفر به.

* البرك : الإبل الكثيرة الباركة . الهجود : جمع هاجد وهو النائم ، وقد هجد يهجد هجودا . مخافتى : مصدر مضاف إلى المفعول . بواديها : أوائلها وسوابقها .

* الكهاة والجلالة : الناقة الضخمة السمينة . الخيف : جلد الضرع ، وجمعه أخياف . العقيلة : كريمة المال والنساء ، والجمع العقائل . الوبيل : العصى الضخمة . اليلندد والألندد والألد : الشديد الخصومة ، وقد لد الرجل يلد لددا صار شديد الخصومة ، وقد لددته ألده لدا غلبته بالخصومة .

* تر : أى سقط . المؤيد : الداهية العظيمة الشديدة .

* الإماء : جمع أمة . الامتلال والملل : جعل الشئ فى الملة وهى الجمر والرماد الحار .

* الحوار للناقة بمنزلة الولد للإنسان يعم الذكر والأنثى . السديف : السنام ، وقيل قطع السنام .

* المسرهد : المربى ، والفعل سرهد يسرهد سرهدة .

* النعى : إشاعة خبر الموت ، والفعل نعى ينعى . أهله أى مستحقه ، كقوله تعالى : " وكانوا أحق بها وأهلها "

* الهم . أصله القصد ، يقال هم بكذا أى قصد له ، ثم يجعل الهم والهمة اسمى لداعية النفس إلى العلى . الغناء : الكفاية . المشهد فى البيت بمعنى الشهود وهو الحضور .

* البطء : ضد العجلة ، والفعل بطؤ يبطأ . الجلى : الأمر العظيم . الخنا : الفحش . جمع الكف ، يقال : ضربه بجمع كفه إذا ضربه بها مجموعة ، والجمع الأجماع التلهيد : مبالغة اللهد وهو الدفع بجمع الكف ، يقال : لهده يلهده لهدا

* الوغل : أصله الضعيف ثم يستعار للئيم .

* الجرأة والجراءة واحد ، والفعل جرؤ يجرؤ ، والنعت جرئ ، وقد جرأه على كذا أى شجعه . المحتد : الأصل .

* الغمة والغم واحد ، وأصل الغم التغطية ، والفعل غم يغم ، ومنه الغمام لأنه يغم السماء أى يغطيها ، ومنه الأغم والغماء ، لأن كثرة الشعر تغطى الجبين والقفا .

* باع : قد يكون بمعنى اشترى ، وهو فى البيت بهذا المعنى . البتات : كساء المسافر وأداته . ولم تضرب له أى لم تبين له ، كقوله تعالى : " ضرب الله مثلا " أى بين وأوضح .

المعلقة الثالثة

زهير بن أبي سلمى

زهير بن أبى سُلمى

زهير بن أبى سُلمى ، أحد الشعراء المتقدمين على الشعراء بالاتفاق وإنما اختلفوا فى تعيين أيهم أشعر على الآخر ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبيانى . وقال عمر بن الخطاب لابن عباس - رضى الله عنهم - هل تروى لشاعر الشعراء ؟ قال : ومَن هو ؟ قال : الذى يقول :

ولو أن حمدا يخلد الناس خلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قال ابن عباس : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء . قال ابن عباس :وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان يتجنب وحشى الشعر ، ولا يمدح أحدا إلا بما فيه . وفى رواية أنه قال : أنشدنى له . قال ابن عباس : فأنشدته حتى برق الفجر ، فقال : حسبك الآن اقرأ ، قلت : فما أقرأ ؟ قال : اقرأ الواقعة فقرأتها ، فأذن وصلى .

وسأل عكرمة بن جرير أباه من أشعر الناس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألنى أم عن الإسلام ؟ قال : قلت ما أردت إلا الإسلام ، فإذا ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلها . قال : زهير أشعر أهلها . فقلت : فالإسلام ، قال الفرزدق نبعة الشعر ، قلت فالأخطل ، قال : يجيد مدح الملوك ، ويصيب وصف الخمر . قلت : فما تركت لنفسك ، قال : نحرت الشعر نحرا .

وسأل معاوية الأحنف بن قيس عن أشعر الشعراء ، فقال : زهير . قال : وكيف ذاك . قال : كف عن المداحين فضول الكلام ، قال : بماذا قال بقوله :

وما يك من خير أتوه فإنما　　　توارثه آباء آبائهم قبل

وعن الأصمعى . قال : قال عمر رضى الله عنه لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدنى مدح زهير أباك ، فأنشده . فقال عمر : إن كان ليحسن القول فيكم ، فقال : ونحن والله كنا لنحسن له العطاء . فقال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

قال : وبلغنى أن هرم بن سنان ، كان قد حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا ، فاستحيا زهير بما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه فى ملأ قال : أنعموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت .

وعطايا هرم لزهير مشهورة . قال محمد البوصيرى - رحمه الله - يخاطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ولم أرد زهرة الدنيا التى أقتطفت　　　يدا زهيرا بما أثنى على هرم

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لبعض ولد زهير : ما فعلت الحلل التى كساها هرم أباك ، قال : أبلاها الدهر . قال : لكن الحلل التى كساها ابوك هرما لا يبليها الدهر . وروى أن عائشة - رضى الله عنها - خاطبت إحدى بنات زهير بهذه المقالة .

وكان زهير حكيما فى شعره ، ويكفى من ذلك ما فى معلقته ، قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة　　　وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وروى أن زهيرا كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها فى سنة ثم يعرضها على خواصه ، ثم يذيعها بعد ذلك ، وكانت تسمى قصائده الحوليات .

قال ابن قتيبة : وكان زهير يتأله ويتعفف فى شعره ، ويدل على إيمانه بالبعث قوله :

فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب او يعجل فينتقم

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نظر إلى زهير ، وله مائة سنة فقال : اللهم أعذنى من شيطانه . فما لاك بعد ذلك بيتا حتى مات . وكان زهير رأى فى منامه فى آخر عمره أن أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسها بيده ، ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتضر قصر رؤياه على ولده كعب ثم قال : إنى لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى ، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه ، ثم مات قبل المبعث بسنة .

وقصه ابنه بجير لما أسلم وتخويفه لأخيه كعب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن لم يؤمن ويجئ طائعا ومجئ كعب وإنشاده بردته بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معلومة .

وقد نظم زهير معلقته - وهى الثالثة فى المعلقات - على أثر الحرب التى دارت رحاها بين عبس وفزاره ، بسبب سباق داحس فرس قيس بن زهير سيد بنى عبس ، والغبراء حُجرة حمل بن بدر ، سيد بنى فزاره من غطفان . ذلك أن زهير وحملا تراهنا على مئة بعير ، يدفعها من يخسر السباق إلى من يربحه .

ولما كان اليوم المعين بعث حمل ابن بدر من يكمن لداحس ، ويرده عن غايته إذا جاء سابقا ، ثم أرسل الفرسان فبرز داحس عن الغبراء حتى شارف الغاية ودنا من الكمين ، فوثبوا عليه وردوه فسبقت الغبراء .

وبعث حمل ابنه مالكا إلى قيس يطلب منه حق السبق ، فأبى قيس دفعه وقتل مالكا ، فكان ذلك باعثا على الحرب . وقد طالت هذه الحرب ، وكثر فيها القتلى حتى أصلح بين المتحاربين هرم بن سنان والحارث بن عوف ، ودفعا الديات من مالهما .

نظم زهير معلقته يمدح بها المصلحين لحقنهما الدماء ، ويحذر الفريقين من شر الخيانة وإضمار الحرب . وقد توسع فى وصف الحرب ونتائجها المشؤومة ، ثم ختم المعلقة بحكمة استحق بها لقب الشاعر الحكيم..

يقول زهير فى معلقته بعد أن بدأها بما بدأ به الجاهليون قصائدهم من الوقوف على الأطلال ، والبكاء عليها إننى أقسم بالكعبة على صدق نوايا المصلحين الذين يحذرون من مخاطر الحروب وويلاتها وآثارها المدمرة ، ويدعو إلى نشر السلام ، وتلك دعوة نعمل من أجلها ، ونعرف نتائجها :

فَأَقْسَمْتُ بِالبَيْتِ الذى طافَ حوْلَه رِجالٌ بَنَوْهُ من قُرَيشٍ وَجُرْهُمِ

يَميناً لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ وَمُبْرَمِ

لقد اقسم قسما وحلف حلفا ، نعم السيدان وجدتما على كل حال ضعيفة وحال قوية ، لقد وجدتما كاملين متسوفيين لخلال الشرف فى حال يحتاج فيها إلى ممارسة الشدائد ، وحال يفتقر فيها إلى معاناة النوائب ، والسيدان هما : هرم

بن سنان ، والحارث بن عوف ، مدحهما الشاعر لإتمامهما الصلح بين عبس وذبيان ، وتحملهما أعباء ديات القتلى .

والشاعر يتجه بفطرته إلى رب هذا البيت ليقسم به على ما يريد أن يبينه ويقرره من أمر المصلحين فى كل وقت وفى كل مكان ، وهذا إنما يدل على نظرة بعيدة لمعرفة الأمور ، وأيضا على إيمانه وتعلقه بالحق والسلام ، وهو هنا فى قسمه يدل أيضا على أن القسم لا يكون إلا بالله ، وأن البيت رمز لقدرة الله ، وهو يؤمن بذلك كله ، ولذلك أقسم على تلاقى هذين السيدين أمر هاتين القبيلتين - عبس وذبيان - بعدما أفنى القتال رجالهما ، وبعد دقهم عطر هذه المرأة - وهو عطر شؤم - أى بعد إتيان القتال على آخرهم ، كما أتى على آخر المتعطرين بعطر منشم .

تَدارَكْتُما عَبْساً وذُبْيَانَ بَعْدَمَا ... تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ

وَقَدْ قُلْتُما : إنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً ... بمالٍ وَمَعْروفٍ من القَوْلِ نَسْلَمِ

فَأصْبَحْتُما منها على خيْرِ مَوْطِنٍ ... بعيدَيْنِ فيها من عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ

عَظِيمَيْنِ فى عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيتُما ... وَمَنْ يَسْتَبِحْ كنزاً من المجدِ يعظُمِ

يقول : وقد قلتما : إن أدركنا الصلح واسعا ، أى إن اتفق لنا إتمام الصلح بين القبيلتين ببذل المال وإسداء المعروف من الخير ، سلمنا من تفانى العشائر .

ويقول : فأصبحتما على خير موطن من الصلح بعيدين فى إتمامه من عقوق الأقارب ، والإثم بقطيعة الرحم . إنكما طلبتما الصلح بين العشائر ببذل المال وظفرتما به ، وبعدتما عن قطيعة الرحم .

لقد ظفرتما بالصلح فى حال عظمتكما فى الرتبة العليا من شرف معد وحسبها ، ثم دعا لهما فقال : هديتما إلى طريق الصلاح والنجاح والفلاح ، ثم قال : ومن وجد كنزا من المجد مباحا واستأصله عظم أمره ، أو عظم فيما بين الكرام .

أرأيت رجلا يدعو إلى السلام فى هذا العصر الجاهلى ، ويدرك خطورة الحروب وآثارها السيئة ، وما للسلام من أثر فى العشائر وفى البلاد . هذا السلام الذى مازلنا ندعو إليه دون ما نتيجة من هذه الدعوة . السلام الذى يحقق الأمن العالمى بين الشعوب والأمم ، ما أعلى هذه الأخلاقيات التى عرفت قيمة السلام فدعت إليه ، وعرفت خطورة المعارك فنبهت إليها ، وما أحوجنا إلى مثل ذلك حتى نكون كهؤلاء الجاهليين ، وهكذا كانت الدعوة إلى السلام من اهتمامات الشعراء فى هذا العصر ، وكانت دليلا على تمسكهم بمكارم الأخلاق

وقد بدأ زهير معلقته بقوله :

أمن أم أوفى لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

وقد أدرك الشاعر السلم واسعا بمال ومعروف من القول حين قال : تمحى وتزال الجراح بالمئين من الإبل ، فأصبحت الإبل يعطيها نجوما من هو برئ الساحة ، بعيد عن الجرم فى هذه الحروب .. يريد أنهما بمعزل عن إراقة الدماء وقد ضمنا إعطاء الديات ووفيا بها واخرجاها نجوما ، وكذلك تعطى الديات .

ثم يقول : ينجم الإبل قوم غرامة لقوم ، أى ينجمها هذان السيدان غرامة للقتلى ، لأن الديات تلزمهم دونهما ؛ ثم قال : وهؤلاء الذين ينجمون الديات لم يريقوا مقدار ما يملأ محجما من الدماء ، والملء مصدر ملأت الشئ ، والملء

مقدار الشئ الذى يملأ الإناء وغيره ، وجمعه أملاء ، يقال : أعطنى ملء القدح وملئيه وثلاثة أملائه .

وهكذا أصبح يجرى فى أولياء المقتولين من نفائس أموالكم القديمة الموروثة غنائم متفرقة من إبل صغار معلمة ، وخصة الصغار لأن الديات تعطى من بنات اللبون والحقاق والأجذاع ، ولم يقل المرنمة وإن كان صفة الإفال حملا على اللفظ ، لأن فعالا من الأبنية التى اشترك فيها الآحاد والجموع ، وكل بناء انخرط فى هذا السلك ساغ تذكيره حملا على اللفظ .

ويتضح ذلك من الأبيات التى يقول فيها زهير :

تُعَفَّى الكُلُومُ بِالمِئِينَ فَأَصْبَحَتْ ينجِّمُهاَ مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمِ

يُنَجِّمُهاَ قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةً وَلَمْ يُهَرِيقُوا بَيْنَهُمْ مِلْءَ مَحْجمِ

فأَصْبحَ يَجْرِى فِيهِمُ مِنْ تِلاَدِكُمْ مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمِ

ثم قال : أبلغ ذبيان وحلفاءها ، وقل لهم : قد حلفتم على إبرام حبل الصلح كل حلف ، فتحرجوا من الحنث وتجنبوا ..

أَلاَ أَبْلِغِ الأَحْلاَفَ عَنِّى رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِى نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْماَ يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخرْ فَيُوضَعْ فِى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

ويعود فيذكرهم .لا تخفو من الله ما تضمرون من الغدر ، ونقض العهد ليخفى على الله . ومهما يكتم من شئ يعلمه الله ، فالله عالم بالخفيات والسرائر

ولا يخفى عليه شئ من ضمائر العباد ، فلا تضمروا الغدر ونقض العهد ، فإنكم إن أضمرتموه علمه الله ، وقوله : يكتم الله ، أى يكتم من الله ، فيؤخر عقابه ، ويرقم فى كتاب فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل العقاب فى الدنيا قبل المصير إلى الأخرة ، فينتقم من صاحبه ، يريد لا مخلص من عقاب آجلا أو عاجلا ..

ليتنا نعى هذا من شاعر قديم لعصرنا الذى نعيش فيه ، فنحن أولى بهذا التوجيه ، وأولى بالتحلى بهذه المكارم من الأخلاق ، وأولى بأن نعرف الله فنعود إليه ونتطلع لعفوه ، ونعمل لرضاه ونقتدى بالسابقين أولى العزم والإيمان .. إنهم يؤمنون بالله ، ويؤمنون بالبعث وبيوم الحساب ، وأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..

ولم ينس زهير فى دعوته إلى السلام أن يذكر بالحرب وويلاتها وما تخلفه من دمار وهلاك ، وما تتركه من آثار سيئة على نفوس الناس وفى حياتهم ، فيقول :

وَما الحَرْبُ إلاّ ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ   وَما هُوَ عَنْهاَ بالحَديثِ المُرَجَّمِ

مَتَى تَبْعَثُوهاَ تَبْعَثُوهاَ ذَميمَةً   وَتَضْرَ إذَا ضَرَّيْتُمُوهاَ فَتَضْرَمِ

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفالِها   وَتَلْقَحْ كِشافاً ثُمّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ

ليست الحرب إلا ما عهدتموها ومارستم كراهتها ، وما هذا الذى أقول بحديث مرجم عن الحرب ، أى هذا ما شهدت عليه الشواهد الصادقة من التجارب ، وليس من أحكام الظنون .

فمتى تبعثوا الحرب تبعثوها مذمومة أى تذمون على إثارتها . ويشتد ضرمها إذا حملتموها على شدة الضرى فتلتهب نيرانها . فإذا أوقدتم نار الحرب ذممتم ، ومتى أثرتموها ثارت وهيجتموها هاجت .

وكلنا يعلم ما للحرب من مخلفات ، ونحتاج إلى سنين لتعود الحياة لطبيعتها ، ويشعر الناس بالأمن والأمان .

من أجل ذلك يحث الشاعر على التمسك بالصلح ، وهو هنا يتمسك بمكارم الأخلاق ، ويعلمنا سوء عاقبة إيقاد نار الحرب .

إن الحرب تعرككم عرك الرحى الحب مع ثفاله ، وخص تلك الحالة لأنه لا يبسط إلا عند الطحن ، وتلقح الحرب فى السنة مرتين وتلد توأمين ، فهو قدجعل إفناء الحرب إياهم بمنزلة طحن الرحى الحب ، وجعل صنوف الشر تتولد عن تلك الحروب بمنزلة الأولاد الناشئة من الأمهات ، وبالغ فى وصفها باستتباع الشر شيئين ، أحدهما جعله إياها لاقة كشافا ، والأخر إتآمها ، فتولد لكم أبناء أثناء تلك الحروب ، كل واحد منهم يضاهى فى الشؤم عاقر ناقة سيدنا صالح " قدار بن سالف " ثم ترضعهم الحروب وتقطعهم ، أى تكون ولادتهم ونشوؤهم فى الحروب ، فيصبحون مشائيم على آبائهم ..

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشْأَمَ كُلُّهُمْ   كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

فَتُغْلِلْ لَكُمْ مالاً تُغِلُّ لِأَهْلِها   قُرَى بِالْعِرَاقِ مِن قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

وهكذا فالشاعر يحث على الاعتصام بحبل الصلح ، وزجر عن الغدر بإيقاد نار الحرب ، حيث إن المضار المتولدة من هذه الحروب تربى على المنافع المتولدة من هذه القرى التى أشار إليها .

وللشاعر نظرة إلى الحياة لا تختلف عن نظرتنا إليها وإن تباعدت الأزمان والأماكن ، فهى حياة شائقة لا جدال فى ذلك ، ومن يعمر فيها يسأم ويمل ولا يحب أن يستمر فى حياته ، فالكبر يسلمه إلى الوحدة وإلى القلق وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال : " كفى بالسلامة داء " فمن عاش ثمانين سنة مل الكبر لا محالة ، ومل مشاق الحياة وشدائدها ، ويعطينا الشاعر تجربته فى هذا المجال ، ويبين لنا خبرته فى الحياة وكيف نستفيد منها ونعمل بها فيقول :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لا أبَالَكَ يَسْأمِ

وَأعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأمْسِ قَبْلَه ... وَلكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

رَأيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمنْ تُخْطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِى أمُورٍ كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأنْيابٍ وَيُوطَأ بِمَنْسِمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وَمَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبه ... إلَى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لاَ يَتَجَمْجَمِ

وَمَنْ هَابَ أسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَه ... وَإنْ يَرْقَ أسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

فقد يحيط علمى بما مضى وما حضر ، ولكنى عمى القلب عن الإحاطة بما هو منتظر متوقع .

وقد رأيت المنايا تصيب الناس على غير نسق وترتيب وبصيرة ، ويعود للبينة ليصور لنا هذه الصورة التى يمثلها بالناقة تطأ على غير بصيرة . فمن أصابته المنايا أهلكته ، ومن أخطأته أبقته فبلغ الهرم .

إن من لم يصانع الناس ولم يدارهم فى كثير من الأمور قهروه وأذلوه ، وتلك حقيقة واقعة نلمسها فى تعاملاتنا الحياتية ، وربما قتلوه كالذى يضرس بالناب ويوطأ بالمنسم .

ومن جعل معروفه ذابا ذم الرجل عن عرضه ، ومن لا يتق شتم الناس إياه شتم ، يريد أن من بذل معروفه صان عرضه ، ومن بخل بمعروفه عرض للذم والشتم .

ومن كان ذا فضل ومال فبخل به استغنى عنه وذم .. ومن أوفى بعهده لم يلحقه ذم ، ومن هدى قلبه الى بر يطمئن القلب إلى حسنه ويسكن إلى وقوعه موقعه لم يتمتع فى إسدائه وإيلائه ..

ومن خاف وهاب أسباب المنايا نالته ولم يجد عليه خوفه وهيبته إياها نفعا ، ولو رام الصعود إلى السماء فرارا منها ..

ما أروع هذه النصائح التى يسديها إلينا شاعر جاهلى ، وما أروع هذه الحكم التى نسمعها من العصر الجاهلى تحمل فى طياتها كرم الأخلاق ، وروعة السريرة . ولم يقف الشاعر عند هذه السجايا الكريمة والخصال الحميدة ، ولكنه يستمر يعرض علينا هذا الفيض من الأخلاق .

يقول :

وَمَنْ يَجْعَلِ المعْرُوفَ فى غَيْرِ أَهْلِهِ   يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فَإِنّه   يُطِيعُ الْعَوَالي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ   يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاس يُظْلَمِ

وَمَنْ يغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوّاً صَدِيقَه   وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لايُكَرَّمِ

وَمَهْماَ تَكُنْ عِنْدَ أمْرِىءٍ مِنْ خلِيقَةٍ   وَإِنْ خالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وَكائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ   زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُه   فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَإِنْ سِفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَه   وَإِنَّ الفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يحْلُمِ

سَأَلْنا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمْ   وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْآلَ يَوْماً سَيُحْرَمِ

إن من يضع أياديه فى غير من يستحقها ، أى من أحسن إلى من لم يكن أهلا للإحسان إليه والامتنان عليه ، ذمه الذى أحسن إليه ولم يحمده ، وندم المحسن الواضع إحسانه فى غير موضعه .

إذا التقت فئتان من العرب ، سددت كل واحدة منهما زجاج الرماح نحو صاحبتها ، وسعى الساعون فى الصلح . فإن أبتا إلا التمادى فى القتال قلبت كل واحدة منهما الرماح واقتتلتا بالأسنة ، فمن عصى أطراف الزجاج أطاع عوالى الرماح التى ركبت فيها الأسنة الطوال ، والمعنى : من أبى الصلح ذللته

الحرب .. إن من لم يحم حريمه استبيح حريمه ، ومن لا يكف أعداءه عن حوضه بسلاحه هدم حوضه ، ومن كف عن ظلم الناس ظلمه الناس .

ومن سافر واغترب حسب الأعداء أصدقاء لانه لم يجربهم ، فتوقفه التجارب على ضمائر صدورهم ، ومن لم يكرم نفسه بتجنب الدنايا لم يكرمه الناس .

ومهما كان للإنسان من خلق فظن أنه يخفى على الناس علم ولم يخف . والمعنى أن الأخلاق لا يخفى والتخلق لا يبقى .. وكم صامت يعجبك صمته فتستحسنه وإنما تظهر زيادته على غيره ونقصانه عن غيره عند تكلمه . والمرء بأصغريه لسانه وجنانه ، كقول العرب .

إن الشيخ إذا كان سفيها لم يرج حلمه لأنه لاحال بعد الشيب إلا الموت ، والفتى وإن كان نزقا سفيها أكسبه شيبه حلما ووقارا .

إن من أكثر السؤال حرم يوما لا محالة ، ومع ذلك سألناكم رفدكم ومعروفكم فجدتم بهما ، فعدنا إلى السؤال وعدتم إلى النوال .. وتلك سجايا العربى .

زهير من شعراء الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، وفضله كثير ممن لهم معرفة بنقد الشعر على امرئ القيس والنابغة وأضرابهما ، وقال أناس : هو أشعر العرب ، وعده عمر أشعر الشعراء ، وذكره الأصمعى قال : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا طرب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب وعنترة إذا كلب .

وكان زهير يتأله ويتعفف فى شعره . ويدل شعره على إيمانه بالبعث كقوله :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وإلى جانب ما أجاد به زهير من مكارم الأخلاق فى شعره فجعلته راقيا ساميا فقد صقلت تجاربه وخبرته بالحياة شعره وأنضجت شعر الحكمة عنده ، وخرجت ألفاظه مختاره منتقاه من فطرته الأدبية ..

وكان زهير ينقح شعره مدة طويلة فتسمى كبار قصائده " الحوليات " وعد من عبيد الشعر ، ولذلك كان زهير أبعد الشعراء عن سخف وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من اللفظ ، وكان لا يتتبع حوش الكلام ، وعرف بالميل إلى الحكمة ، جرب الدهر وحلب أشطره ، وخبر الناس وعرف نفوسهم فعمد إلى بيان مكارم الأخلاق فى شعره ، وأتى بما لم يسبق إليه . وقد أعجب المسلمون فى الصدر الأول بحكمه وفضله بعضهم من أجلها على سائر الشعراء ، لما فيها من صدق القول ، وحسن النظر، ولما فيها من نظرات تتفق ومكارم الأخرق ، ومبادئ الإسلام كقوله :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

الهوامش

* جرهم : قبيلة قديمة تزوج فيهم إسماعيل - عليه السلام - فغلبوا على الكعبة والحرم بعد وفاته - عليه السلام - وضعف أمر أولاده ، ثم استولى عليها بعد جرهم خزاعة إلى أن عادت إلى قريش .

* السحيل : المفتول على قوة واحدة . المبرم : المفتول على قوتين أو أكثر ، ثم يستعار السحيل للضعيف ، والمبرم للقوى .

* التدارك : التلاقى ، أى تداركتما أمرهما . التفانى : التشارك فى الفناء . منشم ، قيل فيه : إنه اسم امرأة عطارة ، اشترى قوم منها جفنة من العطر وتعاقدوا وتحالفوا ، وجعلوا أية الحلف غمسهم الأيدى فى ذلك العطر ، فقاتلوا العدو الذى تحالفوا على قتاله فقتلوا عن اخرهم ، فتطير العرب بعطر منشم وسار المثل به ، وقيل : بل كان عطارا يشترى منه ما يحنط به الموتى فسار المثل به .

* السلم الصلح يذكر ويؤنث .

* العقوق : العصيان ، ومنه قوله عليه السلام :" لا يدخل الجنه عاق لأبويه ". المأثم : الإثم ، يقال أثم الرجل يأثم إذا أقدم على إثم . وأثمه الله يأثمه إثاما وإثما إذا جازاه بإثمه ، وأثمه إيثاما صيره ذا إثم ، وتأثم الرجل تأثما إذا تجنب الإثم ، مثل تحرج وتحنث وتحوب إذا تجنب الحرج والحنث والحوب .

* العليا : تأنيث الأعلى ، وجمعها العليات والعلى مثل الكبرى فى تأنيث الأكبر والكبريات و الكبر فى جمعها ، وكذلك قياس الباب . وقوله : هديتما دعاء لهما . الاستباحة : وجود الشئ مباحا ، وجعل الشئ مباحا ، والاستباحة الاستئصال .

* الكلوم والكلام ؛ جمع كلم وهو الجرح ، وقد يكون مصدرا كالجرح . التعفية : التمحية ، من قولهم : عفا الشئ يعفو إذا انمحى ودرس ، وعفاه غيره ويعفيه وعفاه أيضا عفوا . ينجمها أى يعطيها نجوما .

* أراق الماء والدم يريقه وهرقه يهريقه وأهراقه يهريقه لغات ، والأصل اللغة الأولى ، والهاء فى الثانية بدل من الهمزة فى الأولى ، وجمع فى الثالثة بين البدل والمبدل توهما أن همزة أفعل لم تلحقه بعد . المحجم : آله الحجام ، والجمع المحاجم .

* التلاد والتليد : المال القديم الموروث . المغانم جمع المغنم وهو الغنيمة . شتى أى متفرقة . الإفال : جمع أفيل وهو الصغير السن من الإبل . المرنم : المعلم بزنمه .

* الأحلاف والحلفاء : الجيران ، جمع حليف على الأحلاف ، كما جمع نجيب على أنجاب وشريف على أشراف وشهيد على أشهاد . أقسم أى حلف ، وتقاسم القوم أى تحالفوا ، والقسم الحلف ، والجمع الأقسام ، وكذلك القسيمة ، هل أقسمتم أى قد أقسمتم ، ومنه قوله تعالى :" هل أتى على الإنسان حين من الدهر " أى قد أتى .

* الذوق : التجربة . الحديث المرجم : الذى يرجم فيه بالظنون ، أى يحكم فيه بظنونها .

* الضرى : شدة الحرب واستعار نارها ، وكذلك الضراوة ، والفعل ضرى يضرى ، والإضراء والتضرية الحمل على الضراوة ، ضرمت النار تضرم ضرما واضطرمت وتضرمت : التهبت ، وأضرمتها وضرمتها : ألهبتها .

* ثفال الرحى : خرقة أو جلدة تبسط تحتها ليقع الطحين ، والباء فى قوله بثفالها بمعنى : مع . اللقح واللقاح حمل الولد ، يقال لقحت الناقة ، والإلقاح جعلها كذلك . الكشاف : أن تلقح النعجة فى السنة مرتين . أنتجت الناقة إنتاجا إذا ولدت عندى ، ونتجت الناقة تنتج نتاجا . الإتآم : أن تلد الأنثى توأمين ، وامراة متآم إذا كان ذلك دأبها ، والتوأم يجمع على التؤام .

* الشؤم : ضد اليمن ، ورجل مشؤوم ورجال مشائيم كما يقال رجل ميمون ورجال ميامين ، والأشأم أفعل من الشؤم وهو مبالغة المشؤوم ، وكذلك الأيمن مبالغة الميمون ، وجمعه الأشائم .

* أغلت الأرض تغل إذا كانت لها غلة .

* سئمت الشىء سآمة : مللته . التكاليف : المشاق والشدائد . لا أبالك : كلمة جافية لا يراد بها الجفاء ، وإنما يراد بها التنبيه والاعلام .

* الخبط : الضرب باليد ، والفعل خبط يخبط . العشواء : تأنيث الأعشى ، والياء فى عشى منقلبة عن الواو كما كانت فى رضى منقلبة عنها ، والعشواء الناقة التى لا تبصر ليلا ، ويقال فى المثل : هو خابط خبط عشواء ، أى قد ركب رأسه فى الضلالة كالناقة التى لا تبصر ليلا فتخبط بيديها على عمى فربما تردت فى مهواة ، وربما وطئت سبعا أو حية أو غير ذلك .

* الضرس : العض على الشئ بالضرس ، والتضريس مبالغة . المنسم للبعير : بمنزلة السنبك للفرس ، والجمع المناسم .

* وفرت الشئ أفره وفرا : أكثرته ، ووفرته فوفر وفورا .

* وفيت بالعهد أفى به وفاء ، وأوفيت به إيفاء ، لغتان جيدتان والثانية أجودهما لأنها لغة القرآن ، قال الله تعالى :(وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) . ويقال هديته الطريق وهديته إلى الطريق وهديته للطريق .

* رقى السلم يرقى رقيا : صعد فيه ، ورقى المريض يرقيه رقية .

* الزجاج ، جمع زج الرمح : وهو الحديد المركب فى أسفله ، وإذا قيل : زج الرمح ، عنى به ذلك الحديد والسنان . اللهذم : السنام الطويل . عالية الرمح ضد سافلته ، والجمع العوالى .

* الذود : الكف والردع . واستعار الحوض للحريم .

* الخلق والخليقة واحد ، والجمع الأخلاق والخلائق .

* ثلاث لغات فى كائن : كأين وكائن وكئن ، مثل كعين وكاعن وكع . الصمت والصمات والصموت واحد ، والفعل صمت يصمت .

* التسآل : السؤال ، تفعال من أبنية المصادر .

المعلقة الرابعة

لبيد بن ربيعة

لبيد بن ربيعة

هو لبيد بن ربيعة العامرى ، من هوازن قيس . كان من الشعراء المعدودين فى الجاهلية ، ومعلقته هى الرابعة فى المعلقات ، نظمها بدافع نفسى ، فمثل بها فى تصويره أخلاقه . عده ابن سلام فى الطبقة الثالثة ، وسئل ابن سلام من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضليل يعنى امرأ القيس فقال له السائل ثم من ؟ فقال : الغلام القتيل يعنى طرفة ، فقال له السائل : ثم من ؟ فقال : الشيخ أبو عقيل يعنى لبيد .

وأسلم لبيد ، وحسن إسلامه ، وكان من الأجواد المشهورين .

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد " ألا كل شئ ما خلا الله باطل " وكان لبيد من المعمرين ، لما بلغ سبعاً وسبعين سنة أنشأ يقول :

باتت تشكى إلى النفس مجهشة   وقد حملتك سبعا بعد سبعينا

فإن تزاد ثلاثا تبلغى أملا   وفى الثلاث وفاء للثمانينا

ثم عاش حتى بلغ تسعين سنة فأنشأ يقول :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة   خلعت بها عن منكبى ردائيا

ثم عاش حتى بلغ مائة حجة وعشرا فأنشأ يقول :

أليس فى مائة قد عاشها رجل   وفى تكامل عشر بعدها عمر

ثم عاش حتى بلغ مائة و عشرين سنة فأنشأ يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وقيل أنه مات وهو ابن سبع وخمسين ومائة . وروى أن عائشة قالت : رويت للبيد اثنى عشر ألف بيت .

وروى أنه لما حضرته الوفاة قال مخاطبا لابنتيه :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما   وهل انا إلا من ربيعة أو مضر

إذا حان يوما أن يموت أبوكما   فلا تخشما وجها ولا تحلقا شعرا

وقولا هو المرء الذى ليس جاره   مضاعا ولا خان الصديق ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وتبدأ المعلقة بقوله :

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تأبد غولها فرجامها

بدأ لبيد معلقته بوصف الديار المقفرة والأطلال البالية وما فعلت فيها الأمطار والرياح ، وذلك جريا على عادة الشعراء الجاهليين ، وتخلص إلى الغزل ثم إلى وصف ناقته التى تشبه السحابة فى سرعتها ، والأتان الوحشية النشيطة ، وببقرة افترس السبع ولدها ، وصور العراك الذى وقع بينها وبين الكلاب التى طاردتها تصويرا قصصيا بديعا قدم له الدكتور محمد زكى العشماوى عرضا يفوق الجمال فى روعته ، وقد بين لنا لبيد فى هذا المشهد إيمانه بالموت ومن ثم بالبعث حين ذكر أن الموت لا تطيش سهامه ، أى لا

مخلص من هجومه ، فالموت سهم أرسل إليك وعمرك بقدر سفره إليك ، وأن الموت لا تطيش سهامه :" إن المنايا لا تطيش سهامها " .

ثم تحول الشاعر فى معلقته إلى وصف نفسه وكرمه ، وانتهى بمدح قومه والفخر بكرمهم وأمانتهم وتلك من مكارم الأخلاق فكان مجيدا فى تصويره ، صادقا فى عاطفته ..

وقد أشاد الشاعر بقومه ، وافتخر بقوتهم وشجاعتهم حين صور خصومهم بقوتهم وشدتهم ، وأنهم هم أشد منهم وأقوى ، ثم كشف عن كرمهم وأن عطاءه ينال منه العاكف والبادى ، والفقير والمسكين ، والجار والصاحب ، ولا تخل مجامعه من رجل يتحلى بمثل هذه الأخلاق إلى جانب شجاعته ورجاحة عقله ، وأن السيد منهم يوفر حقوق عشائره ، ولم يزل منهم كريم يعين أصحابه على الكرم ، ويعطيهم ما يعطون . ويدعو الشاعر بعد ذلك بالقناعة والرضا بما قسم الله للعباد .

يقول فى ملعقته :

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كَأَنَّها	جِنُّ الْبَدِيِّ رَوَاسِياً أَقْدَامُها
أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَبُؤْتُ بِحَقِّها	عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَيَّ كِرَامُها
وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِها	بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُها
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ	بُذِلَتْ لِجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُها
فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا	هَبَطَا تَبَالَةَ مُخْصِبًا أَهْضَامُها

إنهم رجال غلاظ الاعناق كالأسود ، أى خلقوا خلقة الأسود ، يهدد بعضهم بعضا بسبب الأحقاد التى بينهم ، ثم شبههم بجن هذا الموضع فى ثباتهم فى الخصام والجدال ، فهو يمدح خصومه وكلما كان الخصم أقوى وأشد كان قاهره وغالبه أقوى وأشد .

لقد أنكرت باطل دعاوى تلك الرجال الغلب واقررت بما كان حقاً منها عندى ، أى فى إعتقادى ، ولم يفخر على كرامها ، أى لم يغلبنى بالفخر كرامها ، وذلك من قولهم : فاخرته ففخرته ، أى غلبته بالفخر ، وكان ينبغى أن يقول : ولم تفخرنى كرامها ، ولكنه ألحق علىّ حملاً على معنى ولم يتعال علىّ ولم يتكبر علىّ .

وهو كريم حيث يقول ورب جزور أصحاب ميسر دعوت ندمائى لنحرها وعقرها بأذلام متشابهة الأجسام ، وسهام الميسر يشبه بعضها بعضا ، والمعنى : دب جذور أصحاب ميسر كانت تصلح لتقامر الأيسار عليها دعوت ندمائى لهلاكها أى نحرها بسهام متشابهة .

إنه يفتخر بنحرها إياها من صلب ماله ، لا من كسب قماره ، وأراد السهام ليقرع بها بين إبله أيها ينحر للندماء .

ويدعو بالقداح لنحر ناقه عاقر أو ناقة مطفل تبذل لحومها لجميع الجيران ، أى إنما أطلب القداح لأنحر مثل هاتين ، وذكر العاقل لأنها أسمن ، وذكر المطفل لأنها أنفس .

فالأضياف والجيران الغرباء عندي كأنهم نازلون هذا الوادي في حال كثرة نبات أماكنه المطمئنة ، شبه ضيفه وجاره في الخصب والسعة بنازل هذا الوادي أيام الربيع .

ويستمر الشاعر في إعلان كرمه وجوده إلى جانب شجاعته وفخره بقوته وشدته على الأعداء ، وأن بيته ملاذ لكل مسكين ضعيف يجد فيه أمنه وطمأنينته وأمانه ، وكذلك الفقراء والجيران .

يقول :

تأوي إلى الأطْنَابِ كُلُّ رَذِيةٍ ... مِثْلِ الْبَلِيَّةِ قَالِصٍ أهْدَامُها

وَيُكَلِّلُونَ إذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... خُلُجاً تُمَدُّ شَوَارِعاً أيْتَامُها

إنَّا إذَا الْتَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ ... مِنَّا لِزَازُ عَظِيمَةٍ جَشَّامُها

وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّها ... وَمُغَذْمِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَّامُها

فَضْلاً وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُها

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ ... وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُها

لاَ يَطْبَعُونَ وَلاَ يَبُورُ فَعَالُهُمْ ... إذْ لاَ يَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أحلامُها

فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإنَّما ... قَسَمَ الْخَلائِقَ بَيْنَنَا عَلاَّمُها

وتأوي إلى أطناب بيتي كل مسكينة ضعيفة ، قصيرة الأخلاق التي عليها لما بها من الفقر والمسكنة ، ثم شبهها بالبلية في قلة تصرفها وعجزها على الكسب وامتناع الرزق منها .

ونكلل للفقراء والمساكين والجيران إذا تقابلت الرياح ، أو فى الشتاء واختلاف هبوب الرياح ، جفانا تحكى بكثرة مرقها أنهارا يشرع أيتام المساكين فيها وقد كللت بكسور اللحم . والمعنى ونبذل للمساكين والجيران جفانا عظاما مملوءة مرقا مكللة بكسور اللحم فى كلب الشتاء وضنك المعيشة .

وإذا اجتمعت جماعات القبائل فلم يزل يسودهم رجل منا يقمع الخصوم عند الجدال ويتجشم عظائم الخصام ، أى لا تخلو المجامع من رجل منا يتحلى بما ذكر من قمع الخصوم وتكلف الخصام .

ويقسم الغنائم فيوفر على العشائر حقوقها ويتغضب عند إضاعة شئ من حقوقها ويهضم حقوق نفسه ، والسيد يملك أمور القوم جبراً وهضماً فى أوقاتها على اختلافها ، فإن أساؤا هضم حقهم ، وإن أحسنوا تغذمر لهم أى تغضب لهم .

ويفعل ذلك تفضلاً ولم يزل منا كريم يعين أصحابه على الكرم ، أى يعطيهم ما يعطون .

إنه من قوم سنت لهم أسلافهم كسب رغائب المعالى واغتنامها ، ثم قال : ولكل قوم سنته وإمام يؤتم به فيها .

إن أعراضهم لا تتدنس بعار ولا تفسد أفعالهم إذ لا تميل عقولهم مع أهوائهم .

فلابد أن يقنع العدو بما قسم الله تعالى فإن قسام المعايش والخلائق علامها . يريد أن الله تعالى قسم لكل ما استحقه من كمال ونقص ورفعة وضعه .

ومع هذه الأخلاق الحسنة ، والسجايا الكريمة يستمر الشاعر فى بيان قيمة هذه الأخلاق فأشار إلى الأمانة تلك التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان . إنه يوضح كيف يكون موقف الإنسان تجاه هذه الأمانة .

يقول :

وَإِذَا الْأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مَعْشَرٍ ... أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظِّنَا قَسَّامُهَا

فَبَنَى لَنَا بَيْتاً رَفِيعاً سَمْكُهُ ... فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغُلَامُهَا

وَهُمُ السُّعَاةُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أُفْظِعَتْ ... وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا

وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيهِمُ ... وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

وَهُمْ لِلْعَشِيرَةِ أَنْ يُبَطِّئَ حَاسِدٌ ... أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِئَامُهَا

وإذا قسمت الأمانات بين الأقوام وفر وكمل قسمنا من الأمانة أى نصيبنا الأكثر منها ، يريد أوفى الأقوام أمانة .

لقد بنى الله تعالى لنا بيت شرف ومجد عالى السقف فارتفع إلى ذلك الشرف كهل العشيرة وغلامها ، فكهولهم وشبابهم يسمون إلى المعالى والمكارم .

وإذا أصاب العشيرة أمر عظيم سعوا بدفعه وكشفه وهم فرسان العشيرة عند قتالها ، وحكامها عند تخاصمها ، يريد رهطه الأدنين .

إنهم لمن جاورهم ربيع لعموم نفعهم وإحيائهم إياه بجودهم كما يحيى الربيع الأرض . والمعنى : هم لمن جاورهم وللنساء اللواتى نفدت أزوادهن بمنزلة الربيع إذا تطاول عامها لسوء حالها ، لأن زمان الشدة يستطال .

وهم العشيرة ، أى هم متوافقون متاعضدون فكنى عنه بلفظ العشيرة كراهية أن يبطئ حاسد بعضهم عن نصر بعض ، أو كيلا يبطئ حاسد بعضهم عن نصر بعض ، وكراهية ان يميل لئام العشيرة وأخساؤها مع العدو أى أن يظاهر الأعداء على الأقرباء . والمعنى : أنهم يتوافقون ويتعاضدون كراهية أن يبطئ الحساد عن نصر بعض ، وميل لئامهم إلى الأعداء ، أو مظاهرتهم إياهم على الأقارب .

الهوامش

* الغلب : الغلاظ الأعناق . التشدد : التهدد . الذحول : الأحقاد ، الواحد ذحل . البدى : موضع الرواسى .
* باء بكذا : أقر ، ومنه قولهم فى الدعاء : أبوء لك بالنعمة ، أى أقر .
* الأيسار : جمع يسر وهو صاحب الميسر . المغالق : سهام الميسر ، سميت بها لأن بها يغلق الخطر ، قولهم : غلق الرهن يغلق غلقا ، إذا لم يوجد له تخلص وفكاك .
* العاقر : التى لا تلد . المطفل : التى معها ولدها . اللحام : جمع لحم .

* الجنيب : الغريب . تبالة : وادى مخصب من أودية اليمن . الهضيم : المطمئن من الأرض ، والجمع الأهضام والهضوم .
* الأطناب : حبال البيت ، واحدها طنب . لرذية : الناقة التى ترذى فى السفر ، أى تخلف لفرط هزالها وكلالها ، والجمع الرذايا ، استعارها للفقيرة . البلية : الناقة التى تشد على قبر صاحبها حتى تموت ، والجمع البلايا . الأهدام : الأخلاق من الثياب ، واحدها هدم . قلوصها : قصرها .
* تناوحت : تقابلت ، ومنه قولهم :الحبلان متناوحان أى متقابلان ، ومنه النوائح لتقابلهن . الخلج : جمع خليج وهو نهر صغير يختلج منه نهر كبير أو من بحر ، والخلج الجذب . تمد : تزاد . شرع فى الماء : خاضه .
* رجل لزاز الخصوم : يصلح لأن يلزبهم ، اى يقرن بهم ليقهرهم ، ومنه لزاز الباب ولزاز الجدار .
* التغذمر والغذمرة : التغضب مع همهمة . الهضم : الكسر والظلم .
قوله : ومغذمرة لحقوقها ، أى لأجل حقوقها ، هضامها أى هضام الحقوق التى تكون له ، والكناية فى هضامها يجوز أن تكون عائدة على العشيرة أى هضام للأعداء فيهم منا ، أى هضامهم للأعداء . ويجوز أن تكون عائدة على الحقوق ، أى المغذمرة لحقوق العشيرة ، والهضام لهامنا ، والسيد يملك أمور القوم جبرا وهضما فى أوقاتها على اختلاقها ، فإن أساءوا هضم حقهم ، وإن أحسنوا تغذمر لهم .
* الندى : الجود ، والفعل ندى يندى ندى ، ورجل ند .
الرغائب : جمع الرغيبة وهى ما رغب فيه من علق نفيس أو خصلة شريفة أو غيرهما . الغنام : مبالغة الغانم .

* الطبع : تدنس العرض وتلطخه ، والفعل طبع يطبع . اليواد : الفساد والهلاك . الفعال : فعل الواحد جميلا كان أو قبيحا .
* القسم مصدر قسم يقسم ، والقسم والقسمة اسمان وجمع القسم أقسام ، وجمع القسمة قسم . الملك والملك ، بسكون اللام وكسرها ، والمليك واحد ، وجمع الملك بسكون اللام ، ملوك ، وجمع الملك بكسر اللام ، أملاك .
* الباء فى قوله بأوفر زائدة أى أوفى أوفر حظنا .
* السعاة : جمع الساعى . جمع الساعى . أفظعت : أصيبت بأمر فظيع .
* أرمل القوم : إذا نفدت أزوادهم .
* قوله : أن يبطئ حاسد ، معناه على قول البصريين : كراهية أن يبطئ حاسد وأن لا يميل ، كقوله تعالى : " يبين الله لكم أن تضلوا " . أى كراهية أن تضلوا ، أو يبين الله لكم أن لا تضلوا ، أى كى لا تضلوا .

المعلقة الخامسة

عمرو بن كلثوم

عمرو بن كلثوم

هو أبو عبّاد عمرو بنِ كلثوم التغلبى ، كان أعز الناس وأشجع الناس وأكثر العرب ترفعا . ساد قومه وهو فى الخامسة عشر من سنه . كان يدعو إلى السلام فقد أصلح بين عشيرتى بكر وتغلب بعد حرب البسوس التى دامت أربعين سنه ، ولكنه خشى أن تعودا إلى الحرب فأخذ منُهما مائة غلام رهائن حتى إذا إعتدت إحداهما على الأخرى أفاد من الرهائن .

ومعلقته ذات قيمة تاريخية ، فهى تدلنا على حالة العرب من حيث الدين والإجتماع والعادات والصناعات والألعاب .

وعمرو بن كلثوم معدود فى المعمرين ، روى أنه عاش مائة وخمسين سنة ، ولما حضره الموت جمع بنيه وقال : يابنى قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من أبائى ، ولابد أن ينزل بى ما نزل بهم من الموت ، وإنى والله ما عيرت أحدا بشئ إلا عيرت بمثلة إن كان حقاً فحقا ، وإن كان باطلاً فباطلا . من سَبّ سُبّ . فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لكم . وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم ، وامنعوا من ضيم الغريب فرب رجل خير من ألف ، ورد خير من خلف . وإذا حدثتم فعوا ، وإذا حدثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار يكون الإهزار ، وأشجع القوم العطوف بعد الكره ، كما أن أكرم المنايا القتل ، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا إذا عُوتب لم يعتب . ومن الناس من لا يرجى خيره ولا يخاف شره ، فعقوقه خير من بره ، ولا تتزوجوا فى حيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البغض .

وتبدأ ملعقة عمرو بن كلثوم بقوله :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خُمور الأندرينا

ويذكرنا بالموت وهو لابد أن يدركنا ولو طال العمر ، فهو قدرنا ونحن قدره ، يقول إن مقادير موتنا سوف تدركنا ، وقد قدرت تلك المقادير لنا وقدرنا لها :

وإنا سوف تدركنا المنايا   مُقدرة لنا ومُقدّرينا

وأن الأيام رهن بما لا يحيط علمك به أى ملازمة لك :

وإن غدا وإن اليوم رهنٌ   وبعد غدٍ بما لا تَعْلَمينا

وقد أخذ عمرو بن كلثوم يردد لبطولاته وشجاعته وقوته وإنتصاراته مع الاعتزاز والفخر بمجده وجوده وكرمه ونجدته للملهوف ومساعدته الضعيف وجعل يذكر بكرم أخلاقه وبحسن عشيرته وبأيامه :

أبَا هِنْدٍ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْنَا   وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا

بأنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضا   وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوِينَا

وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ   عَصَيْنَا المَلْكَ فِيهَا أنْ نَدِينَا

يقول مخاطباً عمرو بن هند الذى كان يفضل التغلبيين على البكريين : يا أبا هند لا تعجل علينا ، وانظرنا نخبرك باليقين من أمرنا وشرفنا بان نورد أعلامنا الحروب بيضا ، ونرجعها منها حمرا قد روينا من دماء الأبطال . فنحن نخبرك بوقائع لنا مشاهير كالغر من الخيل عصينا الملك كراهية أن ندين له ، وأن نطيعه ونتذلل له .

الأيام : الوقائع هنا ، والغر بمعنى المشاهير كالخيل الغر ، وقوله أن دين ، أى كراهية أن ندين فحذف المضاف على قول البصريين أو لئلا ندين على قول الكوفيين فحذف لا .

ويستمر الشاعر فى فخره بنفسه وبقومه وبأنهم يقهرون كل من علاهم حتى سيد القوم المتوج بتاج الملك الحامى للملجئين ، يقول :

وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُوهُ	بِتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِى الْمُحْجَرِينَا
تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ	مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا
وَأَنْزَلْنَا الْبُيُوتَ بِذِى طُلُوحٍ	إِلَى الشَّامَاتِ تَنْفِى الْمُوعِدِينَا
وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَىِّ مِنَّا	وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا
مَتَى تُنْقَلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا	يَكُونُوا فِى اللِّقَاءِ لَهَا طَحِينَا
يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِىَّ نَجْدٍ	وَلُهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أَجْمَعِينَا
نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الْأَضْيَافِ مِنَّا	فَأَعْجَلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتِمُونَا
قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ	قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا
نَعُمُّ أُنَاسَنَا وَنَعِفُّ عَنْهُمْ	وَنَحْمِلُ عَنْهُمُ مَا حَمَّلُونَا

لقد قتلنا السيد وحبسنا خيلنا عليه ، وقد قلدناها أعنتها فى حال صفونها عنده وأنزلنا بيوتنا بمكان يعرف بذى طلوح إلى الشامات تنفى من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا ،وقد لبسنا الأسلحة حتى أنكرتنا الكلاب ورهرت لإنكارها إيانا ، وقد كسرنا شوكة من يقرب منا من أعدائنا .

إننا متى حاربنا قوماً قتلناهم فتكون معركتنا الجانب الشرقى من نجد وتكون قبضتنا قضاعة أجمعين ، ولقد نزلتم منزلة الأضياف فجعلنا قراكم كراهية أن تشتمونا ولكى لا تشتمونا . والمعنى تعرضتم لمعاداتنا كما يتعرض الضيف للقرى فقتلناكم عجالا ، كما يحمد تعجيل قرى الضيف .

والشاعر هنا رغم أنه يتهكم بأعدائه ، ويستهزئ بهم إلا أنه يشيد بعادة العربى حين ينزل به ضيف فيكرمه ويحسن نزله ، فهو يقرى الضيف شنشنة فيه وفى كل عربى نشأ فى هذه البيئة .

وهو بعد ذلك يقول : نعُم عشائرنا بنوالنا وسيبنا ، ونعف عن أموالهم ونجمل عنهم ما حملونا من أثقال حقوقهم ومؤنتهم ، وأن شأنهم طعن من لا تناله سيوفنا ، فنحن نطاعن الأبطال ما تباعدوا عنا ، ونضربهم بالسيوف إذا ما أتونا ، فقربوا منا ..

نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّا ... وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إِذَا غُشِينَا

بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِّىِّ لُدْنٍ ... ذَوَابِلَ أَوْ بِبِيضٍ يَخْتَلِينَا

نَشُقُّ بِهَا رُءُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا ... وَنُخْلِيهَا الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا

كَأَنَّ جَمَاجِمَ الأَبْطَالِ فِيهَا ... وُسُوقٌ بِالأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا

وَإِنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَبْدُو ... عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يُبِينَا

وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَىِّ خَرَّتْ ... عَنِ الأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا

نطاعنهم برماح سمر لينة من رماح الرجل الخطى ، ونضاربهم بسيوف بيض يقطعن ما ضرب بها . فكأن جماجم الشجعان منهم أحمال إبل تسقط فى الأماكن الكثيرة الحجارة ، شبه رءوسهم فى عظمها بأحمال الإبل .

وإن الضغن بعد الضغن تفشو آثاره ، ويخرج الداء المدفون من الأفئدة فيبعث على الانتقام .

لقد ورثوا شرف آبائهم ، علمت ذلك معد نطاعن الأعداء دون شرفنا حتى يظهر الشرف لنا .

ونحن إذا قوضت الخيام فخرت على أمتعتها نمنع ونحمى من يقرب منا من جيراننا ، أو ونحن إذا سقطت الخيام عن الإبل للإسراع فى الهرب نمنع ونحمى جيراننا إذا هرب غيرنا حمينا غيرنا .

وهكذا يستمر الشاعر فى وصف قوته فهو يقطع رءوس الأعداء فى غير بر ، أى فى عقوق ، ولا يدرون ماذا يحذرون منهم من القتل وسبى الحرم واستباحة الأموال ، يقول :

نَجُذُّ رُءُوسَهُمْ فِي غَيْرِ بِرٍّ ... فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا

كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ ... مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لاَعِبِينَا

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنهُمْ ... خُضِبْنَا بِأُرْجُوَانٍ أَوْ طُلِينَا

إِذَا مَاعَيَّ بِالإِسْنَافِ حَيٌّ ... مِنَ الهَوْلِ المُشَبَّهِ أَنْ يَكُونَا

نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةَ ذَاتَ حَدٍّ ... مُحَافَظَةً وَكُنَّا السَّابِقِينَا

بِشُبَّانٍ يَرَوْنَ القَتْلَ مَجدا ... وَشِيبٍ فِي الحُرُوبِ مُجَرَّبِينَا

حُدَيَّا النَّاسِ كُلِّهِمِ جَمِيعا مُقَارَعَةً بَنِيهِمْ عَنْ بَنِينا

فَأَمَّا يَوْمَ خَشْيَتِنَا عَلَيْهِمْ فَتُصْبِحُ خَيْلُنَا عُصَباً ثُبِينا

وَأَمَّا يَوْمَ لا نَخْشَى عَلَيْهِمْ فَنُمْعِنُ غَارَةً مُتَلَبِّبِينَا

بِرَأسٍ مِنْ بَنِى جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ نَدُقُّ بِهِ السُّهُولَةَ وَالْحُزُونَا

وكنا لا نحفل بالضرب بالسيوف كما لا يحفل اللاعبون بالضرب بالمخاريق أو كنا نضرب بها فى سرعة كما يضرب بالمخاريق فى سرعة ، فكأن ثيابنا وثياب أقراننا خضبت بأرجوان او طليت ، وإذا عجز عن التقدم قوم مخافة هول منتظر متوقع يشبه أن يكون ويمكن .

وإذا فزع غيرنا من التقدم أقدمنا مع كتيبة ذات شوكة وغلبنا ، وإنما نفعل ذلك محافظة على أحسابنا ، فهو لا ينسى الفخر بالأنساب والأحساب على عادة الجاهليين ، ولذلك يحافظ على الأحساب بهذا الخيل الذى يشبه الجبل فى قوته وكثرته ، أو بكتيبة ذات شوكة ليحافظ على أحسابه وإذن يسبق خصومه ويغلبهم بشبان يعدون القتال فى الحروب مجدا ، وشيب قد مرنوا على الحروب ، فشبابهم يجد المجد فى انتصاراته مع العدو ، ولا يخشون من الموت فى سبيل نصرة بلادهم وأوطانهم ، وهكذا سمو فى العقيدة أحسب شبابنا بمثل هذا السمو فى المعارك والحروب والأزمات .

من أجل ذلك يقول الشاعر إننا نتحدى الناس كلهم بمثل مجدنا وشرفنا ونقارع أبناءهم ونضاربهم بالسيوف حماية للحريم وذبا عن الحوذة . فأما يوم نخشى على أبنائنا وحرمنا من الأعداء تصبح خيلنا جماعات ، أى تتفرق فى كل

وجه لذب الأعداء عن الحرم ، وأما يوم لا نخشى على حرمنا من أعدائنا فنمعن فى الإغارة على الأعداء لابسين أسلحتنا ، فنغير عليهم مع سيد من هؤلاء القوم ندق به السهل والحزن ، أى نهْزم الضعاف والأشداء ، ويقول :

ألا لا يسلم الأقوام أنا	تضعضعنا وأناقد ونينا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند	نكون لقيلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا	متى كنا لأمك مقتوينا

لا يعلم الأقوام أننا تذللنا وانكسرنا وفترنا فى الحرب ، أى لسنا بهذه الصفة فتعلمنا الأقوام بها ، فلا يسفهن أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم ، أى نجازيهم بسفههم جزاء يربى عليه ، فسمى جزاء الجهل جهلا لازدواج الكلام ، وحسن تجانس اللفظ ، كما قال الله تعالى : " الله يستهزئ بهم " وقال الله تعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها " وقال جل ذكره : " ومكروا ومكر الله " وقال جل وعلا : " ويخادعون الله وهو خادعهم " سمى جزاء الاستهزاء ، والسيئة والمكر والخداع استهزاء وسيئة ومكرا وخداعا .

ثم يخاطب الشاعر عمرو بن هند ، فيقول : " كيف تشاء يا عمرو أن نكون خدما لمن وليتموه أمرنا من الملوك الذين وليتموهم ؟ أى : أى شئ دعاك إلى هذه المشيئة المحال ؟ يريد أنه لم يظهر منهم ضعف يطمع الملك فى إذلالهم باستخدام قيله إياهم .

كيف تشاء يا عمرو أن تطيع الوشاة بنا إليك وتحتقرنا وتقصر بنا ، أى : أى شئ دعاك إلى هذه المشيئة ؟ أى لم يظهر منا ضعف يطمع الملك فينا حتى بصغى إلى من يشى بنا إليه ويغريه بنا فيحتقرنا . فترفق فى تهددنا وإبعادنا ولا تمعن فيهما ، فمتى كنا خدما لأمك ؟ أى لم نكن خدما لها حتى نعيأ بتهديدك ووعيدك إيانا .

ويعود ...اطبا عمرو فيقول :

فإنَّ قَنَاتَنَا يَاعَمْرُو أَعْيَتْ	عَلَى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ	وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا
عَشَوْزَنَةً إِذَا انْقَلَبَتْ أَرَنَّتْ	تَشُجُّ قَفَا الْمُثَقِّفِ وَالْجَبِينَا
فَهَلْ حُدِّثْتَ فِي جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ	بِنَقْصٍ فِي خُطُوبِ الأَوَّلِينَا
وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ	أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ المَجْدِ دِينَا
وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً وَالخَيْرَ مِنْهُمْ	زُهَيْراً نِعْمَ ذُخْرُ الذَّاخِرِينَا

إن قناتنا أبت أن تلين لأعدائنا قبلك ، يريد أن عزمهم أبى أن يزول بمحاربة أعدائهم ومخاصمتهم ومكايدتهم ، فعزمهم منيع لا يرام ، وعزتهم لا تتضعضع ، وجعل قهرها من تعرض لهدمها كنفار القناة من التقويم والاعتدال ، ثم بالغ فى وصف القناة بأنها تصوت إذا أريد تثقيفها ولم تطاوع الغامز بل تشج قفاه وجبينه ، كذلك عزتهم لا تتضعضع لمن رامها ، تهلكه وتقرره . فهل أخبرت بنقص كان من هؤلاء فى أمور القرون الماضية أو بنقص عهد سلف .

لقد ورثنا مجد هذا الرجل الشريف علقمة بن سيف ، من أسلافنا وقد جعل لنا حصون المجد مباحة قهرا وعنوة ، أى غلب أقرانه على المجد ثم أورثنا مجده ذلك ، وورثت مجد مهلهل ومجد الرجل الذى هو خير منه وهو زهير فنعم ذخر الذاخرين هو ، أى مجده وشرفه للافتخار به ، ويستمر فى تعداده لما ورثه من مجد فيقول :

وَعَتَّاباً وَكُلْثُوماً جَمِيعا ... بِهِمْ نِلْنَا تُرَاثَ الأَكْرَمِينَا

وَذَا الْبُرَةِ الَّذِى حُدِّثْتَ عَنْه ... بِهِ نُحْمَى وَنَحْمِى الْمُحْجَرِينَا

وَمِنَّا قَبْلَهُ السَّاعِى كُلَيْبٌ ... فَأَىُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلِينَا

مَتَى نَعْقِدْ قَرِينَتَنَا بِحَبْلٍ ... تَجُذَّ الْحَبْلَ أَوْ تَقِصِ الْقَرِينَا

وَنُوجَدُ نَحْنُ أَمْنَعَهُمْ ذِمَارا ... وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا

ورثنا مجد عتاب وكلثوم ، وبهم بلغنا ميراث الأكارم ، أى حزنا مآثرهم ومفاخرهم فشرفنا بها وكرمنا . وورثت مجد ذى البرة الذى اشتهر وعرف وحدثت عنه أيها المخاطب ، وبمجده يحمينا سيدنا وبه نحمى الفقراء الملجئين إلى الاستجارة بغيرهم ، ومنا قبل ذى البرة الساعى للمعالى كليب وائل حتى قرينا من المجد فحويناه .

متى قرنا ناقتنا بأخرى قطعت الحبل أو كسرت عنق القرين ، فمتى قرنا بقوم فى قتال أو جدال غلبناهم وقهرناهم ، فتجدنا أيها المخاطب أمنهم ذمة وجوارا وحلفا ، وأوفاهم باليمين عند عقدها .

وهكذا يعدد الشاعر أمجاده التى ورثها ويفخر بها ويعتز ، كما يشيد بحرصه على الجوار والذمم والحلف ، وبوفائه باليمين التى عقدها ، وتلك من سجايا العربى الأصيل ومن مكارم الأخلاق التى يحرص عليها . ثم يفخر بإعانة قومه بنى نزار فى محاربتهم اليمن ، فيقول :

وَنَحْنُ غَداةَ أوقِدَ فى خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا
وَنَحْنُ الحَابِسُونَ بِذِى أرَاطِى تَسُفُّ الجِلَّةُ الخُورُ الدَّرِينَا
وَنَحْنُ الحَاكِمُونَ إذَا أطَعْنَا وَنَحْنُ العَازِمُونَ إذَا عُصِينَا
وَنَحْنُ التَّارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا وَنَحْنُ الآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا
وَكُنَّا الأيْمَنِينَ إذَا التَقَيْنَا وَكانَ الأيْسَرِينَ بَنُو أبِينَا
فَصَالُوا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِيهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِينَا
فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأبْنَا بِالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

فنحن غداة أوقدت نار الحرب فى خزازى أعنانزارا فوق إعانة المعينين . ونحن حبسنا أموالنا بهذا الموضع حتى سفت النوق الغزار قديم النبت وأسوده لإعانة قومنا ومساعدتهم على قتال إعدائهم ، فكنا حماة الميمنة إذا لقينا الأعداء ، وكان إخواننا حماة الميسرة ، فهو يصف غناءهم فى حرب نزار واليمن عندما قتل كليب وائل لبيد بن عنق الغسانى عامل ملك غسان على تغلب حين لطم أخت كليب ، فحمل بنو بكر على من يليهم من الأعداء ، وحملنا على من يلينا ، فرجع بنو بكر بالغنائم والسبايا ورجعنا مع الملوك مقيدين . أى اغتنموا الأموال ، وأسرنا الملوك .

ثم يتوجه إلى بنى بكر بألا يتعرضوا لهم بعد أن عرفوا بأسهم وشدتهم فيقول :

إِلَيْكُمْ يَا بَنِى بَكْرٍ إِلَيْكُمْ ... أَلَمَّا تَعْرِفُوا مِنَّا الْيَقِينَا
أَلَمَّا تَعْرِفُوا مِنَّا وَمِنْكُمْ ... كَتَائِبَ يَطَّعِنَّ وَيَرْتَمِينَا
عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلَبُ الْيَمَانِى ... وَأَسْيَافٌ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينَا
عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ ... تَرَى فَوْقَ النِّطَاقِ لَهَا غُضُونَا
إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الأَبْطَالِ يَوْماً ... رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونَا
كَأَنَّ غُضُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ ... تُصَفِّقُهَا الرِّيَاحُ إِذَا جَرَيْنَا
وَتَحْمِلُنَا غَدَاةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ ... عُرِفْنَ لَنَا نَقَائِذَ وَافْتُلِينَا
وَرَدْنَ دَوَارِعاً وَخَرَجْنَ شُعْثاً ... كَأَمْثَالِ الرَّصَائِعِ قَدْ بَلِينَا
وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ ... وَنُورِثُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِينَا

تنحوا وتباعدوا عن مباراتنا يا بنى بكر ، ألم تعلموا نجدتنا وبأسنا اليقين ؟ قد علمتم ذلك لنا فلا تتعرضوا لنا ، ألم تعلموا كتائب منا ومنكم يطعن بعضهم بعضا ، ويرمى بعضهن بعضا ؟

وكان علينا البيض واليلب اليمانى وأسياف يقمن وينحنين لطول الضرائب بها . وكانت علينا كل درع واسعة براقة ترى أيها المخاطب فوق المنطقة لها غضونا لسعتها وسبوغها ، إذا خلعها الأبطال يوما رأيت جلودهم سودا للبسهم إياها ، وتحملنا في الحرب خيل رقاق الشعور قصارها عرفن لنا وفطمت عندنا

وخلصناها من أيدى أعدائنا بعد استيلائهم عليها ، وردت خيلنا وعليها تجافيفها ، وخرجن منها شعثا قد بلينا بلى عقد الأعنة لما نالها من الكلال والمشاق فيها . ورثنا خيلنا من آباء كرام شأنهم الصدق فى الفعال والمقال ، ونورثها أبناءنا إذا متنا .

فهو يعتز بالصدق فى القول وفى الفعل ، والبعد عن الكذب الذى يؤدى إلى الردى والهلاك ، أما الصدق فهو منجى وكانت العرب تشهد نسائها الحروب ، وتقيمها خلف الرجال ليقاتل الرجال ذبا عن حرمها فلا تفشل مخافة العار بسبى الحرم ، وفى ذلك يقول :

عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ　　نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهُونَا

أَخَذْنَ عَلَى بُعُولَتِهِنَّ عَهْدا　　إِذَا لَاقَوْا كَتَائِبَ مُعْلَمِينَا

لَتَسْتَلِبُنَّ أَفْرَاساً وَبِيضا　　وَأَسْرَى فِى الْحَدِيدِ مُقَرَّنِينَا

تَرَانَا بَارِزِينَ وَكُلُّ حَيٍّ　　قَدْ اتَّخَذُوا مَخَافَتَنَا قَرِينَا

إِذَا مَارُحْنَ يَمْشِينَ الْهُوَيْنَى　　كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينَا

يَقُتْنَ جِيَادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ　　بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَا بَقِينَا　　لِشَىْءٍ بَعدهُنَّ وَلَا حَيِينَا

على آثارنا فى الحرب نساء بيض حسان ، نحاذر عليها أن يسبيها الأعداء فتقسمها وتهينها ، وقد عاهدن أزواجهن إذا قاتلوا كتائب من الأعداء قد أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها فى الحرب أن يثبتوا فى حومة القتال ولا يفروا ، ليستلب خيلنا أفراس الأعداء وبيضهم وأسرى منهم قد قرنوا فى الحديد ، فترانا

خارجين إلى الأرض البراز ، وهى الصحراء التى لا جبل فيها لثقتنا بنجدتنا وشوكتنا ، وكل قبيلة تستجير وتعتصم بغيرها مخافة سطوتنا بها .

إذا مشين يمشين مشيا زفيقا لثقل أردافهن وكثرة لحومهن ، ثم شبههن فى تبخترهن بالسكارى فى مشيهم .

يعلفن خيلنا الجياد ويقلن لستم أزواجنا إذا لم تمنعونا من سبى الأعداء إيانا .

إنهن نساء من هذه القبيلة جمعن إلى الجمال الكرم والدين .. والكرم والدين من مكارم الأخلاق . ويقول :

ظَعَائِنَ مِنْ بَنِى جُشَمِ بْنَ بَكْرٍ   خَلَطْنَ بِمِيسَمٍ حَسَبَاً وَدِينَا

وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ   تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالْقُلِينَا

كَأَنَّا والسُّيُوفِ مُسَلَّلاتٌ   وَلَدْنَا النَّاسَ طُرّاً أَجْمَعِينَا

يُدَهْدُونَ الرُّءُوسَ كَمَا تُدَهْدِى   حَزَاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهَا الْكُرِينَا

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ   إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا

بِأَنَّا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا   وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا

وَأَنَّا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا   وَأَنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

مامنع النساء من سبى الأعداء إياهن شئ مثل ضرب تندر وتطير منه سواعد المضروبين كما تطير القلة إذا ضربت بالمقلى .

كأنا حال استلال السيوف من أغمادها فى الحرب ولدنا جميع الناس ، أى نحميهم حماية الوالد ولده .

يدحرجون رءوس أقرانهم كما يدحرج الغلمان الغلاظ الشداد الكرات فى مكان مطمئن من الأرض .. وقد علمت قبائل معد إذا بنيت قبابها بمكان أبطح .

لقد علمت هذه القبائل أنا نطعم الضيفان إذا قدرنا عليه ، ونهلك أعداءنا إذا اختبروا قتالنا ، وأنا نمنع الناس ما أردنا منعه إياهم وننزل حيث شئنا من بلاد العرب .

وتستمر ذاتية الشاعر فى أبياته عن اعتزازه بنفسه فيقول : وأنا نترك ما نسخط عليه ونأخذ إذا رضينا ، أى لا نقبل عطايا من سخطنا عليه ، ونقبل هدايا من رضينا عليه ..

وَأنَّا التَّارِكُونَ إذَا سَخِطْنَا ... وَأنَّا الآخِذُونَ إذَا رَضِينَا

وَأنَّا الْعَاصِمُونَ إذَا أُطِعْنَا ... وَأنَّا الْعَازِمُونَ إذَا عُصِينَا

وَنَشْرَبُ إنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوا ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وَطِينَا

ألا أبْلِغْ بَنِى الطَّمَّاحِ عَنَّا ... وَدُعْمِيًا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونا

إذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ... أبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أمْسَى عَلَيْهَا ... وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا

وأنا نعصم ونمنع جيراننا إذا أطاعونا ، ونعزم عليهم بالعدوان إذا عصونا ، ونأخذ من كل شىء أفضله ، وندع لغيرنا أرذله ، فهم أتباع لنا ونحن سادتهم .

سل هؤلاء كيف وجدونا شجعانا ، وأننا أبينا الانقياد للملك إذا أكره الناس على ما فيه .

عممنا الدنيا برا وبحرا ، فضاق البر عن بيوتنا والبحر عن سفننا . إذا بلغ صبياننا وقت الفطام ، سجدت لهم الجبابرة من غيرنا :

بُغاةً ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنا وَلَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا
مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَنَحْنُ البَحْرُ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا
إِذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطاما تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

إنه شاعر المجد والسلام والعز والشرف ، والداعى إلى التمسك بمكارم الأخلاق فى السلم والحرب .

الهوامش

* الراية : العلم ، والجمع الرايات والرأى .
* الأيام : الوقائع . الغر : المشاهير .
* أحجرته : الجأته .
* العكوف : الإقامة ، والفعل عكف يعكف . الصفون : جمع صافن وقد صفن الفرس يصفن صفونا إذا قام على ثلاث قوائم وثنى سنبكه الرابع .
* القتاد : شجر ذو شوك ، والواحدة منها قتادة . التشذيب : نفى الشوك والأغصان الزائدة والليف عن الشجر . يلينا : يقرب منا .
* الثفال : خرقة او جلدة تبسط تحت الرحى ليقع عليه الدقيق . اللهوة : القبضة من الحب تلقى فى فم الرحى ، وقد ألهيت الرحى ألقيت فيها لهوة . استعار للمعركة اسم الثفال ، وللقتلى اسم اللهوة ليشاكل الرحى والطحين .

* المرداة : الصخرة التى تكسر بها الصخور . والمرادة أيضا الصخرة التى يرمى بها ، والردى الرمى والفعل ردى يردى ، فاستعار المرادة للحرب . الطحون : فعول من الطحن . مرادة طحونا أى حربا أهلكتهم أشد إهلاك .
* التراخى : البعد . الغشيان : الإتيان .
* اللدن : اللين ، والجمع لدن .
* الأبطال : جمع بطل وهو الشجاع الذى يبطل دماء أقرانه . الوسوق : جمع وسق وهو حمل بعير . الأماعز : جمع الأمعز وهو المكان الذى تكثر حجارته .
* الاختلاب : قطع الشئ بالمخلب وهو المنجل الذى لا أسنان له . الاختلاء : قطع الخلا وهو رطب الحشيش .
* الحفض : متاع البيت ، والجمع أحفاض ، والحفض البعير الذى يحمل متاع البيت ، والجمع أحفاض ، فعلى الأحفاض : الأمتعة ، وعن الأحفاض : الإبل .
* الجذ : القطع ، والفعل جذ يجذ .
* المخراق : سيف من خشب .
* الإسناف : الإقدام .
* سبقنا خصومنا : أى غلبناهم .
*حديا : اسم جاء على صيغة التصغير مثل ثريا وحميا وهى بمعنى التحدى .
* العصب : جمع عصبة وهى ما بين العشرة والأربعين . الثبة : الجماعة ، والجمع الثبات والثبون فى الرفع ، والثبين فى النصب والجر .
* الإمعان : الإسراع والمبالغة فى الشئ . التلبب : لبس السلاح .
* الرأس : الرئيس والسيد .

* التضعضع : التكسر والتذلل ، ضعضعته فتضعضع أى كسرته فأنكسر .
الونى : الفتور .
* القطين : الخدم . القيل : الملك دون الملك الأعظم .
* ازدراه وازدرى به : قصر به واحتقره .
* القتو : خدمة الملوك ، والفعل قتا يقتو ، والقتى مصدر كالقتو تنسب إليه فتقول مقتوى ، ثم يجمع مع طرح ياء النسبة فيقال : مقتوون فى الرفع ، ومقتوين فى الجر والنصب ، كما يجمع الأعجمى بطرح ياء النسبة فيقال : أعجمون فى الرفع ، وأعجمين في النصب والجر . رويدا : أى دع الوعيد والتهديد وأمهله .
* العرب تستعير للعز اسم القناة .
* الثقاف : الحديدة التى يقوم بها الرمح ، وقد ثقفته قومته . العشوزنة : الصلبة الشديدة . الزبون : الدفوع ، وأصله من قولهم زبنت الناقة حالبها إذا ضربته بثفنات رجليها أى بركبتيها ، ومنه الزبانية لزبنهم أهل النار ، اى لدفعهم .
* أرنت : صوتت .
* الدين : القهر ، ومنه قوله عز وجل :" فلولا إن كنتم غير مدينين " أى غير مقهورين .
* ذو البرة : من بنى تغلب ، سمى به لشعر على أنفه يستدير كالحلقة .
* الوقص : دق العنق ، والفعل وقص يقص .
* الذمار : العهد والذمة والحلف ، سمى به لأنه يتذمر له أى يتغضب لمراعاته .
* الرفد : الإعانة ، والرفد الاسم .

* تسف أى تأكل يابسا ، والمصدر السفوف . الجلة : الكبار من الإبل . الخور : الكثيرة الألبان ، وقيل : الخور الغزار من الإبل ، والناقة خوراء . الدرين : ما اسود من النبت وقدم .
* النهاب : الغنائم الواحد نهب . الأوب : الرجوع . التصفيد : التقييد ، يقال : صفدته أى قيدته و أوثقته .
* اليلب : نسيجه من سيور تلبس تحت البيض .
* السابغة : الدرع الواسعة التامة . الدلاس : البراقة . الغضون : جمع غضن وهو التشنج فى الشئ .
* الجون : الأسود ، والجون الأبيض ، والجمع الجُون .
* الغدر : جمع غدير . تصفقه : تضربه . شبه غضون الدرع بمتون الغدران إذا ضربتها الرياح فى جريها ، العرائق التى ترى فى الدروع بالتى تراها بالماء إذا ضربتها الريح .
* الروع : الفزع ، ويريد به الحرب هنا . الجرد : التى رق شعر جسدها وكثر والواحد أجرد والواحدة جرداء . النقائذ : المخلصات من أيدى الأعداء ، واحدتها نقيذة وهى فعيلة بمعنى مفعلة ، يقال : أنقذتها أى خلصتها فهى منقذة ونقيذة . الفلو والافتلاء : الفطام .
* رجل دارع : عليه درع ، ودروع الخيل تجافيفها . الرصائع : جمع الرصيعة وهى عقدة العنان على قذال الفرس .
* البعول والبعولة جمع بعل ، يقال للرجل : هو بعل المرأة ، وللمرأة هى بعله وبعلته ، كما يقال : هو زوجها وهى زوجه وزوجته .
* الهوينى : تصغير الهونى وهى تأنيث الأهون مثل الأكبر والكبرى .

* القوت : الإطعام بقدر الحاجة ، والفعل قات يقوت ، والاسم القوت والقيت ، والجمع الأقوات .
* الميسم : الحسن وهو من الوسام والوسامة وهما الحسن والجمال ، والفعل وسم يوسم ، والنعت وسيم . الحسب : ما يحسب من مكارم الإنسان ومكارم أسلافه ، فهو فعل فى معنى مفعول مثل النفض والخبط والقبض واللقط فى معنى المنفوض والمخبوط والمقبوض والملقوط . فالحسب إذن فى معنى المحسوب من مكارم آبائه .
* الحزور : الغلام الغليظ الشديد ، والجمع الحزاورة .
* الخسف والخسف : بفتح الخاء وضمها : الذل . السوم : أى تجشم إنسانا مشقة وشرا ، يقال سامه خسفا ، اى حمله وكلفه ما فيه ذل .

المعلقة السادسة

عنترة بن شداد

عنترة بن شداد

هو عنترة بن شداد العبسى ، وأمه زبيبة ، أمه حبشية . كان بطلا شجاعا كريم النفس ، رقيق القلب ، رحب الصدر ، عفيفا . هاجت شاعريته ، واتسع خياله ، وأشهر شعره معلقته وهى السادسة فى المعلقات .

لا يظلم ولا يجرؤ أحد على ظلمه ، وفى معلقته من شرف المعانى وسهولة اللفظ ، وحسن الانسجام ، ومتانة التعبير والموسيقى ماجعل العرب يسمونها بالذهبية .

وهو أحد فرسان العرب المشهورين ، وأجوادهم المعروفين وأحد الأغربة الجاهليين ، وظهرت عليه النجابة وهو صغير ، وشجاعته أشهر من نار على علم .

وقيل لعنترة أنت أشعر العرب وأشدها ، قال : لا ، قيل له فيم شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعا إلا أرى لى منه مخرجا . وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - للحطيئة : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم ، قال : وكيف يكون ذلك؟ قال : كان فينا قيس بن زهير ، وكان حازما فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم . وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه . وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره فكنا كما وصفت لك . فقال عمر : صدقت . وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : ماوصف لى أعرابى فأحببت أن أراه إلا عنترة ..

وتبدأ معلقة عنترة بقوله :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

فلم يترك الشعراء شيئا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه ، وأم ههنا بمعنى بل أعرفت ، ويجوز أن تكون هل ههنا بمعنى قد كقوله عز وجل " هل أتى على الإنسان حين من الدهر .." أى قد أتى . وعن موقفه من الظلم يقول :

وإذا ظلمت فإن ظلمى باسلٌ   مرٌ مذاقتُهُ كطعم العلقم

فإن ظلم وجدت ظلمه كريها مرا كطعم العلقم ، فمن ظلمه عاقبه عقابا بالغا يكرهه كما يكره طعم العلقم إذا ذاقه .

وهو يفتخر بشربه الخمر ، وأن سكره يحمله على محامد الأخلاق ، ويكفه عن المثالب إذ يقول :

فإذا شربت فإننى مستهلك   مالى وعرضى وافر لم يكلم

فلا أشين عرضى إذا شربت ، بل أهلك مالى بجودى ويكون عرضى تاما . وإذا صحوت من سكرى لم أقصر عن جودى ، أى يفارقنى السكر ولا يفارقنى الجود ، يقول :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلى وتكرمى

فهو يفتخر بالجود ووفور العقل إذا لم ينقص السكر عقله . وعن فروسيته وإقدامه وشجاعته فى المعارك و الحروب يخاطب ابنة عمة التى أحبها ،

وحارب من أجلها فيقول لها : هلا سألت الفرسان عن حالى فى قتالى إن كنت جاهلة بها ، وهو يريد بذلك أن يفخر بمكارمه للجميع .

هَلّا سَأَلْتِ الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ... إنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِى

إذْ لَا أزَالُ عَلَى رِحَالَةِ سَابِحٍ ... نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الْكُمَاةُ مُكَلَّمِ

طَوْراً يُجَرَّدُ لِلطِّعَانِ وَتَارَةً ... يَأْوِى إلَى حَصِدِ القِسِىِّ عَرَمْرَمِ

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أنَّنِى ... أغْشَى الوَغَى وَأعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

هلا سألت الفرسان عن حالى إذ لم أزل على سرج فرس سابح تناوب الأبطال فى جرحه ، أى جرحه كل منهم ، ويقول :

مرة أحمل عليه على الأعداء فأحسن بلائى وأنكى فيهم أبلغ نكاية ، ومرة انضم إلى قوم أحكمت قسيهم وكثر عددهم ، فهم رماة مع كثرة عددهم .

فإن سألت الفرسان عن حالى فى الحرب يخبرك من حضر الحرب بأنى كريم عالى الهمة ، آتى الحروب وأعف عن اغتنام الأموال .

فأرَى مَغَانِمَ لَوْ أشَاءُ حَوَيْتُهَا ... فَيَصُدُّنِى عَنْهَا الْحَيَا وَتَكَرُّمِى

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاةُ نِزَالَه ... لَا مُمْعِنٍ هَرَباً وَلَا مُسْتَسْلِمِ

جَادَتْ لَهُ كَفِّى بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ ... بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوَّمِ

بِرَحِيبَةِ الفَرْغَيْنِ يَهْدِى جَرْسُهَا ... بِاللَّيْلِ مُعْتَسَّ الذِّئَابِ الضُّرَّمِ

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأصَمِّ ثِيَابَهُ ... لَيْسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحَرَّمِ

فتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَه ... يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالمِعْصَمِ

وَمِشَكِّ سَابِغَةٍ هَتَكْتُ فُرُوجَهَا ... بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِى الْحَقِيقَةِ مُعْلِمِ

ورب رجل تام السلاح كانت الأبطال تكره نزاله وقتاله لفرط بأسه وصدق مراسه ، لا يسرع فى الهرب إذا اشتد بأس عدوه ، ولا يستكين له إذا صدق مراسه ، جادت له يدى بطعنة عاجلة برمح مقوم صلب الكعوب ، فانتظمت برمحى الصلب ثيابه ، أى طعنته طعنة أنفذت الرمح فى جسمه وثيابه كلها ، ثم قال : ليس الكريم محرما على الرماح ، يريد أن الرماح مولعة بالكرام لحرصهم على الإقدام ، وقيل : بل معناه ان كرمه لا يخلصه من القتل المقدر له ، فصيرته طعمة للسباع كما يكون الجزر طعمة للناس ، ثم قال : تتناوله السباع وتأكل بمقدم أسنانها بنانه الحسن ومعصمه الحسن ، يريد أنه قتله فجعله عرضه للسباع حتى تناولته وأكلته .

يقول : ورب مشك درع ، أى رب موضع انتظام درع واسعة ، شققت أوساطها بالسيف عن رجل حام لما يجب عليه حفظه شاهر نفسه فى حومة الحرب أو مشار إليه فيها ، يريد أنه هتك مثل هذه الدروع عن مثل هذا الشجاع ، فكيف الظن بغيره ؟

رَبِذٍ يَدَاهُ بِالْقِدَاحِ إِذَا شَتَى ... هَتَّاكِ غَايَاتِ التِّجَارِ مُلَوَّمِ

لَمَّا رَآنِى قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُه ... أَبْدَى نَوَاجِذَ لِغَيْرِ تَبَسُّمِ

عَهْدِى بِهِ مَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا ... خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلِمِ

فَطَعَنْتُهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ عَلَوْتُه ... بِمُهَنَّدٍ صَافِى الْحَدِيدَةِ مِخْذَمِ

بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِى سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

يا شَاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ... حَرُمَتْ عَلَيَّ ولَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

فَبَعَثْتُ جارِيَتِى فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبى ... فَتَجَسَّسِى أَخْبَارَهَا لِىَ وَاعْلَمِى

قَالَتْ رَأَيْتُ مِنْ الأَعَادِى غِرَّةً ... وَالشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ

وَكَأَنَّمَا الْتَفَتَتْ بِجِيدِ جَدَايَةٍ ... رَشَاءٍ مِنَ الغِزْلاَنِ حُرٍ أَرْثَمِ

يقول : هتكت الدرع عن رجل سريع اليد خفيفها فى إجالة القداح فى الميسر فى برد الشتاء ، وخص الشتاء لأنهم يكثرون الميسر فيه لتفرغهم له ، وعن رجل يهتك رايات الخمارين ، أى كان يشترى جميع ما عنده من الخمر حتى يقلعوا راياتهم لنفاذ خمرهم ، ملوم على إمعانه فى الجود وإسرافه فى البذل ، وهذا كله من صفة حامى الحقيقة .

ولما رآنى هذا الرجل نزلت عن فرس أريد قتله كشر عن أنيابه غير مبتسم ، أى لفرت كلوحه من كراهية الموت قلصت شفتاه عن أسنانه ، وليس ذلك لتكلم ولا لتبسم ، ولكن من الخوف .

رأيته طول النهار وامتداده بعد قتلى إياه وجفاف الدم عليه كأن بنانه ورأسه مخضوبان بهذا النبت .

طعنته برمحى حين ألقيته من ظهر فرسه ، ثم علوته مع سيف مهند صافى الحديد سريع القطع .

وهو بطل مديد القد كأن ثيابه ألبست شجرة عظيمة من طول قامته واستواء خلقه تجعل جلود البقر المدبوغة بالقرظ نعالاً له ، أى تستوعب رجلاه

السبت ، ولم تحمل أمه معه غيره ، بالغ فى وصفه بالشدة والقوة بامتداد قامته ، وعظم أعضائه وتمام غذائه عند إرضاعه .

ثم يقول : يا هؤلاء : اشهدوا شاة قنص لمن حلت له فتعجبوا من حسنها وجمالها فإنها قد حازت أتم الجمال ، والمعنى : هى حسناء جميلة مقنع لمن كلف بها وشغف بحبها ولكنها حرمت عليه ، وليتها لم تحرم علىّ ، أى ليت أبى لم يتزوجها حتى يحل لى تزوجها ، وقيل أراد بذلك أنها حرمت عليه باشتباك الحرب بين قبيلتيهما ، ثم تمنى بقاء الصلح ، فبعثت جاريتى لتتعرف أحوالها لى ، فقالت جاريتى ، لما انصرفت لى . صادفت الأعادى غافلين عنها ورمى الشاة ممكن لمن أراد أن يرتميها ، يريد أن زيارتها ممكنة لطالبها لغفلة الرقباء والقرناء عنها .

ويقول : كأن التفاتها إلينا فى نظرها التفات ولد ظبية هذه صفته فى نظرها . ثم يقول :

نُبِّئْتُ عَمْراً غَيْرَ شَاكِرِ نِعْمَتِى وَالْكُفْرُ مَخْبَثَة لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ

وَلَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمِّى بِالضُّحَى إِذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَنْ وَضَحِ الْفَمِ

فِى حَوْمَةِ الْحَرْبِ الَّتِى لَا تَشْتَكِى غَمَرَاتِهَا الأَبْطَالُ غَيْرَ تَغَمْغُمِ

إِذْ يَتَّقُونَ بِىَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا وَلَكِنِّى تَضَايَقَ مُقْدَمِى

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِى لَبَانِ الأَدْهَمِ

أعلمت أن عمرا لا يشكر نعمتى ، وكفران النعمة ينفر نفس المنعم عن الإنعام .

ولقد حفظت وصية عمى إياى باقتحامى القتال ومناجزتى الأبطال فى أشد أحوال الحرب وهى حال تقلص الشفاه عن الأسنان من شدة كلوح الأبطال والكمات فرقاً من القتل .

ولقد حفظت وصية عمى فى حومة الحرب التى لا تشكوها الأبطال ألا بجلبة وصياح .

وحين جعلنى أصحابى حاجزاً بينهم وبين أسنة أعدائهم ، أى قدمونى وجعلونى فى نحور أعدائهم ، لم أجبن عن أسنتهم ولم أتأخر ، ولكن قد تضايق موضع أقدامى فتعذر التقدم فتأخرت لذلك .

ولما رأيت جمع الأعداء قد أقبلوا نحونا يحض بعضهم بعضاً على قتالنا عطفت عليهم لقتالهم غير مذمم ، أى محمود القتال غير مومة .

لقد كانوا يدعوننى فى حال إصابة رماح الأعداء صدر فرسى ودخولها فيه ، ثم شبهها فى طولها بالحبال التى يستقى بها من الآبار .

ويستمر فى وصف شجاعته وإقدامه فى المعارك والحروب فيقول :

مَازِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ ... وَلَبانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بِالدَّمِ

فَازْوَرَّمِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ ... وَشَكَى إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ

لَوْكَانَ يَدْرِى مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الكَلَامَ مُكَلِّمِى

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِى وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا ... قِيلُ الفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِى

وَالْخَيْلُ تَقْتَحِمُ الْخَبَارَ عَوَابِسا ... مِنْ بَيْنِ شَيْظَمَةٍ وَأجْرَدَ شَيْظَمِ

ذُلُلٌ رِكَابِي حَيْثُ شِئْتُ مُشَايِعِي ... لُبِّي، وَأَحْفِزُهُ بِأَمْرٍ مُبْرَمِ

إنِّي عَدَانِي أنْ أزُورَكِ فَاعْلَمِي ... مَا قَدْ عَلِمْتُ وَبَعْضُ مَا لَمْ تَعْلَمِي

لم أزل أرمي الأعداء بنحر فرسي حتى جرح وتلطخ بالدم وصار الدم له بمنزلة السربال ، أي عم جسده عموم السربال جسد لابسه . فمال فرسي مما أصابت رماح الأعداء صدره ووقوعها به ، وشكا إلى بعبرته وحمحمته ، أي نظر إلى وحمحم لأرق له ، ولو كان يعلم الخطاب لاشتكى إلى مما يقاسيه ويعانيه ولكلمني لو كان يعلم الكلام . يريد أنه لو قدر على الكلام لشكا إلى مما أصابه من الجراح ، ولقد شفي نفسي وأذهب سقمها قول الفوارس لي : ويلك ياعنترة أقدم نحو العدو واحمل عليه ، يريد أن تعويل أصحابه عليه والتجاءهم إليه شفى نفسه ، ونفى غمه .

والخيل تسير وتجرى في الأرض اللينة التى تسوخ فيها قوائمها بشدة وصعوبة وقد عبست وجوهها لما نالها من الإعياء ، وهي لا تخلو من فرس طويل أو طويلة ، أي كلها طويلة .

إن إبلي تذل لي حيث وجهتها من البلاد ، ويعاونني على أفعالي عقلي وأمضي ما يقتضيه عقلي بأمر محكم .

ويتخوف عنترة من أن يموت ولم تدر الحرب على ابني ضمضم بما يكرهانه وهما حصين وهرم ابنا ضمضم ، اللذان يشتمان عرضه ولم يشتمهما ، والموجبان على أنفسهما سفك دمه ، وهما يتواعدانه حال غيبته ، فأما في حال

الحضور فلا يتجاسران عليه ، وهو لم يستغرب منهما هذه الشتيمة ، فقد قتل أباهما وصيرته جزر السباع وكل نسر مسن .

خَالَتْ رِمَاحُ ابْنِى بَغِيضٍ دُونَكُمْ   وَزَوَتْ جَوَانِى الْحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجْرِمِ

وَلَقَدْ كَرَرْتُ الْمُهْرَ يَدْمِى نَحْرُه   حَتَّى اتَّقَتْنِى الْخَيْلُ بِابْنَى حِذْيَمِ

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ   لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَىْ ضَمْضَمِ

الشَّاتِمَىْ عِرْضِى وَلَمْ أَشْتِمْهُمَا   وَالنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ الْقَهُمَا دَمِى

إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا   جَزَرَ السِّبَاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

الهوامش

* التعاور : التداول ، يقال : تعاوروه ضربا إذا جعلوا يضربونه على جهة التناوب ، وكذلك الاعتوار . الكلم : الجرح ، والكليم التجريح .
* الطور : التارة والمرة ، والجمع الأطوار . العرمرم : الكثير حصد الشئ حصدا إذا استحكم ، والإحصاد : الإحكام .
* الوقعة والوقيعة : اسمان من أسماء الحروب ، والجمع الوقعات والوقائع . الوغى : أصوات أهل الحرب ثم استعير للحرب المغنم والغنم والغنيمة واحد .
* المدجج : التام السلاح . الإمعان : الإسراع فى الشئ والغلو فيه . الاستسلام : الانقياد والاستكانة .
* الصدق : الصلب .
* الشك : الانتظام ، والفعل شك يشك . الأصم : الصلب .

* الجزر : جمع جزرة وهى الشاة التى أعدت للذبح . النوش : التناول والفعل ناش ينوش نوشا . القضم : الأكل بمقدم الأسنان والفعل قضم يقضم .
* المشك : الدرع التى قد شك بعضها إلى بعض ، وقيل مساميرها يشير إلى أنه الزرد ، وقيل : الرجل التام السلاح . الحقيقة : ما يحق عليك حفظه أى يجب . المعلم ، بكسر اللام : الذى أعلم نفسه أى شهرها بعلامة يعرف بها فى الحرب حتى ينتدب الأبطال لبرازه ، والمعلم ، بفتح اللام : الذى يشار إليه ويدل عليه بأنه فارس . الكتيبة وواحد السرية .
* الربذ : السريع . شتا : دخل فى الشتاء ، يشتو شتوا . الغاية : راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه بها . الملوم : الذى ليم مرة بعد أخرى .
* مد النهار : طوله ، العظلم : نبت يختضب به ، العهد : اللقاء ، يقال : عهدته أعهده عهدا إذا لقيته .
* المخذم : السريع القطع .
* السرحة : الشجرة العظيمة ، يحذى : أى تجعل حذاء له ، والحذاء : النعل والجمع الأحذية.
* الشاة : كناية عن المرأة .
* الغرة : الغفلة ، رجل غر غافل لم يجرب الأمور .
* الجداية ، ولد الظبية ، والجمع الجدايا . الرشأ : الذى قوى من أولاد الظباء ، والغزلان جمع الغزال ، الحر من كل شئ : خالصه وجيده . الأدثم : الذى فى شفته العليا وأنفه بياض .
* التنبئة والتنبئ : مثل الأنباء ، وهذه من سبعة أفعال تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، وهى : أعلمت وأريت وأنبأت ونبأت وأخبرت وخبرت وحدثت ، وإنما تعدت

الخمسة التى هى غير أعلمت وأريت إلى ثلاثة مفاعيل لتضمنها معنى أعلمت .

* الوصاة والوصية شئ واحد . وضح الفم : الأسنان . القلوص : التشنج والقصر .

* حومة الحرب : معظمها وهى حيث تحوم الحرب أى تدور ، وغمرات الحرب : شدائدها التى تغمر أصحابها ، أى تغلب قلوبهم وعقولهم . التغمغم : صياح ولجب لا يفهم منه شئ .

* الاتقاء : الحجز بين الشيئين ، يقول : اتقيت العدو بترسى ، أى جعلت الترس حاجزا بينى وبين العدو . الخيم : الجبن . المقدم : موضع الأقدام ، وقد يكون الاقدام فى غير هذا الموضع .

* التذامر : تفاعل من الذمر وهو الحض على القتال .

* الشطن : الحبل الذى يستقى به ، والجمع الأشطان . اللبان : الصدر .

* الثغرة : الرقبة فى أعلى النحر ، والجمع الثغر .

* الازورار : الميل . التحمحم :من صهيل الفرس ماكان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له .

* الخبار : الأرض اللينة . الشيظم : الطويل من الخيل .

* ذلل : جمع ذلول من الذل وهو ضد الصعوبة . الركاب : الإبل ، لا واحد لها من لفظها عند جمهور الأئمة ، وقال الفراء ، إنها جمع ركوب مثل قلوص وقلاص ولقوح ولقاح . المشايعة : المعاونة ، أخذت من الشياع وهو دقاق الحطب لمعاونته النار على الإيقاد فى الحطب الجزل . الحفز : الدفع . الإبرام : الإحكام .

* الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن شر إلى خير ، ثم استعملت فى المكروهة دون المحبوبة .

المعلقة السابعة

الحارث بن حلزة

الحرث بن حلزة

هو الحارث بن حلزة من بنى بكر ، كان شديد الفخر بقومه ، ومعلقته هى السابعة فى المعلقات أنشدها فى حضرة الملك عمرو بن هند ردا على عمرو بن كلثوم وغضبا لقومه ، وفى معلقته سرد للحوادث التاريخية ، وفيها من الحكمة والرزانة ما يجعلها فى مصاف الشعر الخطابى ، وأفضل مثال للشعر السياسى فى العصر الجاهلى ، وقد بدأ معلقته بقوله على عادة الجاهليين :

آذنتنا ببينها أسماء   رُب ثاو يُملُّ منه الثَّوَاءُ

وزعم الأصمعى أن الحارث قال قصيدته هذه وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة . وقال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وطرفة بن العبد . وحلزة بكسر الحاء واللام ، وهو فى اللغة اسم دويبة واسم البومة ، والذكر بدون هاء . ويقال : امرأة حلزة للقصيرة والبخيلة ، والحلز السئ الخلق ، وقال قطرب حكى لنا أن الحلزة ضرب من النبات ، ولم نسمع فيه غير ذلك .

وضرب الحارث المثل فى الفخر فقيل : أفخر من الحارث بن حلزة وكان أبو عمر والشيبانى معجب لارتجال هذه القصيدة فى موقف واحد ، ويقول لو قالها فى حول لم يلم ، وقد جمع فيها ذكر عدة من أيام العرب ، وعاش بعد ذلك مدة وهو معدود من المعمرين ومات وله من السنين مائة وخمسون سنة .

والحارث فارس مقدام وشاعر مجيد ، وسيد من سادات بكر ، كما كان عمرو بن كلثوم سيد تغلب وشاعرها .

وسبب إنشاء الحارث هذه القصيدة أن عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، جمع بين بكر وتغلب وأصلح بينهم ، وأخذ من الحيين رهنا من كل حى مائة غلام ، فكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك الرهن يكونون معه فى سيرة يغزون معه ، فأصابتهم سموم فى بعض سيرهم فهلك عامة التغلبيين وسلم البكريون ، فقالت تغلب لبكر بن وائل : اعطونا دية غلماننا ، فأبت بكر ذلك . فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم ، واجتمعت بكر إلى النعمان بن هرم اليشكرى ، واجتمع الجمع عند الملك عمرو بن هند ، وتشاجر عمرو بن كلثوم والنعمان بن هرم أمام الملك ، فغضب عمرو بن هند ، وكان يؤثر بنى تغلب على بكر ؛ واشتد غضبه على بكر والنعمان صاحبهم ، فقام الحارث بن حلزة وارتجل قصيدته ارتجالا وهو متوكئ على قوسه ، وكان الملك يسمع قصيدة الحارث من وراء حجاب لأنه كان لا يحب رؤية أحد فيه سوء ، وكان الحارث به وضح ، فلما أنشد القصيدة أدناه حتى خلص إليه .. ويقال إن الحارث عندئذ كان طاعنا فى السن ، وكان فوق المائة ، وترى أثر السن ونضوجها وحكمتها وحلمها ووقارها فى القصيدة واضحا جليا ، حيث رد على تغلب فى اناة وهدوء وحملها تبعة الحرب واستدرج عمرو بن هند إلى أن يكون فى جانب قومه فمدحه ومدح قومه ، وبها قضى عمرو لبكر على تغلب ، وأطلق رهنهم وكانوا عدة فتيان من أشراف بكر .

وقد بدأ الحارث قصديته بالغزل ووصف الناقة على عادة الجاهليين ، ثم وصل إلى غرضه من الخصومة بين بكر وتغلب .

وفى المعلقة أبيات لها قيمة كبيرة فى شرح أحداث تاريخية وسياسية من صلح كان بين تغلب وأيام كانت بينها .

ويمتاز الحارث بن حلزة بالبديهة والارتجال وقوة الشاعرية ، وبتعدد فنون الشعر فى معلقته وكثرة غريبها وإحكام نظمها على طولها واشتمالها على كثير من أيام العرب ووقائعها .

يقول فى ملعقته أنه لا يعوقه شئ وعن مرامه ، فهو يركب ناقته فى الحر غازيا :

أَتَلَهَّى بِهَا الهَوَاجِرَ إِذْ كُلُّ أَبْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ
وَأَتَانَا مِنَ الْحَوادِثِ وَالأَنْبَاءِ خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنُسَاءُ
أَنَّ إِخْوَانَنَا الأَرَاقِمَ يَغْلُو نَ عَلَيْنَا فِى قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ
يَخْلِطُونَ آلبَرِئَ مِنَّا بِذِى الذَّنْبِ وَلَا يَنْفَعُ الخَلِىَّ الخَلَاءُ
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مِنْ ضَرَبَ الْعَيْرَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَّا الوَلَاءُ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَصْهَالِ خَيْلٍ خِلَالَ ذَاكَ رُغَاءُ
أَيُّهَا النَّاطِقُ المُرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ
لَا تَخَلْنَا عَلَى غِرَاتِكَ إِنَّا قَبْلُ مَا قَدْ وَشَى بِنَا الأَعْدَاءُ

ولقد أتانا من الحوادث والأخبار أمر عظيم نحن معنيون محزونون لأجله . هو تعدى إخواننا من الأراقم علينا وغلوهم فى عدوانهم علينا فى مقالتهم . هم يخلطون براءنا بمذنبينا فلا تنفع البرئ براءة ساحته من الذنب . إنهم زعموا أن كل من يرضى بقتل كليب وائل بنو أعمامنا وأنا أصحاب ولائهم

تلحقنا جرائرهم ، أو أن من صاد حمر الوحش موالينا ، أو أن كل من ضرب الخيام موالينا ، أو أن كل من صار إلى هذا الجبل موال لنا ، فهم ألزموا العامة جناية الخاصة ، وألزموا العرب جناية بعضنا .

لقد أطبقوا على أمرهم من قتالنا وجدالنا عشاء فلما أصبحوا أجلبوا وصاحوا ، واختلطت أصوات الداعين والمجيبين والخيل والإبل ، يريد بذلك تجمعهم وتأهبهم .

ويقول : أيها الناطق عند الملك الذى يبلغ عنا الملك ما يريبه ويشككه فى محبتنا إياه ودخولنا تحت طاعته ، وانقيادنا لحبل سياسته ، هل لذلك التبليغ بقاء ؟ وهذا استفهام معناه النفى ، أى لا بقاء لذلك لأن الملك يبحث عنه فيعلم أن ذلك من الأكاذيب المخترعة ، والأباطيل المبتدعة .

فهو يريد أن يقول : أيها المضرب بيننا وبين الملك بتبليغك إياه عنا ما يكرهه لإبقاء ما أنت عليه لأن بحث الملك عنه يعرفه أنه كذب بحت محض .

فلا تظننا متذللين متخاشعين لإغرائك الملك بنا ، فقد وشى بنا أعداؤنا إلى الملوك قبلك ، فإن إغرائك الملك لا يقدح فى أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه .

فَبَقِينا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنْمِينا   حُصُونٌ وَعِـزَّةٌ قَـعْسَاءُ

قَبْلَ مَا الْيَوْمَ بَيَّضَتْ بِعُيُونِ   النَّاسِ فِيهَا تَـغَيُّظٌ وإِبَاءُ

وكَأَنَّ الْمَنُونَ تَرْدِى بِنا أَرْ   عَنَ جَوْناً يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَمَاءُ

مُكْفَهِرّاً عَلَى الحَوادِثِ لا تَرْ   تُوهُ لِلدَّهْرِ مُؤْيِدٌ صَمَّاءُ

إِرَمِـيٌّ بِمِثْلِهِ جَـالَتِ الجِنُّ فَـآبَتْ لِخَـصْمِهَا الأَجْـلاءِ

مَـلِكٌ مُـقْسِطٌ وأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِي ومِـنْ دُونِ مَـا لَـدَيْهِ الثَّنَاءُ

أَيَّمَا خُـطَّـةٍ أَرَدْتُمْ فَـأَدُّو هَا إِلَيْنا تَـمْشِي بِـهاالأَمْـلاءُ

إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةَ فَالصَّا قِبِ فِيـهِ الأَمْـواتُ والأَحْـيَـــاءِ

أَوْ نَـقَشْتُمْ فَـالنَّقْشُ يَجْشَمُهُ النَّا سُ وفِيـهِ الصِّـلاحُ والإِبْـراءُ

فبقينا عن بعض الناس إيانا وإغرائهم الملوك نبا ترفع شأننا وتعلى حصون منيعة وعزة ثابته لا تزول ، فقد أعمت عزتنا قبل يومنا الذى نحن فيه عيون أعدائنا من الناس ، يريد أن الناس يحسدوننا على إباء عزتنا على من كادها وتغيظها على من أرادها بسوء حتى كأنهم عموا عند نظرهم إلينا لفرط كراهيتهم ذلك وشدة بغضهم إيانا ، وجعل التغيظ والإباءللعزة مجازا وهما عند التحقيق لهم .

وكأن الدهر برميه لنا بمصائبه يرمى جبلا أرعن أسود ينشق عنه السحاب ، أى يحيط به ولا يبلغ أعلاه ، يريد أن نوائب الزمان وطوارق الحدثان لا تؤثر فيهم ، ولا تقدح فى عزهم كما لا تؤثر فى مثل هذا الجبل الذى لا يبلغ السحاب أعلاه لسموه وعلوه ، فيشتد ثباته على إختلاف الحوادث لا ترخيه ولا تضعفه داهية قوية شديدة من دواهى الدهر. ونحن فى مثل هذا الجبل فى المنعة والقوة ؛ فحسبنا إرمى ؛ قديم الشرف بمثلنا ينبغى أن تجول الخيل وأن تأبى لخصمها أن يجلى صاحبها عن أوطانه ، يريد أن مثله يحمى الحوزة ، ويزب عن الحريم .

إنه ملك عادلوهو أفضل ماسن على الأرض أى أفضل الناس والثناء قاص عنا عنده .

ويقول : فوضوا إلى آرائنا كل خصومة أردتم تشفى بها جماعات الأشراف والرؤساء بالتخلص منها إذ لا يجدون عنها مخلصا ، يريد أنهم أولو وأى وحزم يشفى به ويسهل عليهم مايتعذر على غيرهم من الأشراف فى فصل الخصومات ، والقضاء فى المشكلات .

إن بحثتم عن الحروب التى كانت بيننا وبين هذين الموضوعين وجدتم قتلى لم يثأر بها وقتلى تثر بها ، فسمى الذين لم يثأر بهم أمواتا والذين تثر بهم أحياء لما قتل بهم من أعدائهم كأنهم عادوا أحياء إذ لمتذهب دمائهم هدرا ، يريد أنهم ثأروا بقتلاهم ، وتغلب لم تأثر بقتلاهم . فإن استعصيتم فى ذكر ما جرى بيننا من جدال وقتال فهو شئ قد يتكفله الناس ، ويتبين فيه المذنب من البرئ ، كنى بالقسم عن الذنب وبالبرة عن براءة الساحه ، يريد أن الاستقصاء فيها ذكر يبين براءتنا من الذنب والذب ذنبكم .

أوْ سَكَتُّمْ عَنّا فَكُنّا كَمَنْ أغمَـــضَ	عَيْنا فـي جَفْنِها أقْـــــذاءُ
أوْ مَنَعْتُمْ مَا تُسْألُونَ فَمَــــنْ	حُدِّثْتُمُوه لَــهُ عَلَيْنا العَــلاءُ
هَلْ عَلِمْتُــمْ أيّام يُنْتَهَبُ النّـــاسُ	غِـوارا لِكُــــلِّ حَـيٍّ عُـــواءُ
إذْ رَكِبْنا الجِمالَ مِنْ سَعَفِ البَحْرَيْنِ	سَيْـــرا حَتَّـــى نَهاهَا الحِساءُ
ثُمَّ مِلْنَـــا عَلَى تَميمٍ فَأحْرَمْنـا	وفِينَـا بَنَـــاتُ قَـــوْمٍ إمـاءُ
لا يُقِيــمُ العَزِيـــزُ بِـالبَلَدِ السَّهْلِ	ولا يَنْفَـــعُ الذَّلِيـلَ النَّجـاءُ

لَيْسَ يُنْجِي مُوائِلا مِنْ حِذارٍ … رَأسُ طَوْدٍ وحَرَّةٌ رَجْلاءُ

فَمَلَكْنا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى … مَلَكَ المُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّماءُ

مَلِكٌ أضْرَعَ البَرِيَّةَ لا يُوجَدُ … فِيها لِما لَدَيْهِ كِفاءُ

وإن أعرضتم عن ذلك أعرضنا عنكم مع إضمارنا الحقد عليكم كمن أغضى الجفون على القذى . وإن منعتم ما سألناكم من المهادنة والموادعة فمن الذى حدثتم عنه أنه عزنا وعلانا ، أى فأى قوم أخبرتم عنهم أنهم فضلونا ، أى لا قوم أشرف منا ، فلا نعجز عن مقابلتكم بمصل صنيعكم . وقد علمتم غناءنا فى الحروب وحمايتنا أيام إغارة الناس بعضهم على بعض وخجيجهم وصياحهم إلم بهم من الغارات ، ويقول :

حين رفعنا جمالنا على أشد السير حتى سارت من البحرين سيرا شديدا إلى أن بلغت هذا الموضع الذى يعرف بالحساء ، أى طوينا مابين هذين الموضعين سيرا وإغارة على القبائل فلم يكفنا شئ عن مرامنا حتى انتبهينا إلى الحساء ، ثم ملنا من الحساء فأعزنا على بنى تميم ، ثم دخل الشهر الحرام وعندنا سبايا القبائل قد استخدمناهن فبنات الذين أعزنا عليهم كن إماء لنا . وحين كان الأحياء الأعزة يتحصنون بالحبال ولا يقيمون بالبلاد السهلة ، والأذلاء كان ر ينفعهم إسراعهم فى الفرار ، يريد أن الشر كان منا شاملا عاما لم يسلم منه العزيز ولا الذليل . ولم ينج الهارب منا تحصنه بالجبل ، ولا بالحرة الغليظة الشديدة . ثم يقول :

هو ملك ذلك وقهر الخلق فما يوجد من يساوية فى معاليه . ويقول :

ما أصابُوا مِنْ تَغْلِبِيٍّ فمطلُولٌ	عَلَيْهِ إذا أصِيبَ العَفاءُ
كتكاليفِ قَوْمِنا إذْ غزا المُنْذِرُ	هَلْ نَحْنُ لابْنِ هِنْدٍ رِعاءُ
إذْ أحَلَّ العَلْياءَ قُبَّةَ مَيْسُونَ	فأدْنى دِيارَها العَوْصاءُ
فتأوَّتْ لَهُ قَراضِبَةٌ مِنْ	كُلِّ حَيٍّ كأنَّهُمْ ألْقاءُ
فَهَداهُمْ بالأسْوَدَيْنِ وأمْرُ اللهِ	بَلْغٌ تَشْقى بِهِ الأشْقِياءُ
إذْ تَمَنَّوْنَهُمْ غُرُورا فساقَتْهُمْ	إلَيْكُمْ أمْنِيَّةٌ أشْراءُ
لَمْ يَغُرُّوكُمْ غُرُورا ولكِنْ	رَفَعَ الآلُ شَخْصَهُمْ والضَّحاءُ
أيُّها النَّاطِقُ المُبَلِّغُ عَنَّا	عِنْدَ عَمْرٍو وهَلْ لِذاكَ انْتِهاءُ

ماقتلوا من بنى تغلب أهددت دماؤهم حتى كأنها غطيت بالتراب ودرست . يريد أن دماء بنى تغلب تهدد ودمائهم لا تهدد بل يدركون ثأرهم ، ويقول : هل قاسيتم من المشاق والشدائد ماقاسى قومنا حين غزا منذر أعداءه فى محاربهم ؟

وقد ذكر أنهم نصروا الملك حين لم ينصره بنو تغلب وغيرهم بأنهم رعاء الملك ، وقومه يأنفون ذلك . وإنما كان هذا حين أنزل الملك قبة هذه المرأة علياء وعوصاء التى هى أقرب ديارها إلى الملك .

وقد تجمعت له لصوص خبثاء كأنهم عقبان لقوتهم وشجاعتهم ، ويقول : وكان يتقدمهم ومعه زادهم من الماء والتمر فقاد هذا المعسكر ، وأمر الله بالغ مبالغة يشقى به الأشقياء فى حكمه وقضائه ، ويقول : حين تمنيتم قتالهم إياكم

ومصيرهم إليكم اغترارا بشركتكم وعدتكم فساقتهم إليكم أمنيتكم التى كانت مع البطر . فلم يفاجئوكم مفاجأة ، ولكن أتوكم وأنتم ترونهم خلال السراب حتى كأن السراب يرفع أشخاصهم لكم .

فيا أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو بن هند الملك ألا تنتهى عن تبليغ الأخبار الكاذبة عنا ؟

ويستمر الشاعر فى وصفه لقوته وشجاعته وعزة قومه :

مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيرِ آيَا ... تٌ ثَلاثٌ فِى كُلِّهِنَّ الْقَضَاءِ

آيَةٌ شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا ... ؤُا جَمِيعاً لِكُلِّ حَىٍّ لِوَاءُ

حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِينَ بِكَبْشٍ ... قَرَظِىٌّ كَأَنَّهُ عَبْلَاءُ

وَصَتِيتٍ مِنَ الْعَوَاتِكِ لا تَنْهَـ ... ـاهُ إِلَّا مُبْيَضَّةٌ رَعْلَاءُ

فَرَدَدْنَاهُمُ بِطَعْنٍ كَمَا يَخْرُ ... جُ مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءُ

وَحَمَلْنَاهُمُ عَلَى حَزْمِ ثَهْلا ... نَ شِلَالاً وَدُمِّىَ الْأَنْسَاءُ

وَجَبَهْنَاهُمُ بِطَعْنٍ كَمَا تُهْزُ ... فِى جَمَّةِ الطَّوِىِّ الدِّلَاءُ

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللهُ ... وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

هو الذى لنا عنده ثلاث آيات ، أى ثلاث دلائل من دلائل غنائنا وحسن بلائنا فى الحروب والخطوب ، يقضى لنا على خصومنا فى كلها ، أى يقضى الناس لنا بالفضل على غيرنا فيها . إحداها شارق الشقيقة حين جاءت معد

بألويتها وراياتها ، وأراد بشارق الشقيقة : الحرب التى قامت بها . جاءت مع راياتها حول قيس متحصنين بسيد من بلاد القرظ ، وبلاد القرظ : اليمن ، كأنه فى منعته وشكوته هضبة من الهضاب ، يريد أنهم كفوا عادية قيس وجيشه عن عمرو بن هند . والثانية جماعة من أولاد الحرائر الكرام الشواب لا يمنعها عن مرامها ، ولا يكفها عن مطالبها إلا كتيبة مبيضة ببياض دروعها وبيضها عظيمة ممتدة ، وقيل : بل معناه إلا سيوف مبيضة طوال ، وقوله : من العواتك ، أى من أولاد العواتك .

لقد رددنا هؤلاء القوم بطعن خرج الدم من جراحه خروجه من أفواه القرب وثقوبها ، وألجأناهم إلى التخلص والتحصن بغلظ هذا الجبل والالتجاء إليه فى مطاردتنا إياهم ، وأدمينا أفخاذهم بالطعن والضرب . منعناهم أشد منع وأعنف ردع ، فتحركت رماحنا فى أجسامهم كما تحرك الدلاء فى ماء البئر المطوية بالحجارة . وفعلنا بهم فعلا بليغاً لا يحيط به علما إلا الله ، ولا دماء للمتعرضين للهلاك أو الهالكين ، أى لم يطلب بثأرهم ودمائهم .

ويستمر الشاعر فى هذا العرض وذلك الوصف فى أبياته فيقول : ثم قاتلنا بعد ذلك حجر بن أم قطام ، وكانت له كتيبة فارسية خضراء لما ركب دروعها وبيضها من الصدإ . وقيل : بل أراد وله دروع فارسية خضراء لصدئها :

ثُمَّ حُجْراً اعْنِى ابْنَ أمّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضْرَاءُ

أَسَدٌ فِى اللّقَاءِ وَرْدٌ هَمُوسٌ وَرَبِيعٌ إنْ شَمَّرَتْ غَبْرَاءُ

وَفَكَكْنَا غُلَّ امْرِئِ الْقَيْسِ عَنْه بَعْدَ مَا طَالَ حَبْسُهُ وَالْعَنَاءُ

وَمَعَ الْجَوْنِ جَوْنِ آلِ بَنِى الأَوْ سِ عَنُودٌ كَأَنَّهَا دَفْوَاءُ

مَا جَزِعْنَا تَحْتَ الْعَجَاجَةِ إِذْ وَلَّوْا شِلالا وَإِذْ تَلَظَّى الصِّلاءُ

وَأَقَدْنَاهُ رَبُّ غَسَّانَ بِالْمُنْذِ رِ كَرْهًا إِذْ لا تُكَالُ الدِّمَاءُ

وَأَتَيْنَاهُمُ بِتِسْعَةِ أَمْلا كٍ كِرَامٍ أَسْلابُهُمْ أَغْلاءُ

وَوَلَدْنَا عَمْرَو بْنَ أُمِّ أُنَاسٍ مِنْ قَرِيبٍ لَمَّا أَتَانَا الْحِبَاءُ

مِثْلُهَا يُخْرِجُ النَّصِيحَةَ لِلْقَوْمِ فَلاةٌ مِنْ دُونِهَا أَفْلاءُ

كأن حجرا أسدا فى الحرب بهذه الصفة ، وكان الناس بمنزلة الربيع إذا تهيأت واستعدت السنة الشديدة للشر ، يريد أنه كان ليث الحرب غيث الجدب . وكانت مع الجون كتيبة شديدة العناد كأنها فى شوكتها وعدتها هضبة دفئة . والجون الثانى بدل من الأول ، والأول فى التقدير محذوف كقوله تعالى : " لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات " إننا ما جزعنا تحت غبار الحرب حين تولوا فى نار الحرب وحين تولوا فى حال الطراد ، وأعطيناه ملك غسان قودا بالمنذر حين عجز الناس عن الاقتصاص وإدراك الآثار ، وجعل الدماء مستعارا للقصاص ، وهذه هى الآية الثالثة .

وأتيناهم بتسعة من الملوك وقد أسرناهم ، وكانت أسلابهم غالية الأثمان لعظم أخطارهم وجلالة أقدارهم . وولدنا هذا الملك بعد زمان قريب لما أتانا الحباء ، أى زوجنا أمه من أبيه لما أتانا مهرها ، يريد إنا أخوال هذا الملك . ثم يقول : مثل هذه القرابة تستخرج النصيحة للقوم الأقارب قربى أرحام يتصل

بعضها ببعض كفلوات يتصل بعضها ببعض . والمعنى : أن مثل هذه القرابة التى بيننا وبين الملك توجب النصيحة له إذ هى أرحام مشتبكة .

فَاتْرُكُوا الطَّيْخَ وَالتَّعَاشِى وَإِمَّا ... تَتَعَاشَوْا فَفِى التَّعَاشِى الدَّاءُ

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِى الْمَجَازِ وَمَا ... قُدِّمَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكُفَلاءُ

حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّى وَهَلْ يَنْقُضُ ... مَا فِى الْمَهَارِقِ الأَهْوَاءُ

وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِيمَا ... اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءُ

عَنَناً بَاطِلاً وَظُلْماً كَمَا تُعْتَرُ ... عَنْ حَجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّبَاءُ

أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَن ... يَغْنَمَ غَازِيهِمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ

أم عَلَيْنَا جَرَّى إِيَادٍ كَمَا ... قِيلَ لِطَسْمٍ أَخُوكُمُ الأَبَاءُ

لَيسَ مِنَّا الْمُضَرَّبُونَ وَلا قَيسٌ ... وَلا جَنْدَلٌ وَلا الْحَذَّاءُ

أم جَنَايَا بَنِي عَتِيقٍ فَمَنْ يَغْدِ ... رْ فَإِنَّا مِنْ حَرْبِهِمْ بُرَآءُ

أم عَلَيْنَا جَرَّى إِيَادٍ كَمَا ... نِيطَ بِجَوزِ الْمُحَمَّلِ الأَعبَاءُ

وَثَمَانُونَ مِن تَمِيمٍ بِأَيدِ ... يهِم رِمَاحٌ صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ

فاتركوا التكبر وإظهار التجبر والجهل وإن لزمتم ذلك ففيه الداء يعنى أفضى بكم ذلك إلى شر عظيم . واذكروا العهد الذى كان منا بهذا الموضوع وتقديم الكفلاء فيه . وإنما تعاقدنا هناك حذر الجود والتعدى من إحدى القبيلتين

فلا ينقض ما كتب فى المهارق الأهواء الباطلة ، يريد أن ما كتب فى العهود لا تبطله أهواؤكم الضالة .

واعلموا أننا وإياكم فى تلك الشرائط التى أوثقناها يوم تعاقدنا مستوون .

ألزمتمونا ذنب غيرنا عننا باطلا كما يذبح الظبى لحق وجب فى الغنم .

أفعلينا ذنب كندة أن يغنم غازيهم منكم ومنا يكون جزاء ذلك ، أم علينا جناية إياد ؟ ثم قال : ألزمتونا ذلك كما تعلق الأثقال على وسط البعير المحمل .

هؤلاء المضربون ليسوا منا ، عيرهم بأنهم منهم ، ويقول : أم علينا جناية بنى عتيق ، ثم قال : إن نقضتم العهد فإنا برآء منكم وغزاكم ثمانون من تميم بأيديهم رماح أسنتها القتل أى القاتلة .

ثُرَكُوهُم مُلَحْبِينَ وَآبُو	بِنِهَابٍ يَصَمُّ مِنهَا الحُدَاءُ
أم عَلَينَا جَرَّى حَنِيفَةَ أو مَا	جَمَّعَت مِن مُحَارِبٍ غَبرَاءُ
أم عَلَينَا جَرَّى قُضَاعَةَ أم	لَيسَ عَلَينَا فِي مَا جَنَوا أندَاءُ
ثُمَّ جَاؤوا يَستَرجِعُونَ فَلَم تَرْ	جِع لَهُم شَامَةٌ وَلا زَهرَاءُ
لَم يُخَلَّوا بَنِي رِزَاحٍ بِبَرقَا	ءِ نِطَاعٍ لَهُم عَلَيهِم دُعَاءُ
ثُمَّ فَاؤوا مِنهُم بِقَاصِمَةِ الظَّهرِ	وَلا يَبرُدُ الغَلِيلَ المَاءُ
ثُمَّ خَيلٌ مِن بَعدِ ذَاكَ	مَعَ الغَلَّاقِ لا رَأفَةٌ وَلا إبقَاءُ
وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَومِ	الحِيَارَينِ وَالبَلاءُ بَلاءُ

يقول : تركت بنى تميم هؤلاء القوم مقطعين بالسيوف وقد رجعوا إلى بلادهم مع غنائم يصم حداء حداتها آذان السامعين ، أشار بذلك إلى كثرتها .

ويقول : أم علينا جناية بنى حنيفة أم جناية ما جمعت الأرض أو السنة الغبراء من محارب . أم علينا جناية قضاعة ؟ بل ليس علينا فى جنايتهم ندى ، أى لا تلزمنا ولا تلحقنا تلك الجناية . ويقول : ثم جاؤا يسترجعون الغنائم فلم ترد عليهم شاة زهراء ، أى بيضاء ، ولا ذات شامة .

هذه الأبيات كلها تعبير لهم وإبانة عن تعديهم وطلبهم المحال لأن مؤاخذة الإنسان بذنب غيره ظلم صراح .

ويقول : ما أحل قومنا محارم هؤلاء القوم ، وما كان منهم دعاء على قومنا ، يعيرهم بأنهم أحلوا محارم هؤلاء القوم بهذا الموضع فدعوا عليهم ، ثم انصرفوا منهم بداهية قصمت ظهروهم وغليل أجواف لا يسكنه شرب الماء لأنه حرارة الحقد لا حرارة العطش ، يريد أنهم فاؤا وقتلوا ولم يثأروا بقتلاهم ويقول : ثم جاءتكم خيل من الغلاف فأغارت عليكم ولم ترحمكم ولم تبق عليكم .

وهو الملك والشاهد على حسن بلائنا يوم قتالنا بهذا الموضع والعناء عناء ، أى قد بلغ الغاية ، ويريد عمرو بن هند فإنه شهد عناءهم هذا ... والله سبحانه وتعالى أعلم .

الهوامش

* الأراقم : بطون من تغلب ، سموا بها لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم . الغلو : مجاوزة الحد . الاحفاء : الإلحاح .
* يريد بالخلى : البرئ الخالى من الذنب .
* العير فى هذا البيت يفسر بالسيد ، والحمار ، والوتد ، والقذى ، وجبل بعينه .

* الضوضاء : الجلبة والصياح . إجماع الأمر : عقد القلب وتوطين النفس عليه .

* التصهال كالصهيل ، وتفعال لا يكون إلا مصدرا ، وتفعال لا يكون إلا إسما .

* الغراة : اسم بمعنى الإغراء . على غراتك ، أى على امتداد غراتك .

* الشناءة : البغض . تنمينا : ترفعنا .

* الباء فى بعيون زائدة ، أى بيضت عيون الناس ، وتبييض العين كناية عن الإعماء ، وما فى قوله : قبل ما ، صلة زائدة .

* الردى : الرمى ، والفعل منه ردى يردى . قوله : بنا ، أى تردينا . الأرعن : الجبل الذى له رعن . الجون : الأسود والأبيض جميعا والجمع الجوُن ، والمراد به الأسود فى البيت . الإنجياب : الانكشاف والانشقاق . العماء : السحاب .

* الاكفهرار : شدة العبوس والقطوب . الرتو : الشد والإرخاء جميعا وهو من الأضراد ، ولكنه فى البيت بمعنى الإرخاء . المؤيد : الداهية العظيمة ، مشتقة من الأيد والآد وهما القوة . الصماء : الشديدة ، من الصمم الذى هو الشدة والصلابة ، والبيت من صفة الأرعن .

* إرم : جد عاد ، وهو عاد بن عوض بن إرم بن سام .

* الإقساط : العدل .

* الخطة : الأمر العظيم الذى يحتاج إلى مخلص منه . أدوها أى فوضوها . الأملاء : الجماعات من الأشراف ، الواحد ملأ لأنهم يملأون القلوب والعيون جلالة وجمالا .

* الأقذاء : جمع قذى ، والقذى جمع قذاة .

* الغوار : المغاورة . العواء : صوت الذئب ونحوه ، وهو هنا مستعار للضجيج والصياح .
* السعف : أغصان النخلة والواحدة سعفة . قوله : سيرا ، أى فسارت سرا فحذف الفعل لدلالة المصدر عليه . الحساء : موضع بعينه .
* أحرمنا : أى دخلنا فى شهر الحرام .
* النجاء ، ممدودا ومقصورا ، الإسراع فى السير .
* وأل وواءل أى هرب وفزع . الرجلاء : الغليظة الشديدة .
* أضرع : ذلل وقهر ، ومنه قولهم فى المثل : الحمى أضرعتنى لك . الكفاءة والمكافأة : المساواة .
* التكاليف : المشاق والشدائد .
* طل دمه وأطل : أهدر . العفاء : الدروس ، وهو أيضا التراب الذى يغطى الأثر .
* ميسون : امرأة .
* القرضوب والقرضاب : اللص الخبيث ، والجمع القراضية . التأوى : التجمع . الألقاء : جمع لقوة وهى العقاب .
* الأسودان : الماء والتمر . هداهم ، أى تقدمهم .
* الأشر : البطر ، والأشراء : البطرة .
* الآل : ما يرى كالسراب فى طرفى النهار . الضحاء : بعيد الضحى .
* الشقيقة : أرض صلبة بين رملتين ، والجمع شقائق . الشروق : الطلوع والإضاءة .

* أراد قيس بن معد يكرب من ملوك حمير . الاستلئام : ليس اللأمة وهى الدرع . القرظ : شجر يدبغ به الأديم . الكبش : السيد ، مستعار له بمنزلة القرن . العبلاء : هضبة بيضاء .
* الصتيت : الجماعة . العواتك : الشواب . الحرائر : الخيار من النساء . الرعلاء : الطويلة الممتدة .
* خربة المزاد : ثقبها ، والمزاد جمع مزادة وهى زق الماء خاصة .
* الحزم : أغلظ من الحزن . شهلال : جبل بعينه . الشلال : الطراد . الأنساء : جمع النسا وعرق معروف فى الفخذ . التدمية والإمعاء : اللطخ بالدم .
* الجبة : أعنف الردع ، والفعل جبه يجبه . النهز : التحريك . الجمة : الماء الكثير المتجمع . الطوى : البئر التى طويت بالحجارة أو اللبن .
* حان : تعرض للهلاك ، وحان : هلك ، يحين حين .
* الورد : الذى يضرب لونه إلى الحمرة . الهمس : صوت القدم . وجعل الأسد هاموسا لأنه يسمع من رجليه فى مشيه صوت . شمرت : استعدت . الغبراء : السنة الشديدة لاغبرار الهواء فيها .
* العجاجة : الغبار . تلظى : تلهب . الصلاء والصلى : مصدر صلية بالنار أصلى إذا نالك حرها .
* أقدته : أعطيته القود .
* الأسلاب : جمع السلب وهوة الثياب والسلاح والفرس .
* الفلاة : تجمع على الفلا ثم تجمع الفلا على الافلاء .
* الطبخ : التكبر . التعاشى : التعامى ، وهما تكلف العمى والعشى ممن ليس به عشى وعمى وكذلك التفاعل إذا كان بمعنى التكلف .

* ذو المجاز : موضع جمع به عمرو بن هند بكرا وتغلب وأصلح بينهما وأخذ منهما الواثائق والرهون .
* المهارق : جمع المهرق ، وهو فارسى معرب ، يأخذون الحزقة ويتلونها بشئ ثم يصقلونها ثم يكتبون عليها شيئا ، والمهرق معرب مهر كره .
* العنن : الاعتراض ، والفعل عن يعن . العتر : ذبح العتيرة وهى ذبيحة كانت تذبح للأصنام فى رجب . الحجرة : الناحية ، والجمع الحجرات ، وقد كان الرجل ينذر أن بلغ الله غنمه مائة ذبح منها واحدة للأصنام ثم ربما ضنت نفسه بها فأخذ ظبيا وذبحه مكان الشاه الواجبة عليه .
* الجناح : الإثم .
* الجراء والجرئ ، بالمد والقصر : الجناية . النوط : التعليق . الجوز : الوسط ، والجمع الأجواز . العبء : الثقل .
* التلحيب : التقطيع . الأوب والإياب : الرجوع .
* أحللته : اى جعلته حلالا .
* الفئ : الرجوع ، والفعل فاء يفئ .

المعلقة الثامنة

الأعشى

الأعشى

هو الأعشى ميمون بن قيس ، وهو أحد فحول أهل الجاهلية . عده ابن سلام فى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، وقرنه بامرئ القيس وزهير والنابغة ، وكان أهل الكوفة يقدمونه عليهم وسئل يونس بن حبيب النحوى : من أشعر الناس ؟ فقال : لا أومئ إلى رجل بعينه ، ولكن أقول : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب . وكانوا يسمون الأعشى صناجة العرب لجودة شعره .

وكان لأعشى جاهليا قديما وأدرك الإسلام فى آخر عمره ورحل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى صلح الحديبية فبلغ قريشا خبره فرصدوه على طريقه وقالوا : هذا صناجة العرب ، ما مدح أحدا قط إلا رفع قدره ، فلما ورد عليهم قالوا : ماذا أردت يا أبا بصير قال : أردت صاحبكم هذا لأسلم .قالوا : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك . قال : وما هن ؟ قال أبو سفيان بن حرب : " الزنا " قال : لقد تركنى الزنا وما تركته . ثم ماذا ؟ قال : " القمار " قال : لعلى إن لقيته أن أصيب منه عوضا من القمار . ثم ماذا ؟قال : " الربا " قال : ما دنت ولا أدنت ، قال : ثم ماذا ؟ قالوا : " الخمر " قال : أوه أرجع إلى صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها . فقال له أبو سفيان : هل لك فى خير مما هممت به ؟ فقال ترجع سنتك هذه ، وتنظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا ، وإن ظهر علينا أتيته ..

فقال : ما أكره ذلك ، فقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، هذا الأعشى ، والله لئن أتى محمدا وأتبعه ليضرمن عليكم نار العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل . ففعلوا ، فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به

بعيره فقتله ، وكان قد قال قصيدة يمدح بها النبى - صلى الله عليه وسلم - مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

وروى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال فى حقه " كاد ينجو ولما " وكان الأعشى قدريا يقول :

استأثر الله بالوفاء والعذ ل وولى الملامة الرجلا

قالوا : إن العباديين لقنوه ذلك بالحيرة لأنهم كانوا نصارى ، وكان يشترى منهم الخبز ، وكان الأعشى يفد على ملوك العرب وملوك فارس ، ولذلك كثرت الفارسية فى شعره .

وقد كانت العرب ممن أقام على دين إسماعيل والقول بالأنبياء ، قالوا والأعشى ممن اعتزل وقال : بالعدل فى الجاهلية ، ومن ذلك قوله : استأثر الله بالوفاء وبالعدل .

وسلك الأعشى فى شعره كل مسلك ، وقال فى أكثر أعاريض كلام العرب ، وليس ممن تقدم من فحول الشعراء أحدا أكثر شعرا منه ، وكانت العرب لا تعد الشاعر فحلا حتى يأتى ببعض الحكمه فى شعره .

يذكر بعض العلماء أن معلقة الأعشى هى قصيدته :

ودع هريرة إن الركب مرتحل و هل تطيق وداعاً أيها الرجل

وبعضهم يجعل معلقته هى مدحته للرسول - صلى الله عليه وسلم -

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مهدا

وما ذاك من عشق النساء وإنما	تناسيت قبل اليوم حلة مهددا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن	إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
شباب وشيب وافتقار وثروة	فلله هذا الدهر كيف ترددا
فآليت لا أرثى لها من كلالة	ولا من حفى حتى تزور محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم	تراخى وتلقي من فواضله يدا
نبي يرى ما لا يرون وذكره	أغار لعمرى في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل	وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

وهى قصيدة رائعة أوردها ابن هشام فى كتاب السيرة وطبعها العلامة ووستنفيلد ، المستشرق الألمانى ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠ فى عوتنجن .

ومن شعر الأعشى قصيدته اللامية المعروفة من المعلقات التى يقول منها :

وَبَلدَةٍ مِثْلِ ظهر التُرْسِ مُوحِشَـــــةٍ	للجِنّ بِالليْلِ فِى حَافَاتِهَا زَجَلُ
لاَ يَتَمَنّى لهَا بِالقَيْظِ يَرْكَبُهَا	إلاّ الذِينَ لَهُمْ فِيمَا أتَوْا مَهَلُ
جَاوَزْتُهَا بِطَلِيحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ	فِي مِرْفَقَيهَا إذَا استَعرَضْتَها فَتَلُ
بَل هَلْ تَرَى عَارِضاً قَدْ بِتُّ أرْمُقُه	كَأنّمَا البَرْقُ فِي حَافَاتِهِ الشّعَلُ
لَهُ رِدَافٌ ، وَجَوْزٌ مُفْأَمٌ عَمِلٌ	مُنَطَّقٌ بِسِجَالِ المَاءِ مُتّصِلُ

يبدأ الشاعر بهذه الأبيات حديثه عن الجانب الجاد من الحياة بعد أن أعلن تجربته فيها ، فيصف رحلته فى الصحراء تعبيرا عن جانب آخر من جوانب الحياة الجاهلية ذات الفتوة والصبر والإقدام فيقول جبت بلدة مثل ظهر الترس فى وعورتها ووحشتها وعدم استوائها ، وهذه البلدة الوعرة الموحشة لا يستطيع أحد أن يرتفع إليها إلا الذين لهم خبرة ودراية ومعرفة بوسائل الاستعداد لها ، فهو يصف نفسه ويصف ناقته التى ركبها فى اختراقه هذه الصحراء الوعرة ، والناقة وسيلة العرب فى حياتهم الجاهلية ولا غناء عنها فى وصفها فى قصائدهم .

ثم ينتقل الأعشى من هذا الوصف إلى شئ مهم فى حياتهم الطبيعية فيصف البرق الذى لاح له فى الصحراء أثناء رحلته - والعربى عليم بأحوال الأرصاد الجوية فى هذه الصحراء ، فهو يشبه البرق وهو يلمع فى حافات السحاب بشعل النار التى تتوهج فى الظلام .

سحاب يتقدم من خلف سحاب كأنه رديف له : ويستمر فى الوصف :

لَمْ يُلْهِنِي اللَّهْوُ عَنْهُ حِينَ أَرْقُبُه ... وَلا اللَّذَاذَةُ مِنْ كَأسٍ وَلا شُغُلْ

فَقُلْتُ للشَّرْبِ فِي دُرْنَى وَقَدْ ثَمِلُوا ... شِيمُوا وَكَيفَ يَشِيمُ الشَّارِبُ الثَّمِلُ

قَالُوا نِمَارٌ فَبَطنُ الخَالِ جَادَهُمَا ... فَالعَسْجَدِيَّةُ فَالأَبْلاءُ فَالرِّجَلُ

فَالسَّفْحُ يَجري فَخِنْزِيرٌ فَبُرْقَتُه ... حَتَّى تَدَافَعَ مِنْهُ الرَّبْوُ ، فَالجَبَلُ

حَتَّى تَحَمَّلَ مِنْهُ المَاءَ تَكْلِفَةً ... رَوْضُ القَطَا فَكَثِيبُ الغَينَةِ السَّهِلُ

وهو هنا فى مطلع هذه الأبيات يعكس فتنته بالطبيعة التى لم يشغله عنها لهوه ولا لذته ، وهو يدعو إلى النظر إلى البرق وأن يقدروا أين يسقطمطره ، ثم هو بعد ذلك يحدد أسماء المواضع فى المنطقة الواسعة الممتدة بينها التى أصابها السيل ، ويقول : إن هذه المواضع تحملت من السيل مياها غزيرة لا تكاد تطيقها ، وأصبحت هذه الديار هدفا للأمطار التى أصابتها ، وازور عنها الناس لعزة أهلها ومنعتهم .

يَسقِي دِيَاراً لَهَا قَدْ أَصْبَحَتْ غَرَضا زُوراً تَجَانَفَ عَنهَا القَوْدُ وَالرَّسَلُ

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَألُكَةً أَبَا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنفَكُّ تَأتَكِلُ

أَلَسْتَ مُنْتَهِياً عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الإِبِلُ

كَنَاطِحٍ صَخرَةً يَوْماً لِيَفْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

تُغْرِي بِنَا رَهْطَ مَسعُودٍ وَإِخْوَتِهِ عِندَ اللِّقَاءِ ، فَتُرْدِي ثُمَّ تَعتَزِلُ

فهم أعزاء لا يجرؤ أحد على غزوهم ، ولذلك تجنبت أرضهم خيل الغزاة وإبلهم ، وبهذا البيت ينتهى وصف الشاعر للطبيعة ، وبيان شجاعتهم وعزهم ومنعتهم ، ثم يبدأ بالهجاء الذى يصبه على يزيد بن شيبان والوعيد الذى يوجهه إليه ، وقد ضرب المثل لعزة قومه وعراقة أصلهم وثبات مجدهم بشجرة الأثل ، ويريد بنحت الأثلة التشهير بهم ، ومحاولة الإساءة إليهم ، والتهوين من شأنهم بقوله إنك توقع بيننا وبين القبائل ، وتثير نيران الفتنة المدمرة المهلكة ، حتى إذا ما اشتعلت اعتزلت القتال ، وتركت القبائل تتقاتل وتلك صفة الجبناء ، ثم تبتهل وتدعو الله أن ينجيك من شرها ، بعد أن أشعلت الفتنة ثم تهربت منها ...

لا أعْرِفَنَّكَ إنْ جَدَّتْ عَدَاوَتُنَا وَالتُمِسَ النَّصرُ مِنكُم عوْضُ تُحتمَلُ

تُلجِمُ أبْنَاءَ ذِى الْجَدَّيْنِ إنْ غضِبُوا أرْمَاحَنَا ثمَّ تَلْقَاهُمْ وَتَعْتَزِلُ

لاَ تَقْعُدَنْ ، وَقَدْ أكَّلْتَهَا حَطَبًا تَعُوذُ مِنْ شَرِّهَا يَوْماً وَتَبْتَهِلُ

سَائِلْ بَنِي أسَدٍ عَنَّار ، فَقَدْ عَلِمُوا أنْ سَوْفَ يَأتِيكَ مِنْ أنبَائِنَا شَكَلُ

وَاسْأَلْ قُشَيراً وَعَبْدَ اللهِ كُلَّهُمُ وَاسْأَلْ رَبِيعَةَ عَنَّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ

يقول : لا أعرفنك أن ألتمس النصر منك . وقوله : تلحم أى تجعلهم لحمة أى تطعمهم إياه وذو الجدين قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجدين ، سمى بذلك لأن جده قيس بن خالد أسير له فداء كثير فقال رجل إنه ذو جد فى الأسر ، فقال آخر إنه ذو جدين فصار يعرف بهذا .

وقوله : لا تقعدن وقد أكلتها ، الضمير للحرب ومعنى أكلتها أججتها وتبتهل تدعو إلى الله من شرها . وسوف يأتيك من أيامنا المتقدمات وما فيها من الحروب ، واسأل القبائل عن ذلك .

إنَّا نُقَاتِلُهُمْ حَتى نُقَتِّلَهُمْ عِندَ اللِّقَاءِ وَإنْ جَارُوا وإن جَهِلُوا

فَقَدْ كَانَ فِي آلِ كَهفٍ إنْ هُمُ احتربوا وَالجَاشِرِيَّةِ مَنْ يَسْعَى وَيَنتَضِلُ

إنِّي لَعَمْرُ الّذِي خَطَّتْ مَنَاسِمُهَا تَخْدِى وَسِيقَ إلَيْهِ البَاقِرُ الغُيُلُ

وقوله : إنا نقاتلهم ، وقد كان آل كهف ، وآل كهف من بنى سعد بن مالك يقول : إن قعدوا هم فلم يطلبوا بثأرهم ، فقد كان فيهم من يسعى لهم فما دخولك بينهم ولست منهم ؟

إنه يقسم بالإبل التى تحمل الحجيج إلى الكعبة وهم يسوقون أمامهم الهدى قطعانا كبيرة من البقر .

لئن قتلتم عميدا لم يكن صددا ... لنقتلن مثله منكم فنمتثل

لئن منيت بنا عن غب معركة ... لا تلفنا عن دماء القوم ننتقل

لا تنتهون ولن ينهى ذوى شطط ... كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

متى يظل عميد القوم مرتفقا ... يدفع بالراح عنه نسوة عجل

أصابه هندوانى فأقصده ... أو ذابل من رماح الخط معتدل

إنه يتوعدهم بالثأر والانتقام ، ويتوعدهم بطعنات تصيبهم بجراح غائرة يذهب فيها الزيت والفتائل التى تتخذ لعلاجها . ثم يصف نهاية المعركة وقد سقط سيد القبيلة على الأرض ، ولقى رجالها مصارعهم ، ولم يبق إلا نساؤها الثكالى يحاولن الدفاع عن سيدها وحمايته ، ويحتمل أن يكون المعنى أن سيد القوم قد قتل وسقط صريعا ، ونساء القبيلة يدفعن عنه أن تطأه أقدام المقاتلين .

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم ... إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية ... جنبى فطيمة لا ميل ولا عزل

قالو الطعان فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشر نزل

إنه يفتخر بشجاعة قومه ، ويزجر خصومهم عن أن يظنوا فيهم ضعفا أو تخاذلا ، فالقوة شيمتنا وركوب الخيل عادتنا .

قد تخضب العير فى مكنون فائله ... وقد يشيط على أرماحنا البطل

الهوامش

* مثل ظهر الترس فى وعورتها وعدم استوائها وحافاتها نواحيها . الزجل :الصوت والغناء .

* ينتمى : يصعد ويرتفع ، وقوله : لا ينتمى لها أى لا يسمو إلى ركوبها إلا الذين لهم فيما أتوا مهل وعدة ، يصف شدتها ، والمهل : التقدم فى الأمر والهداية فيه قبل ركوبه . القيظ : شدة الحر .

* الطليح : الناقة التى أعياها السفر وأرهقتها الرحلة . الجسرة : الجريئة الماضية فى طريقها دون تردد او توقف . السرح : السهلة اللينة السير التى تنساب فوق الرمال فى غير مشقة او تعثر . الفتل : تباعد مرفقيها عن جانبيها ، وهى صفة محمودة فى الإبل لأنها تعينها على الحركة اللينة السريعة .

* العارض : السحابة تعترض الأفق وتكون ناحية السماء . أرمقه : أنظر إليه وأتأمله .

* الرداف : سحاب يتقدم من خلف سحاب كأنه رديف له . وجوز كل شئ : وسطه. المفأم : العظيم الواسع . العمل : الدائم البرق . السجال : جمع سجل وهو الدلو الكبيرة . ومنطق بسجال الماء ، أى أن الماء يحيط به من كل جانب . وقوله : متصل أى ليس فيه خلل .

* الشرب : ندامى الشراب ، وهم القوم المجتمعون لشرب الخمر . درنا : اسم مكان بأرض اليمامة ، وقال الخطيب درنا كانت بابا من أبواب فارس وهى دون الحيرة بمراحل ، وكانت منازل الأعشى اليمامة لا العراق ، وقيل درنا لبنى قيس بن ثعلبة بها قبر الأعشى . شيموا : انظروا إلى البرق وقدروا أين صوبه الثمل : السكران .

* جادهما : أى ساقهما . والأسماء المذكورة فى البيت كلها أسماء مواضع .
* تدافع منه : فاض منه ، والضمير فى "منه" يعود على السيل . والأسماء المذكورة فى البيت كلها أسماء مواضع أيضا .
* تحمل منه : تحمل ما لا يطيق إلا على مشقة لكثرته . والغينة الأرض الشجراء .
* الغرض : الهدف . وزورا : أى ازور عنها الناس لعزة أهلها ومنعتهم . تجانف : تجنب وتباعد . القود : الخيل . الرسل : الإبل .
* المألكة : بفتح اللام وضمها الرسالة . وأبو ثبيت كنية يزيد . وتأتكل : تأكل نفسك من الغيظ من ائتكل الرجل إذا غضب وهاج وكأنه يأكل بعضه بعضا .
* الأثلة : شجرة الأثل والأصل : أطت الإبل : أنت تعبا أو حنينا .
* الوعل : تيس الجبل .
* تردى : تهلك ، من الردى وهو الهلاك . تعتزل : أى تعتزل القتال .
* احتمل القوم : احتملتهم الحمية والحرب ، وتحتمل أى تذهب .
* تلحم : تجعلهم لحمة أى تطعمهم إياه . السودة : الغضب .
* أكلتها : أججتها . وتبتهل أى تدعو الله أن ينجيك من شرها .
* شكل : أزواج خبر بعد خبر ، وشكل اختلاف .
* قوله واسأل قشيرا وعبد الله - كلها قبائل ومعنى عبد الله أى بنى عبد الله .
* الجاشرية : امرأة من إياد وقيل هى بنت كعب بن مامة .
* حطت : قيل أسرعت ، ويقال حطت إذا اعتمدت فى زمانها ، وحطت أى سفت التراب بمناسمها ، والمناسم : أطراف أخفافها .

* تحذى : تسير سيرا هديدا فيه اضطراب لشدته . الباقر : البقر . الغيل : جمع غيل وهو الكثير ، وقيل هو جمع غيول . العثل : الجماعة يقال عثل له من ماله أى أكثراه .
* العميد : السيد الذى يعتمد عليه . لم يكن صددا : اى لم يكن مماثلا أو نظيرا لمن قتلناه منكم . نمتثل : نقتل الأمثل فالأمثل .
* كالطعن : أى مثل الطعن . يهلك فيه : أى يذهب فيه لاتساعه . الفتل : جمع فتيل .
* مرتفقا : متكئا على مرفقيه لسقوطه على أرض المعركة . الراح : جمع راحة وهى بطن الكف . العجل : جمع عجول وهى الثكلى الحزينة .
* الهندوانى : السيف . أقصده : أصابه . الذابل من الرماح : الصلب المقوم . الخط : مدينة على ساحل الخليج بالبحرين كانت مشهورة بصناعة الرماح .
* كلا : أداة ردع وزجر . وقتل : جمع قتول صيغة مبالغة .
* يوم الحنو : يوم من أيام قبيلته التى انتصرت فيها . وضاحية : علانية ، يقال فعل هذا الشئ ضاحية . فطيمة : اسم مكان . والميل : جمع أميل وهو الذى لا يثبت فى القتال . والعزل : جمع أعزل وهو الذى لا يحمل سلاحا فيضطر إلى اعتزال الحرب .
* الطراد : المطاردة بالرماح . وتنزلون : أى تنزلون عن ظهور الخيل للمجالدة بالسيوف .
* العير : الحمار الوحشى . والفائل : عرق يجرى من الجوف إلى الفخذ . ويشيط : يهلك ، أو يرتفع صريعا على أسنة الرماح .

المعلقة التاسعة

النابغة الذبيانى

النابغة الذبيانى

هو زياد بن معاوية ، لقب بالنابغة لأن موهبته الفنية لم تظهر إلا بعد أن كبر وتقدمت به السن ، وكان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم الكبيرة . وهو أحد فحول أهل الجاهلية ، عده ابن سلام فى الطبقة الأولى وقرنه بامرئ القيس والأعشى وزهير ، ويضعه بعض الرواة بين أصحاب المعلقات العشر ، وهو أحسن الشعراء ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا .

قال الأصمعى : سألت بشارا عن أشعر الناس فقال : أجمع أهل البصرة على تقدم امرئ القيس وطرفة ، وأهل الكوفة على بشر بن أبى خازم والأعشى ، وأهل الحجاز على النابغة وزهير ، وأهل الشام على جرير والفرزدق والأخطل .

وكما هو الشأن مع أكثر شعراء الجاهلية ليس من اليسير أن نحدد تاريخ مولده ووفاته ، ولكن من المعروف أنه كان معاصرا لحرب داحس والغبراء التى دارت رحاها بين قبيلته وبين قبيلة عبس فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع (٥٦٨ - ٦٠٨) ، وإن يكن من الواضح أنه لم يشهد نهايتها التى شهدها زهير ونظم فيها معلقته المشهورة . ومن هنا نستطيع أن نؤكد أنه مات قبل سنة ٦٠٨ ، وربما كان التاريخ الذى ذكره جرجى زيدان فى كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " عن سنة وفاته - وهو سنة ٦٠٤ - قريبا إلى الواقع .

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : يا معشر غطفان من الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى   على خوف تظن بى الظنون

قالوا : النابغة . قال : ذاك أشعر شعرائكم . وروى من وجه آخر أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال لجلسائه يوما من أشعر الناس ؟ قالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين . قال : من الذى يقول :

إلا سليمان إذ قال الإله له   قم فى البرية فاحددها من الفند

وخيس الجن إنى قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا : النابغة . قال : فمن الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة   لمبلغك الواشى أغش وأكذب

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

قالو : النابغة . قال : فهو أشعر العرب ، وكانوا يقولون : إن النابغة أشعر العرب إذا خاف ، وذلك لجودة قصائده ، وكان جسورا حين قال :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه   عنم يكاد من اللطافة يعقد

والنابغة من أكبر شعراء العصر الجاهلى ، وهو قمة شامخة من قمم مدرسة الصنعة الجاهلية . وقد بلغت منزلته الفنية بين شعراء عصره أن ارتضوه حكما بينهم فى سوق عكاظ ، حيث كانت تضرب لهم قبة حمراء متميزة ، ويأتيه الشعراء من شتى القبائل ليعرضوا عليه شعرهم ، فأول من

أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد قصيدتها التى تقول فيها ترثى أخاها صخرا :

وإن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

ويقول النابغة :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدن بنى العنقاء وابنى محرق   فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

ويقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنأى عنك واسع

خطاطيف حجن فى حبال متينة   تمد بها أيد إليك نوازع

فقد نظم النابغة فى كل الموضوعات التى دار فيها الشعر الجاهلى ، ولكن تقوم شهرته على موضوعين : المدح والاعتذار . ويجعله النقاد المبتكر الأول لموضوع الاعتذار فى الشعر العربى ، وواضع تقاليده الفنية ، كما يجعلونه الشاعر الذى ارتفع به أيضا إلى قمته الرفيعة التى بلغها فى العصر الجاهلى ، ويأتى بعد هذين الموضوعين موضوع الوصف ، فهو الموضوع الثالث الذى برع فيه وسجل تفوقا وامتيازا ، ولكنه لم يكن يفرد له قصائد مستقلة ، وإنما كان يأتى عنده - كما كان يأتى عند غيره من شعراء عصره - فى ثنايا قصائده .

ولم يقف النابغة فى وصفه عند الصحراء ومناظرها فحسب ، وانما كان أحيانا يمده إلى وصف الحياة المتحضرة التى كان متصلا بها فى الحيرة من ناحية ، وفى الشام من ناحية أخرى .

والنابغة ككل شعراء مدرسة الصنعة ، ينظر إلى العمل الفنى على أنه صنعة يفرغ لها كما يفرغ الصانع لعمله ، يجوده وينقنه ، ويظل عاكفا عليه يعيد فيه النظر ، ويطيل فيه التفتيش ، حتى يخرجه على الصورة الدقيقة المحكمة التى يريدها له ، فى أناة شديدة ، وتجويد بالغ ، وحرص واضح على تهذيب عباراته وانتقاء ألفاظه وإحكام صوره .

ومع أن النابغة فى لغته كسائر شعراء عصره غرابة وبداوة ، فإن اتصاله الطويل بالحياة الحضارية فى الحيرة والشام أكسبه ذوقا رقيقا مرهفا فى انتقاء الألفاظ لعباراته ، واختيار الأوضاع والزاويا لصوره ، كما طبع شعره فى غير قليل من جوانبه بطابع حضارى ، ونشر فيه غير قليل من الأفكار والصور الدينية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

وفى الأغانى ترجمة طويلة ، وكذلك فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ، كما عرض له ابن سلام فى طبقات الشعر ، وكذلك شعراء النصرانية ، وكذلك صاحب كتاب تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى . وأخرج الأستاذ عمر الدسوقى كتابا عنه ، وعرض له صاحب الجمهرة والمرزبانى فى الموشح ، وكثير من العلماء ، كما كتب عنه الزيات وجورجى زيدان ، والدكتور محمد زكى العشماوى ، والدكتور خالد الزواوى .

وشعر النابغة لطيف رقيق إذا تملكته عاطفة قوية من إشفاق أو حماسة أو رهبة كما ترى فى أهاجيه ومدائحه واعتذارياته ، وقيل عنه أشعر الناس إذا رهب ، وهو فى إعتذارياته حزين عميق الحزن ، قلق مضطرب يداخله التشاؤم واليأس الشديد ، ذلك كله لأن خيال الشاعر دقيق واسع . وتمتاز معانيه

بالدقة والانسجام والتآلف والصدق والقرب من العقل والبعد عن التعقيد والغموض .

ويمتاز شعر النابغة ببلوغه غاية الحسن والجودة ونقاوته من العيوب ، وجودة مطالع قصائده وأواخرها ، وكان البدو من أهل الحجاز يحفظون شعره ويفاخرون به ، لحسن ديباجته وجمال رونقه وجزالة لفظه وقلة تكلفه ، ويظهر من شعره التدين والتزام مكارم الأخلاق ، فهو يقول :

قالت أراك أخا رحل وراحلة   تغشى متالف لن ينظرنك الهرما

حياك ربى فإنا لا يحل لنا   لهو النساء وإن الدين قد عزما

مشمرين على خوص مزممة   نرجو الإله ونرجو البر والطعما

وقوله :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقى حومة المستأسد الحامى

وقوله :

نفس عصام سودت عصاما   وعلمته الكر والإقداما

وصيرته ملكا هماما   من علا وجاوز الأقواما

ومن روائع شعره قصيدته :

كلينى لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطئ الكواكب

وقيل إن النابغة قدم فى جوار رجلين من فزارة لهما منزلة عند النعمان فرأى إحدى قيان النعمان فلقنها قصيدته التى اعتذر إليه ، وهى مقدمة معلقته :

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأبد

فشرب النعمان فلما سكر غنته إياها فطرب وقال : هذا شعر أبى أمامه فرضى عنه ..

بدء النابغة ملعقته بوصفه أنه مر بدار مية بالعلياء ووقف فيها وسألها عن أهلها فقال :

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأبد

ثم جعل يصف مشهد صيد بين الصائد الذى بث كلابه على الثور ، وشك الثور فريصة الكلب ، وتوجع الكلب لما أصابه ، وهو مشهد دائما نراه فى القصيدة الجاهلية ، وهو يدل على هواية العربى بالصيد ، ثم أخذ الشاعر فى وثف ناقته التى تشبه الثور فى قوته ونشاطها ، ولما انتهى النابغة من وصف هذه الناقة ، قال إن هذه الناقة هى التى تبلغنى الملك النعمان الذى له فضل على الناس أقاربهم وأباعدهم ، وشبهه بالملك سليمان الحكيم واستطرد إلى طلب العفو :

فتلكَ تُبْلِغُني النُّعمانَ، إنَّ لهُ   فضلاً على النّاس في الأدنى وفي البَعَدِ

ولا أرى فاعِلاً، في النّاس، يُشبهُه   ولا أحاشي، منَ الأقوامِ، من أحدِ

إلّا سُليمانَ، إذْ قالَ الإلهُ له   قُمْ في البَريّة، فاحْدُدْها عنِ الفَنَدِ

وخيِّسِ الجنَّ! إنّي قدْ أذنتُ لهم   يبنونَ تدْمُرَ بالصُّفّاحِ والعمدِ

إننى لا أرى أحدا يفعل فعلا كريما يشبهه فى فعله ، واستثنى الملك سليمان من القوم المنفى عنهم شبه النعمان .

حكى عن الأصمعي أنه قال : (إلا لمثلك) ، اى إلا الرجل فى مثل حالك أو من فضلك عليه ، مفضل السابق على المصلى ، أى ليس بينك وبينه فى الفضل إلا يسير ، بمقدار ما بين السابق والمصلى من الخيل . أراد النابغة حض النعمان على أن يقعد عنه ، ولا يضمر له حقدا ، لأنه ليس مثله ولا قريبا منه .

فَمَن أطاعَكَ فَانْفَعْهُ بِطاعَتِهِ ... كَما أطاعَكَ، وادلُلهُ عَلى الرُّشَدِ

وَمَن عَصاكَ فَعاقِبهُ مُعاقَبَةً ... تَنهى الظَّلومَ، وَلا تَقعُد عَلى ضَمَدِ

إلاّ لِمِثلِكَ أو مَن أنتَ سابِقُه ... سَبقَ الجَوادِ إذا استَولى عَلى الأمَدِ

أعطى لِفارِهَةٍ، حُلوٍ تَوابِعُها ... مِنَ المَواهِبِ لا تُعطى عَلى نَكَدِ

الواهِبُ المِائةَ الأبكارَ، زَيَّنَها ... سَعدانُ توضِحَ في أوبارِها اللِّبَدِ

وَالرّاكِضاتِ ذُيولَ الرِيطِ، فَنَّقَها ... بَردُ الهَواجِرِ، كَالغِزلانِ بِالجَرَدِ

إنك لا تعطى ونفسك تتبع العطية وترغب فيها ، وأنك تهب المائة من الإبل السمان الشداد ، والجوارى يركض بأرجلهن مأخر الريط لسبوغه عليهن وتبخترهن فيه . فهو يهب المائة المعكاء ، ويهب الراكضات ، ويهب الخيل ، وشبه الخيل فى سرعتها بطير أصابها مطر شديد فيه برد فهى تنجو وتسرع إلى مواضع تقيها من المطر والبرد .

وَالخَيلَ تَمزَعُ غَرباً في أعِنَّتِها ... كَالطَّيرِ تَنجو مِنَ الشُّؤبوبِ ذي البَرَدِ

وَالأُدمَ قَد خُيِّسَت فُتلاً مَرافِقُها ... مَشدودَةً بِرِحالِ الحيرَةِ الجُدُدِ

وَاحكُم كَحُكمِ فَتاةِ الحَيِّ، إذ نَظَرَت ... إلى حَمامٍ سِراعٍ، وارِدِ الثَّمَدِ

يَحُفُّهُ جانِبا نيقٍ وَتُتبِعُه ... مِثلَ الزُّجاجَةِ لَم تُكحَل مِنَ الرَّمَدِ

لتكن حكيما فى أمرك ، مصيبا فى الرأى ، ولا تقبل ممن سعى إليك ، كفتاة الحى إذ أصابت ووضعت الأمر موضعه ، ولم يرد الحكم فى القضاء . وفتاة الحى هى زرقاء اليمامة ، عينها صافية كصفاء الزجاجة ، لم يصبها رمد فتكحل ، ويحتمل أن يريد أنها كحلت بغير رمد ، لزينة أو نحوه .

فَحَسَبوهُ، فَأَلفَوهُ، كَما حَسَبَت ... تِسعاً وَتِسعينَ لَم تَنقُص وَلَم تَزِدِ

فَكَمَّلَت مِائَةً فيها حَمامَتُها ... وَأَسرَعَت حِسبَةً في ذَلِكَ العَدَدِ

فَلا لَعَمرُ الَّذي مَسَّحتُ كَعبَتَه ... وَما هُريقَ عَلى الأَنصابِ مِن جَسَدِ

وَالمُؤمِنِ العائِذاتِ الطَيرَ يَمسَحُها ... رُكبانُ مَكَّةَ بَينَ الغَيلِ وَالسَنَدِ

يقول : حسبوا القطا وضموا إليه نصفه فألفوه تسعا وتسعين ، كما حسبت ، لا تزيد ولا تنقص . وقوله : (وأسرعت حسبه) أى أسرعت فى حساب القطا مع طيرانه وتراكبه ، فكان ذلك كحكم هذه ، إذ صدقت فى عدده على هذه الحال . وقوله : (مسحت كعبته) أى أتيت بيته وطفت به ، والكعبة كل بيت مربع ، وبه سميت الكعبة .

والشاعر يقسم بالله الذى أمن الطيور العائذة بالحرم أن تهتاج أو تصاد ، وبهذا القسم فإنى ما قلت من سئ ، إذن فشلت يدى حتى لا أطيق رفع السوط ، إذا كنت قلت هذا الذى بلغك عنى .

ما إِن أَتَيتُ بِشَيءٍ أَنتَ تَكرَهُهُ ... إِذاً فَلا رَفَعَت سَوطي إِلَيَّ يَدي

إِذاً فَعاقَبَني رَبّي مُعاقَبَةً ... قَرَّت بِها عَينُ مَن يَأتيكَ بِالحَسَدِ

هَذا لِأَبرَأَ مِن قَولٍ قُذِفتُ بِهِ ... طارَت نَوافِذُهُ حَرّاً عَلى كَبِدي

أنبئتُ أنّ أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأرٍ من الأسدِ

مهلاً، فداءٌ لكَ الأقوامُ كلُّهمُ وَما أثمّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

ما قلت شئ مما أتوك به عنى ، لكنهم قالوا مقالة شقيت بها عندك ، فكأنها قرعت كبدى بذلك .

أبو قابوس هو النعمان بن المنذر ، ويقول : وعيد النعمان لا تستقر معه نفسى ولا تطمئن ، هيبة له . كما لا تطيق ولا تسكن على زئير الأسد . فتثبت فى أمرى ولا تعجل على ، وأكثر وأصلح .

لا تَقذِفَنّي بِرُكنٍ لا كِفاءَ لَهُ وَلَو تَأثّفَكَ الأعداءُ بِالرِّفَدِ

فَما الفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَه تَمّر أواذِيُّهُ العِبرَينِ بِالزَّبَدِ

يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ فيهِ رُكامٌ مِنَ اليَنبوتِ وَالخَضَدِ

يَظَلُّ مِن خَوفِهِ، المَلاّحُ مُعتَصِماً بِالخَيزُرانَةِ، بَعدَ الأينِ وَالنَّجَدِ

فلا ترمينى بنفسك ، فإنه لا مثل لك ، وإنما ذكر الركن كناية عن الشدة والقوة . وقوله : (تأثفك) ، أى اجتمعوا حولك ، مثل الأثافى متعاونين على . فليس هذا النهر (الفرات) بأجود منك (يمده كل واد) أى يزيد فيه ويقويه . وقوله : (يظل من خوفه) ، أى من خوف الفرات ، لا ضطراب أمواجه وشدة هوله .

يَوماً بِأجوَدَ مِنهُ سَيبَ نافِلَةٍ وَلا يَحولُ عَطاءُ اليَومِ دونَ غَدِ

هَذا الثَّناءُ فَإن تَسمَع لِقائِلِهِ فَلَم أعَرِّضْ أبَيتَ اللَّعنَ بِالصَّفَدِ

ها إنَّ ذِى عِذرَةٌ إلاَّ تكُن نفَعَت   فإنَّ صاحِبَها مُشارِكُ النَّكِ د

والنافلة الفضل ، وكل شئ ليس بواجب فهو نافلة ، وإنما خص النافلة ليبالغ فى المدح لأنه إذا أكثر من غير الواجب فهو أجدد أن يكثر من الواجب ، فإذا أعطاك اليوم لم يمنعه ذلك من إعطائك غدا عطية أخرى .

وقوله : (أبيت اللعين) هى تحية كانوا يحيون بها الملوك ، ومعناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تذم به ، وإنى لم أمدحك تعرضا لمعروفك ، ولكن اعتذارا إليك ، وإقرار بفضلك .

وقوله : (ها إن ذى عذرة) ، أى هذه معذرة إليك .

وقد وصفت النابغة النعمان فى هذه الأبيات بأحسن ما يمكن من الكرم ، فالفرات إذا ثارت به العواصف وماجت كياهه ، وألقت الزبد على ضفتيه ، وجرت إليه المياه من الأنهر الصغيرة والغدران التى تصب فيه حاملة ركاما من نبات الخشخاش ونحوه ، حتى اضطر الملاح أن يتمسك بدفه السفينة بعد أن أعياه العرق والكرب من شدة جريان الماء ، فالفرات لا يكون أجود من النعمان أو يكون النعمان أجود من الفرات ، وجوده اليوم لا ممنع جوده غدا لغزارته وكونه سجية فيه .

وأخيرا إن لم ينفع هذا الاعتذار عندك ، فاصحبه حليف الهم ، قليل الخير . ومن اعتذارياته للنعمان ومدحه إياه قصيدته التى يقول فيها :

أتاني أبيتَ اللعنَ أنكَ لمتني   و تلكَ التي أهتَمّ منها وأنصبُ

فبتُّ كأنّ العائداتِ فرشن لي   هراساً، به يُعلى فِراشي ويُقْشَبُ

حَلَفْتُ، فلم أترُكْ لنَفسِكَ ريبَةً   وليسَ وراءَ اللهِ للمَرْءِ مَذهَبُ

لئنْ كنتَ قد بُلغتَ عني وشاية ... لَمُبْلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكذبُ

و لكنني كنتُ امرأً ليَ جانبٌ ... منَ الأرضِ ، فيه مستزادٌ ومطلب

مُلوكٌ وإخوانٌ، إذا ما أتيتُهُمْ ... أحكمُ في أموالهمْ ، وأقرّبُ

كفعلكَ في قومٍ أراكَ اصطفيتهم ... فلم ترَهُمْ، في شكر ذلك، أذنَبُوا

فلا تتركني بالوعيدِ ، كأنني ... إلى النّاسِ مَطليٌّ به القارُ، أجْرَبُ

ألمْ ترَ أنّ اللهَ أعطاكَ سورةً ... ترى كلّ مَلْكٍ، دونها،يتَذَبذَبُ

فإنكَ شمسٌ ، والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

و لستَ بمستبقٍ أخاً ، لا تلمه ... على شَعَثٍ، أيُّ الّرجال المُهَذّبُ

فإنْ أكُ مظلوماً ؛ فعبدٌ ظلمته ... وإنْ تكُ ذا عُتْبى ؛ فمثلُكَ يُعتِبُ

فأنا فى عناء ومشقة ، وفى هم ونصب ، وإنى أقسم بالله العظيم ، وليس بعد اليمين بالله - عز وجل - للمرء مذهب ، لئن بلغت عنى أنى أخون ودك ، وأكفر نعمتك ، فالذى بلغك ذلك ، ووشى به إليك أغش وأكذب . وهو يصف ذهابه إلى الغساسنة ومنزلته فيهم ، ويصف بذلك سعة حاله وتمكنها ، وقد حل بالغساسنة حين فر من النعمان فألزموه وقربوا منزلته ، وهذا الذى فعله الغساسنة أوجب مدحى لهم وثنائى ، كما فعلت أنت فى قوم اصطنعتهم وأحينت إليهم ، فينبغى ألا ترانى مذنبا فى شكر ذلك لهم ، كما لا ترى من اصطنعته فيشكرك مذنبا فى شكره لك .

فلا تدعنى كأنى بعير أجرب قد طلى بالقار وهو القطران ، يتحاماه الناس ويطردونه عن إبلهم لئلا يعديها بجربه ،وإنما يريد أنه إن لم يعف عنه تحامته العرب ولم تجره ، خوفا من النعمان . ولتعلم أن منازل الملوك دون منزلتك .

وقوله : (فإنك شمس والملوك كواكب) يعنى أن منزلته من الملوك كمنزله الشمس من الكواكب ، فإذا ذكر ونشرت مآثره لم يذكر غيره معه .

ويقول النابغة للنعمان : إن لم تصبر للأخ والصديق على خصلة غير مرضية تكون فيه ، لم تبق لنفسك أخا .

وقوله : (إن تك ذا عبتى) ، أى ذا رضا ورجوع إلى ما أحب من عقوك فمثلك يعتب ، وأعتب إذا رضى ، والاسم العتبى والمصدر الإعتاب .

ومن الصور المدحية التى عُرف لها النابغة وعُرفت عنه ما صاغه فى تلك القصيدة البائية التى رسم فيها لوحة فنية ، والتى بدأها بحديث باك يشكو فيه إلى أميمة طول ليله الذى لم يعد يشف إلا عن تلك المعاناة ، وذلك الألم والهم الذى تكاثر عليه ، حتى ضاق به ، وكأن الأمل قد انقطع إزاء انقضاء هذا الليل .

وهو ينتهى من هذا الحديث الوجدانى الذى يسقط من خلاله همومه وآلامه لينطلق إلى ممدوحه ، معترفا بفضله ونعمته عليه ، مؤكدا هذا الاعتراف بصيغ قسميه يصل بها بين الحديث الاعتراف وحديث المدح الذى يؤصل فيه لنسب ممدوحه ، وسيادته فى قومه ، مما يترتب عليه ثقته المطلقة فى انتصاره على أعدائه ، وهو انتصار لا يتأتى له إلا بقوة جيشه ، من جند يتمتعون بأصالة الانتماء التى يتمتع بها ممدوحه ، إلى خيول عربية لا يشك أحد فى أصالتها

وصفوة نسبها ، إلى سيوف ورماح دقيقة الصنع كأنها لم تكن إلا لهؤلاء القوم فقط ، وهى ليست جديدة عليهم ، ولكنها عريقة النسب بنفس الصورة التى يضفيها عليهم النابغة . وقد أثرت عراقة نسبها فى صلابتها وقوتها ، فهى موروثة عبر أيام طوال لم تشهد فى تلك السيوف عيبا واحدا إلا ذلك التكسر الذى ينم عن شئ واحد ، هو كثرة كاثرة فيمن أصيب بها من أعداء الممدوح ، وحسبها هذا التكسر أصالة ورمزا لقوتها .

كليني لهم يا أميمة ناصب — وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

تطاول حتى قلتُ ليس بمنقضٍ — وليس الذي يرعى النجومَ بآئبِ

وصدرٍ أراح الليل عازبَ همهِ — تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ

عليَّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمةٍ — لوالده ليست بذات عقاربِ

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مثنويةٍ — ولا علمَ إلا حسنُ ظنٍّ بصاحبِ

لئن كان للقبرين:قبرٍ بجلقٍ — وقبرٍ بصيداء الذي عند حاربِ

وللحارث الجفني سيد قومهِ — ليلتمس بالجيش دار المحاربِ

وثقتُ له بالنصرِ إذ قيل قد غزت — كتائبُ من غسان غر أشائبِ

بنو عمه دنيا حلق فوقهم — عصائب طيرٍ تهتدي بعصائبِ

يصانعنهم حتى يغرن مغارهم — من الضارياتِ بالدماء الدواربِ

تراهن خلف القوم خزرا عيونها — جلوسَ الشيوخِ في ثياب المرانبِ

جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيله — إذا ماالتقى الجمعان أولُ غالبِ

لهنّ عليهم عادةٌ قد عرفنها — إذا عرض الخطي فوق الكواثبِ
على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ — بهنّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ
إذا استنزلوا عنهنّ للطعن أرقلوا — إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
فهم يتساقون المنية بينهم — بأيديهم بيضٌ رقاق المضاربِ
يطيرُ فضاضاً بينها كلُّ قونسٍ — ويتبعها منهم فراشُ الحواجبِ
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم — بهنّ فلولٌ من قراع الكتائبِ
تورثن من أزمان يوم حليمةٍ — إلى اليومِ قد جربن كلُّ التجاربِ

الهوامش

* فى الأدنى وفى البعد : أى فى القريب والبعيد
* ولا أحاشى : أى لا أستثنى
* احددها : امنعها . الفند : الخطأ فى القول والفعل وغير ذلك .
* خيس الجن : أى ذللهم ، ومنه سمى السجن مخيسا . تدمر : مدينة بالشام ، فيها بناء لسليمان بن داود عليهما السلام . الصفاح : حجارة عراض . والعمد : أساطين الرخام ، وهى السوارى .
* يقال : رشد ، بضم أوله وسكون ثانيه ، ورشد بفتحتين .
* الظلوم : كثير الظلم . والضمد : الذل والغيظ والحقد أو شدة الغضب ، وقيل هو الظلم .
* ستولى عليه : غلبه . والأمد : الغاية التى يجرى إليها .

* أعطى : أكثر إعطاء . والفارهة : الناقة الكريمة أو العطية الحسنة . وتوابعها : ما تبعها من المطايا . والنكد : الضيق والعسر .
* المعطاء : السمان الشداد ، وهو اسم لا يثنى ولا يجمع . والسعددان : بنت تسمن عليه الإبل ، وأنجع ما تراه الإبل ، ومنه قيل : (مرعى ولا كالسعدان) . وتوضح : موضع . واللبد : ما تلبد من الوبر ، واللبد جمع لبدة .
* الأدم من الإبل : البيض ، ومن النساء : السمر . وخيست : ذللت . والفتل : التى بانت مرافقها من آباطها فلا يصيبها ضاغط ولا حاز وهو جرح يصيب كراكها إذا حكتها مرافقها فيمنعها بذلك عن السير . والرحال : جمع رحل وهو كالسرج . والحيرة : مدينة معروفة بالعراق تنسب إليها الرحال . والجدد : جمع جديد .
* قوله : (والراكضات ذيول الريط) : يعنى الجوارى يركضن بأرجلهن مآخر الريط لسبوغه عليهن ، وتبخترهن فيه . والريط : جمع ريطة وهى كل ملاءة أى الملاحف البيض . وفانقها : نعم عيشها . وقوله : (برد الهواجر) أى هى فى الهواجر فى موضع بارد ، جمع هاجرة وهى الحر الشديد ، فلا يؤذيها وهج الشمس . والجرد : أرض جرداء لا شجر فيها ولا نبات ، وإنما خصه لأن الغزلان إذا كانت به بدت محاسنها للناظر ، ولم يحجبها عنه شئ .
* تمزع : تمر مرا سريعا أى تسرع فى سيرها . والغرب : الحدة والنشاط . والشؤبوب : دفعة الكطر وشدته .
* احكم : كن حكيما فى أمرك ، مصيبا فى الرأى ، ولا تقبل ممن سعى إليك ، كفتاة الحى إذ أصابت ووضعت الأمر موضعه ، ولم يرد الحكم فى القضاء .

والثمد : الماء القليل الذى يكون فى الشتاء ، ويجف الصيف .
والشراع : القاصدة إلى الماء . وفتاة الحى هى زرقاء اليمامة .
* يحفه جانبا نيق : أى يحيط به من جانبه . والنيق : الجبل . مثل الزجاجة : أى عينا صافية كصفاء الزجاجة ، لم يصبها رمد فتحتاج إلى كحل : (لم تكحل من الرمد) .
* فقد : أى حسبى .
* أسرعت حسبة : أى أسرعت فى حساب القطا مع طيرانه وتراكبه . والحسبة - بالكسر - مثل الجلسة الركبة وهى خينة الفعل ، والحسبة - بالفتح - المرة الواحدة .
مسحت كعبته : أى أتيت بيته وطفت به . والكعبة : كل بيت مربع ، وبه سيمت المعبة . هريق : صب على الأنصاب ، وهى حجارة كانوا يذبحون عليها الذبائح لألهتهم فى الجاهلية . والجسد والجساد : الزعفران وهو هنا الدم اللازق (اللاصق) .
* العائذات : التى عاذت بالحرم . المؤمن : الذى آمنها من الخوف وهو الله . والغيل : الشجر الملتف ، وكذلك (السعد) . يمسحها : أى يمرون عليها ، لا يهيجها أحد ولا ينفرها ، وقيل الغيل بفتح الغين هو الماء الجارى على وجه الأرض ،وقيل الغيل والسعد : أجمتان كانتا بين مكة ومنى .
* قوله : (ما قلت من سئ) جواب قوله : (فلا لعمر الذى مسحت كعبته) وقوله : (قرعا على الكبد) أى اشتدت على مقالتهم ، فكأنها قرعت كبدى بذلك .
* أبوقا بوس ، هو النعمان بن المنذر ، ومعنى (أوعدنى) هددنى . وزأر الأسد وزئيره : صوته ووعيده .

* مهلا : تثبت فى الأمر ولا تعجل على . وقوله (وما أثمر من مال) أى أكثر وأصلح ، يقال : ثمر الله ماله ، أى كثره .
* الكفاء : النظير والمثل . تأثفك : اجتمعوا حولك من الأثافى متعاونين على . والرفد : أن يترافد عليه أعداؤه الذين وشوا به ، أى يتعاونون عليه .
* الفرات : نهر معروف . الغوارب : الأمواج ، وغارب كل جسم : ما ارتفع منه وعلا . والعبرين : الناحيتين ، عبرا النهر : جانباه . والزبد : ما يطرحه النهر ، إذا جاش ماؤه ، واضطربت أمواجه .
* قوله : (يمده كل واد) أى يزيد فيه ويقويه . والمترع : المملوء ، واللجب : ذو الصوت لشدة جرية وقوة سيله . والركام : ما تراكم بعضه على بعض ، أى تراكب . والينبوت والخضد : نبتان ، وقيل : الينبوت : شجر الخروب ، وقيل الخضد : كل ما تكسر من الشجر وغيره .
* قوله : (يظل من خوفه) أى من خوف الفرات ، لاضطراب أمواجه وشدة هوله . والمعتصم : المستسم . والخيزرانة هاهنا : سكان السفينة . والأين : الإعياء . والنجد : العرق والكد والكرب .
* السيب : العطاء . والنافلة : الفضل ، وكل شئ ليس بواجب نافلة .
* الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها الملوك .
* عذرة : اعتذار .

المعلقة العاشرة

عبيد بن الأبرص

عبيد بن الأبرص

يرجع نسبه إلى قبيلة سعد بن ثعلبة ، إحدى قبائل بنى أسد التى كانت تنزل فى شمال نجد . والتى تحكمها أسرة كندة اليمنية التى ينتمى إليها امرؤ القيس . وكان عبيد معاصرا الحُجر أبى امرئ القيس وآخر ملوك هذه الأسرة ، وكان من بين الذين اشتركوا فى ثورة قبيلته عليه وقتله والقضاء على حكم أسرته لبلادهم . وقد تحول مع الأحداث التى شهدتها المنطقة فى هذه المرحلة من تاريخها إلى " شاعر الثورة " الذى يسجل أحداثها ، ويتغنى بدور قبيلته فيها ، ويهاجم الأسرة اليمنية الحاكمة ، ويسخر من آخر أمرائها امرئ القيس فى محاولاته الضائعة للثأر لأبيه ، واسترداد عرش أسرته . وفى شعره ما يدل على أنه شارك فى المعركة الأخيرة التى قُتل فيها حُجر ، وفى منها امرؤ القيس هاربا بعد مصرع أبيه ، وهزيمة جيشه .

وليست بين أيدينا أخبار كثيرة عن حياة عبيد ، فالروايات العربية القديمة لا تذكر شيئا له قيمته التاريخية عن حياته ، وكثير مما تذكره يبدو عليه طابع الأساطير والأقاصيص الشعبية التى تتناقلها الشعوب دون تأكد من صحتها ، أو توثيق لها ، وربما كانت أصح هذه الأخبار مشاركته فى ثورة قبيلته على أسرة كندة التى انتهت بمصرع آخر ملوكها ، ففى الروايات التاريخية التى تحدث بها الإخباريون ما يؤكدها ، وكذلك فى قصائده ومقطوعاته التى وثقها الباحثون .

ولقد لقى عبيد مصرعه على يد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى " يوم بؤسه " الذى تحدثنا عنه هذه الروايات . فقد كان لهذا الملك الطاغية الطى كان وراء إخفاق امرئ القيس فى محاولاته استرداد عرش أسرته الضائع يومان فى السنة معروفان بيوم البؤس ويوم النعيم ، وكان قدرُ أول ما يصادفه فى يوم

بؤسه أن يقتله ، وحظ أول من يلقاه فى يوم نعيمه أن يحسن إليه ويجزل له العطاء ، وشاء قدر عبيد أن يخرج إليه فى أحد أيام بؤسه ، فكانت نهايته الحزينة وهو ينشد ناعيا نفسه :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يُبدى ولا يُعيد

وكما هو الشأن مع كل الشعراء الجاهليين ليس من اليسير تحديد سنة وفاته بالضبط ، ولكن إذا وضعنا فى تقديرنا هذه الرواية التى تتحدث عن مصرعه على يد المنذر ، فإننا نستطيع أن نقترب من الحقيقة . فقد قُتل المنذر فى بعض حروبه مع الحارث الغسانى ملك الغساسنة - كما يحدثنا المؤرخون البيزنطيون - فى سنة ٥٥٤ للميلاد . ومعنى هذا ان عبيدا لابد أن يكون قد قتل قبل هذا التاريخ وإن يكن من الصعب بعد ذلك أن تحدد السنة التى قتل منها .

وعبيد أحد الشعراء الكبار الذين عرفهم الشعر الجاهلى فى المرحلة الأولى الثابتة من تاريخه ، مرحلة عصر البسوس . وقد وضعه ابن سلام فى الطبقة الرابعة من فحول العصر الجاهلى مع طرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى بن زيد ، وذكر أنهم أربعة فحول " موضعهم مع الأوائل " وإنما أضل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة . ويضعه بعض الرواة بين شعراء المعلقات ، ويجعلون قصيدته " أقفر من أهله محلوب " إحدى المعلقات العشر ، وإن يكن بن قتيبة فى " الشعر والشعراء " يجعلها من المعلقات السبع .

ويدور شعر عبيد الذى وصل إلينا حول موضوعات قبلية أكثرها فخر بها ، وبصفة خاصة فى الصراع الذى دار بينها وبين بنى أسد ، والذى انتهى بمصرع الملك . ويتردد فى حديث هذا الصراع تهديد لامرئ القيس يشو به غير

قليل من السخرية منه ومن قدرته على استرداد عرش أسرته الذى ضاع إلى الأبد .

كما تردد فى شعره أحاديث كثيرة عن مرحلة شبابه الذى ولى ، وما شهدته من بطولات ، وما مر به فيها من تجارب ومغامرات . وأيضا يتردد فيه وصف الطبيعة الصحراوية ،وبصفة خاصة المَطر . من حين إلى حين تتردد أبيات متناثرة من الحكم يسجل فيها خلاصة تجربته فى حياته الطويلة .

وقد لاحظ المستشرق الإنجليزى ليال " Lyall " فى مقدمته الدقيقة التى صدر بها ديوانه الذى حققه ونشره سنة ١٩١٣ أن معظم قصائده يبدو عليها أنه نظمها وهو متقدم فى السن ، حيث يتراءى فيها شيخا كبيرا ينظر إلى شباب يعده أجمل مراحل حياته ، كما لاحظ أن لغة قصائده تكشف عن شخصيته ذاتية بارزة ، وأنه فى كثير من قصائده يلتزم منهجا ثابتا يتناول من خلاله موضوعات واحدة ، وأن هناك تشابها موضوعيا واحدا واضحا بينه وبين معاصره امرئ القيس ، وأن الشاعرين يستمدان من ذخيرة شعرية واحدة فى العبارات والموضوعات ، أو يعالجان موضوعاتها معالجة واحدة . وانتهى من ذلك إلى توثيق أكثر شعره .

عبيد من الأبرحى من أقدم الشعراء الجاهليين ، وقد عاصر حُجرا أمير كندة ووالد امرئ القيس ، وينتمى عبيد إلى سعد بن ثعلبة من قبيلة أسد الذين كانوا يسكنون فى شمالى الجزيرة العربية .

وأخبار عبيد قليلة فى المصادر المختلفى ، وكذلك أشعاره ، وإن وضعه معظم العلماء فى مرتبة الشعراء الفحول ، وأبرز ما فى شعره الوصف وخاصة

وصف الرياح والأمطار ، وكذلك الحكمة التى يودع فيها تجارب حياته ، والأحداث التى تعرضت لها قبيلته فى عهده . ومنها مقتل حجر ونزاع القبيلة مع إمارة الغساسنة وملكها الحارث الأعرج .

وهذه القصدية التى بين أيدينا يعدها بعض العلماء الأقدمين من المعلقات التى مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

وهى تعبر عن تجربة ذاتية عميقة فى الحياة الإنسانية ، ويصوغ مقدمته فى حكمة خالدة حين يصور الأرمن بعد أن أصبحت خالية من ساكينها ممن يحب وأصبحت خلاء منهم وخلاء من مظاهر الحياة فانتابها الجدب والقحط ، وهكذا حال الدنيا ، كل من بيده نعمة سوف يفقدها ، وكل من أمل فى شئ سيأتيه يوم لا يتحقق فيه هذا الأمل . وكل إنسان فى يده ثروة أو استحدثها عن طريق السلب والغنيمة ، سيأتى يوم يضطره للتخلى عن ذلك لغيره حين تنتهى أيام الحياة المعدودة ويمثل الموت . وكل مغترب عن داره وأهله إن كانت ساعته لم تحن بعد سيعود ، ولكن من لا يعود أبدا هو الذى استأثر به الموت . وعلى العاقل أن بفرق بين الغث والسكين فلا يعدل بين المرأة العاقر والولود ، او بين المنتصر فى ساحة القتال والمنهزم ، وإن كان حظ الإنسان ليس خاضعا لمراميه فقد ينجح العاجز فى حياته ، وقد يفشل الذكى الأريب ، والدهر وحده هو الذى يكسب الناس التجربة الصادقة التى تنفعهم ، أما أن يعظهم الناس فهذا مالا ينفعهم لأن الإنسان بطبيعته يستكبر على الوعظ ، والعقل على أية حال لا يكتسب اكتسابا وإنما هو طبيعة فى الإنسان .

وعواطف الإنسان متغيرة ، فمن تبغضه اليوم قد تحبه غدا ، ومن تحبه اليوم قد تبغضه غدا ، وإذا كنت مقيما فى أرض غير أرضك فلابد أن تعين أهلها على أمورهم ، وتشاركهم فى حياتهم ولا تنعزل عنهم بدعوى أنك غريب وقد يكون الغريب عنك نسبا ودارا مخلصا لك مواصلا لموتك ، بينما ينقطع عنك الغريب فى النسب والمواطن . وعلى العاقل ألا يتعرض لسؤال الناس فهم كثيرا ما يحرمونه ولا ينيلونه ما يشتهى ، ولكن الله وحده يعضى من يشاء ، وهو بلا شريك يعلم ما تخفى النفوس ، ويظل المرء فى حياته نهب القلق لا يتأكد من شئ لتلون الحياة واضطرابها ، فلما يؤمل الإنسان طول العمر وفى هذا الطول تعذيب دائم له ؟

تَصبو وَأنّى لَكَ التَّصابي	أنّى وَقد راعَكَ المَشيبُ
فَإنْ يَكُنْ حَالَ أجْمَعُهَا	فَلا بَدِيٌّ وَلاَ عَجِيبُ
أو يَكُ أقفَرَ مِنها جَوُّها	وَعادَها المَحلُ وَالجُدوبُ
فَكُلُّ ذي نِعمَةٍ مَخلوسٌ	وَكُلُّ ذي أمَلٍ مَكذوبُ
وَكُلُّ ذي إبِلٍ مَوروثٌ	وَكُلُّ ذي سَلَبٍ مَسلوبُ
وَكُلُّ ذي غَيبَةٍ يَؤوبُ	وَغائِبُ المَوتِ لا يَؤوبُ

كيف لك بهذا التصابى وقدراعك المشيب وفاجأك وأذنك ؟ولا غرابة أن أصبحت الأرض خلاء وتركها أهلها ، وهذه ليست أول أرض تصبح على هذا الحال وأصابها القحط فكل شئ لزوال ، وكل بداية لابد لها نهاية ، وكل هذا الحال وأصابها القحط فكل شئ لزوال ، وكل بداية لابد لها نهاية ، وكل من سلب شيئا سوف يسلب منه ، فالموت يأتى على كل شئ ..

أعاقِرٌ مِثلُ ذاتِ رِحمٍ   أم غانِمٌ مِثلُ مَن يَخيبُ
مَن يَسْألِ النّاسَ يَحرموه   وَسائلُ اللهِ لا يَخيبُ
باللهِ يُدرَكُ كُلُّ خَيْرٍ   وَالقَوْلُ فِى بَعْضِهِ تَلْغِيبُ
وَاللهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ   عَلّامُ مَا أَخْفَتِ القُلوبُ
أَفلِحْ بِمَا شِئتَ قَد يُبلَغُ   بالضّعفِ وَقَد يُخدَعُ الأريبُ
لاَ يَعِظُ النّاسُ مَن لا يَعِظِ   الدّهرُ وَلا يَنفَعُ التّلبيبُ

إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أنك لو سألت غيرك حرموك مما تسأل ، وإذا سألت الله وجدت عند بغيتك ووصلت إلى مرادك ، فبالله يدرك كل خير ، وبالإنسان لا يدرك شئ ، والله ليس له شريك يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فقد يلبى الله حاجتك دون أن تشعر ، وقد يعطيك دون أن تطلب فهو أعلم بعباده والناس لا تستجيب للنصيحة ولا تلقى إلا بمن يرشدهم أو يوجههم ، وكفاهم الدهر خير واعظ وخير مرشد وموجه ..

وإذا كنت غريبا فى أرض فساعد من حولك ولا تقل إنك غريب بل تعامل معهم وشاركهم فى الأمر تصبح واحدا منهم فرب غريب يكون من معه أقرب الناس إليه وأخلصهم له ، ورب أخ لك لم تلده امك ، فإذا تصالح الإنسان مع نفسه ومع الآخرين أحس بسعادة غامرة وعاش فى صدق مع نفسه ومع من حوله ، وإذا عاش كذوبا خسر نفسه وخسر من معه :

إلّا سَجِيّاتِ ما القُلوبِ   وَكَم يَصيرَنَّ شانِئاً حَبيبُ
ساعِد بِأَرضٍ إِنْ كُنْتَ فِيهَا   وَلا تَقُل إِنّني غَريبُ

قَد يوصَلُ النازِحُ النائي وَقَد ... يُقطَعُ ذو السُهمَةِ القَريبُ

وَالمَرءُ ما عاشَ في تَكذيبِ ... طولُ الحَياةِ لَهُ تَعذيبُ

يارُبَّ ماءٍ وَرَدتُ آجِنٍ ... سَبيلُهُ خائِفٌ جَديبُ

ريشُ الحَمامِ عَلى أَرجائِهِ ... لِلقَلبِ مِن خَوفِهِ وَجيبُ

قَطَعتُهُ غُدوَةً مُشيحا ... وَصاحِبي بادِنٌ خَبوبُ

إذا كنت فى أرض فأعن أهلها على أمورهم ، وعش كيف شئت فلا عليك ألا تبالغ فقد يدرك الشعيف بضعفه ملا يدرك القوى ، وقد يخدع الأريب العاقل عن عقله ، ومن لم يتعظ بالدهر فإن الناس لا يقدرون على عظته .

وقوله : (إلا سجيات ما القلوب) قال ما صلة يقول لا ينفع إلا ما كانت سجيته اللب ، وساعد من أصله غير أصلك ، ودارهم ما دمت فى دارهم وإلا أخرجوك من بينهم ، ولا تقل إننى غريب من بينهم ، وآتهم على أمورهم كلها ، ولا تقل لا أفعل ذلك لأننى غريب ، فلا يمنعك إذا كنت فى عززبة ان تخالط الناس بالمساعدة لهم .

الحياة كذب وطولها عذاب على من أعطيها لما يقاس من الكبر وغيره من عير الدهر ، ومن نعمره ننكسه فى الخلق ..

ثم هو يصف عيرانته ويصف حاركها أى منسجها بالإشراف والملاسة أتى عليها سنة بعدما بزلت والسديس بعد البازل ، والبازل بعده فإذا جاز البزول

بعد عام قيل مخلف عام ومخلف عامين وأعوام ، يقول سقط السديس وأخلف مكانه البازل ، والحفنة المسنة .

عَيْرَانَةٌ مُوجَدٌ فَقَارُهَا كَأَنَّ حَارِكَهَا كَثِيبُ

أَخْلَفَ بَازِلاً سَدِيسٌ لا خُفَّةٌ هِيَ ولا نَيُوبُ

كَأَنَّهَا مِنْ حَمِيرِ غَابٍ جَوْنٍ بِصَفْحَتِهِ نُدُوبُ

أَوْ شَبَبٌ يَرْتَعِي الرُّخَامَ تَلُفُّهُ شَمَالٌ هَبُوبُ

فَذَاكَ عَصْرٌ وَقَدْ أَرَانِي تَحْمِلُنِي نَهْدَةٌ سُرْحُوبُ

هذه الناقة حمار جون ، والجون يكون أبيض وأسود .

وقوله : (فذاك عصر) أى ذاك دهر قد مضى فعلت فيه ذلك ونهده فرس مشرفة وسرحوب سريعة السير سمحة وقيل طويلة الظهر .

مُضَبَّرٌ خَلْقُهَا تَضْبِيرًا يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِهَا السَّبِيبُ

زَيْتِيَّةٌ نَائِمٌ عُرُوقُهَا وَلَيِّنٌ أَسْرُهَا رَطِيبُ

كَأَنَّهَا لِقْوَةٌ طَلُوبُ تَيْبَسُ فِي وَكْرِهَا الْقُلُوبُ

بَاتَتْ عَلَى إِرَمٍ عَذُوبًا كَأَنَّهَا شَيْخَةٌ رَقُوبُ

فَأَصْبَحَتْ فِي غَدَاةٍ قُرٍّ يَسْقُطُ عَنْ رِيشِهَا الضَّرِيبُ

فَأَبْصَرَتْ ثَعْلَبًا سَرِيعًا وَدُونَهُ سَبْسَبٌ جَدِيبُ

إنها حادة البصر فناصيتها لا تستر بصرها ، وهى غليظة فى اللحم ولين أسرها أى بها الذى خلقها الله . وهى سريعة . باتت لا تأكل ولا تشرب كأنها

عجوز ثكلى يمنعها الثكل من الطعام و الشراب ، وضربت الأرض إذا أصابها الضريب ، والضريب الذى يقع فى الشتاء بالليل ، فرأت ثعلبا بعيدا ، ودونها الأرض واسعة .

فَنَفَضَتْ رِيشَهَا وَوَلَّتْ وَهْيَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبُ

فَاشْتَالَ وَارْتَاعَ مِنْ حَسِيسٍ وَفِعْلَهُ يَفْعَلُ الْمَذْؤُوبُ

فَنَهَضَتْ نَحْوَهُ حَثِيثًا وَحَرَّدَتْ حَرْدَهُ تَسِيبُ

فَدَبَّ مِنْ خَلْفِهَا دَبِيبًا وَالْعَيْنُ حِمْلَاقُهَا مَقْلُوبُ

فنفضت ريشها سريعا ، ويقول : انفضت الجليد عن ريشها ، والنهضة الطيران حين رأت الصيد بالغداة وقد وقع عليها الجليد فنشرت ريشها وانتفضت رمت بذلك عنها ليمكنها الطيران ، وإنما خص بها الندى والبلل لأنها أنشط ما تكون فى يوم الطل ، أو لأنها تسرع إلى أفراخها خوفا عليها من المطر والبرد كما قال :

لا يأمنان سباع الليل أو بردا إن أظلما دون أطفال لها لجب

وبيت عبيد يدل على خلاف هذا ، لأنه لم يقل إنها راحت إلى أفراخها بل وصفها بأنها أصبحت والضريب على ريشها فطارت إلى الثعلب .

وقوله : فاشتال يعنى أن الثعلب رفع بذنبه من حسيس العقاب ، والمذؤود والمزؤود الفزع .

وقوله : فنهضت نحوه حثيثا يعنى نهضا حثيثا ، وقال طارت نحو الثعلب سريعة وجردت فصدت وتسبب تنساب .

وقال دب يعنى الثعلب لما رآها ، ودب من خوفها دبيبا ، والحماليق عروق فى العين ، يقول من الفزع انقلب حملاق عينه ، وقيل الحملاق جفن العين ، وقيل الحملاق ما بين الموقين ، وقيل هو بياض العين ماخلا السواد ، وقيل العروق التى فى بياض العين .

فأدْرَكْتْهُ فَطَرَّحَتْه وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِها مَكْرُوبُ
فَجَدَّلَتْهُ فَطَرَّحَتْه فَكَدَّحَتْ وَجْهَهُ الجَبُوبُ
فَعاوَدَتْهُ فَرَفَّعَتْه فَأرْسَلَتْهُ وَهْوَ مَكْرُوبُ
يَضْغُو ومِخْلَبُهَا في دَفِّهِ لاَ بُدَّ حَيْزُومُهُ مَنْقُوبُ

فأدركته فضرجته ، وجدلته طرحته بالجدالة وهى الأرض ، والضغاء صوت الثعلب ومخلبها ظفرها ودفه جنبه والحيزوم الصدر ، يقول : لابد حين وضعت مخلبها فى دفه أنه منقوب ولابد لاشك عن الفراء .

وهذه القصيدة تدور أبياتها فى جو الصراع الذى اشتعلت نيرانه بين أسد وكنرة بعد مصراع حجر الملك ، وخروج ابنه امرئ القيس لمعركة الثأر ، وفيها يسخر الشاعر من تهديد امرئ القيس لقومه ، وينكر عليه ما يدعيه من أنه سجل نصرا عليهم ، ويفتخر بقومه وشجاعتهم وثباتهم فى الحروب ، وحرصهم على كرامتهم والذود عنها ، ويذكره بأيام دارت بينهم وانتصروا فيها عليهم . ثم يعود فى النهاية فيسجل منزلة قومه بين القبائل العربية عامة ، وما بلغوه من مجد وشرف وبطولة .

والقصيدة تدور كلها حول هذا المحور فى وحدة موضوعية متماسكة ، فلا مقدمة ، و لاتعدد فى الموضوعات ، ولا خروج من موضوع إلى موضوع ، وإنما ترابط وتلاحم وتسلسل بين الأبيات حتى آخر بيت منها .

يا ذا المخوفنا بقتـ ـل إبيه إذلا لا وحينا
أزعمت أنك قد قتلـ ـلت سراتنا كذبا ومينا ؟
لوما على حجر ابن أم قطام تبكى لا علينا
إنا إذا عض الثقا فُ براس صعدتنا لوينا
نحمى حقيقتنا . وبعـ ـض القوم يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كنـ ـدة إذا تولوا : أين أينا ؟
أيام نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملو ك أتينهم وقد انطوينا
لحقا أباطلهن قد عالجن أسفار وأينا
ولقد صلفن هوازنا بنواهل حتى أرتوينا
نُعليهم تحت الضبا ب المشرفى إذا اعتزينا
نحن الألى فاجمع جمو عك ثم وجههم إلينا
واعلم بأن جيادنا آلين لا يقضين دينا

ولقد أبحنا ما حميـ	ـت ولامبيح لما حمينا
هذا ولو قدرت عليـ	ـك رماح قومى ما انتهينا
حتى تنوشك نوشة	عاداتهن إذاانتوينا
تغلى السباء بكل عا	تقة شمول ما صحونا
ونهين فى لذاتها	عُظم التلاد إذا انتشينا
لا يبلغ البانى - ولو	رفع الدعائم - ما بنينا
كم من رئيس قد قتلـ	ـناه وضيم قد أبينا
ولرب سيد معشر	ضخم الدسيمة قد دمينا
عقبانه بظلال عقـ	ـبان تُيمم من نوينا
وأوانس مثل الدمى	حور العيون قد استبينا
إنا لعمرك لا يضا	مُ حليفنا إبدا لدينا

الهوامش

* قوله : تصبو من الصبوة يعنى العشق . وأنى لك أى كيف لك بهذا بعدما صرت شيخا . وراعك : أفزعك .
* حالت : تغيرت عن حالها . والبدى : المبتدأ وقد يكون بمعنى عجيب .
* جودها وسطها وعادها أصابها وأصله من عيادة المريض . والمحل والجدب واحد .
* المخلوس والمسلوب واحد . وكل ذى أمل مكذوب أى لا ينال كل ما يؤمل .

* موروثها : أى يرثها غيره . ومعنى كل ذى سلب مسلوب أن من كان له شئ سلبه من غيره فيسلب منه يوما ما أيضا ، ولم يدم ذلك له أى يأتى عليهم الموت .
* يؤوب أى يرجع .
* قوله : أعاقر مثل ذات رحم ، وقيل مثل ذات ولد والولد بكسر الراء وسكون اللام لغة فى الولد ، وأراد بذات رحم الولود أى لا تستوى التى تلد والتى لا تلد ، ولا يتساوى من خرج فغنم ، ومن خرج فرجع خائبا.
* أفلح بما شئت : عش كيف شئت فلا عليك ألا تبالغ فقد يدرك الضعيف بضعفه ما لا يدرك القوى ، وقد يخدع الأريب العاقل عن عقله .
* من لم يعظ الدهر : من لم يتعظ بالدهر فإن الناس لا يقدرون على عظته . والتلبيب : تكليف اللب من غير طباع ولا غريزة .
* ساعد : من المساعدة أى ساعدهم ودارهم ما دمت فى دارهم وإلا أخرجوك من بينهم .
* النازح والنائى واحد .
* الحياة كذب وطولها عذاب على من أعطيها لما يقاس من الكبر وغيره من غير الدهر .
* صرى وآجن : متغير . خائف بمعنى خوف المسلك .
* أرجاؤه : نواحيه . الوجيب : الخفقان .
* مشيحا أى مجدا . وبادن ذات بدن . وخبوب من خب فى سيره إذا قطعه .
* الموجد : التى يكون عظم فقارها واحد . ومضبر : موثق . والفقار : جزر الظهر . وحاركها : منسجها . والكثيب : الرمل .

* أخلف : أتى عليها سنة بعدما بزلت ، والسديس بعد البازل والبازل بعده فإذا اجاز البزول بعده بعام قيل مخلف عام ومخلف عامين وأعوام ، ويقول : سقط السديس وأخلف مكانه البازل . والخفة : المسنة .
* الجون يكون أبيض وأسود . وصفحته جنبه . وغاب : اسم مكان . وندوب آثار العض .
* الشيب الذى قد تم شبابه . وسنه والرخامى : نبت . وتلفه يعنى تلف الثور ولفها إتيانها إياه من كل وجه . والهبوب : الهابة .
* فذاك عصر : أى ذاك دهر قد مضى فعلت فيه ذلك . ونهدة فرس مشرفة . وسرحوب : سريعة السير سمحة وقيل طويلة الظهر .
* كميت : موضع . تضبير ومضبر موثق .
* نائم عروقها وناعم أى ساكنة . نائم عروقها : غليظة فى اللحم .
* تييس فى دكرها القلوب : تخر فى دكرها . واللقوة : العقاب سميت بذلك لأنها سريعة . والقلوب يعنى قلوب الطير .
* الأروم : العلم . العذوب : الذى لا يأكل شيئا . والرقوب : التى لا يبقى لها ولد .
* ينحط : موضع . والضريب : الجليد . وضربت الأرض إذا أصابها الضريب ، الذى يقع فى الشتاء بالليل كالقطن .
* الشناخيب : رؤوس الجبال .
* النهضة : الطيران .
* قوله فاشتال يعنى أن الثعلب رفع بذنبه من حسيس العقاب . والمذؤود والمزؤود الفزع .
* نهضت نحوه حثيثا يعنى نهضا حثيثا . وتسبب تنساب .

* الحماليق : عروق فى العين يقول من الفزع انقلب حملاق عينه وقيل الحملاق جفن العين ، وقيل هو بياض العين ما خلا السواد ، وقيل العروق التى فى بياض العين .
* فأدركته فضرجته .
* الجبوب : قالوا هى الحجارة ، وقيل الأرض الصلبة ، وقيل القطعة من المدد . وجدلته : طرحته بالجدالة وهى الأرض .
* الضغاء : صوت الثعلب . ومخلبها ظفرها . ودفه جنبه . والحيزوم : الصدر .

أشهر القصائد

أشهر القصائد

أشهر قصائد الشعر الجاهلى هى تلك المجموعة التى عُرفت " بالمعلقات " وهى أقدم مجموعة من مجموعات الشعر الجاهلى التى وصلت إلينا من عصر التدوين فى القرن الثانى الهجرى ، قام باختيارها وجمعها راوية الكوفة المشهور حماد الراوية .

ويختلف العلماء حول تفسير هذه التسمية وتعليلها ، ولهم فى ذلك محاولات متعددة ، أشهرها محاولتان ، تذهب إحداهما إلى أن السبب فى هذه التسمية أنها كانت مكتوبة منذ العصر الجاهلى بماء الذهب فى صحف من الكتان المصرى كان يصنعها أقباط مصر أو - على حد عبارتهم - " فى قَباطِى مُدرجة " ، وأنها كانت معلقة بأستار الكعبة تقديرا لقيمتها الفنية واعتزازا من العرب بها . وتذهب الأخرى إلى أنها سميت بهذا الاسم لأنها كانت معلقة فى خزائن ملك من ملوك العررب لم تحدد الروايات اسمه ، ولعله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، اختارها من بين قصائد الشعر الجاهلى الت كانت تلقى فى سوق عكاظ ، وأمر بتعليقها فى خزائنه إعجابا بها وحرصا عليها من الضياع . وربما كان الذى أطلق عليها هذه التسمية هو حماد الراوية تشبيها لها بالقلائد والعقود التى تعلقها المرأة على جيدها للزينة ، ولذلك سماها أيضا " السُمُوط " وهى مرادف لغوى لكلمة " المعلقات " وكأنما كان حماد يشير بهذين الاسمين إلى أنها أجود ما فى الشعر الجاهلى ، وأنها القلائد النفيسة والعقود الثمينة فى جيد هذا الشعر .

وعدد المعلقات فى المجموعة التى رواها حماد سبع معلقات :

(١) معلقة امرئ القيس (٨٢) بيتا

قفا نبك من ذكرى الحبيب بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٢) ومعلقة طرفة بن العبد (١٠٦) بيتا

لخولة أطلال ببرقة ثهمد　　　تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

(٣) ومعلقة زهير بن أبى سلمى (٥٩) بيتا

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم　　　بحومانة الدراج فالمتثلم

(٤) ومعلقة لبيد (٨٩) بيتا

عفت الديار محلها فمقامها　　　بمنى تأبد غولها فرجامها

(٥) ومعلقة عنترة (٨٠) بيتا

هل غادرت الشعراء من متردم　　　أم هلى عرفت الدار بعد توهم

(٦) ومعلقة عمرو بن كلثوم (٩٦) بيتا

ألا هُبى بصحنك فاصبحينا　　　ولا تُبقى حمور الأندرينا

(٧) ومعلقة الحارث بن حلزة (٨٥) بيتا

آذنتنا ببنيها أسماء　　　رُب ثاو يُمل منه الثواء

ثم أضيفت إليها بعد ذلك عند بعض الرواة ثلاث قصائد أخرى ، فاكتملت بهذا عشرا ، وهى - على حسب رواية البتريزى لها فى شرحه عليها :

(٨) معلقة الأعشى (٦٣) بيتا

ودع هريرة إن الركب مرتحل　　　وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٩) ومعلقة النابغة الذبيانى (٥٠) بيتا

يا دار مية بالعلياء فالسند　　　أقوت وطال عليها سالف الأبد

(١٠) ومعلقة عبيد بن الأبرص (٤٨) بيتا

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

وبين الرواة اختلاف حول طائفة منها ، فهى فى رواية المفضل الضبى سبع معلقات ، ولكنه يسقط منها معلقتى الحارث وعنترة ، ويثبت مكانهما معلقتى الأعشى والنابغة السابقتين ، ولكن أبا زيد القرشى فى " جمهرة أشعار العرب " يضع بدلا منها قصيدتين أخرتين لهما ، فيضع للأعشى لاميته :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى

ويضع للنابغة رائيته :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وبعض الرواة يسقط معلقة عبيد ولا يعترف بها بين المعلقات على نحو ما فعل أبو زيد القرشى فى " الجمهرة " وأبو جعفر بن النحاس فى شرحه على المعلقات ، وهى تسع عنده . وهناك اختلاف آخر بين الرواة فى عدد أبياتها وترتيبها وفى رواية ألفاظها ، وهو اختلاف مألوف فى نصوص الشعر الجاهلى كلها ، وهو أيضا طبيعى لوصولها إلى عصر التدوين عن طريق الرواية الشفوية على ألسنة أكثر من راو . والعدد الذى أخذنا به هنا هو ما أخذ به التبريزى فى شرحه عليها .

والأمر الذى لا شك فيه أن هذه المعلقات من أجود نصوص الشعر الجاهلى ، ومن أطول قصائده . وهى - إلى جانب ذلك - لمجموعة من أكبر شعرائه من قبائل مختلفة ، ومن مراحل زمنية مختلفة ، وأيضا من مذاهب فنية مختلفة ، فهى بهذا تعطى مساحة واسعة من الجزيرة العربية ، وتستعرض

مراحل العصر الجاهلى الأدبى من بدايته حتى نهايته ، من امرئ القيس وعبيد وهما من أقدم شعراء هذا العصر ، إلى الأعشى وهو من آخر شعرائه ، إلى لبيد الذى امتد به الأجل حتى أدرك الإسلام . وهى أيضا تمثل مدارس الشعر الجاهلى الثلاث :

مدرسة الطبع التى يمثلها امرؤ القيس وعبيد وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة . ومدرسة الصنعة التى يمثلها زهير والنابغة وعنترة . ومدرسة التقليد التى يمثلها الأعشى والبيد ، فهى - من هذه الناحية - تعرض صورة واضحة دقيقة للتطور الفنى الذى مر به الشعر على امتداد العصر االجاهلى .

فضائل وأخلاقيات

حكم وأمثال

فضائل وأخلاقيات

وقد اخترت من بليغ الشعر الجاهلى هذه القصائد العشر لأشهر الشعراءالجاهليين وهم امرؤ القيس بن حُجر الكندى ، وزهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد البكرى ، وعنترة بن شداد العبسى ، والحارث بن حلزة اليشكرى ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الذبيانى ، والأعشى الأكبر ، وعبيد بن الأبرص ... وهؤلاء الشعراء هم أظهر من يستشهد بشعرهم فى الأدب واللغة وعلوم العربية وفنون البيان .

وهى للمرة الأولى يبحث فى مكارم الأخلاق التى تضمنها شعر فحولة الشعراء الجاهليين ، وأبدع ما انتجته قرائهم ، وهو يدل ضمنا على ما أنتجه جميع الشعراء فى هذا العصر على اهتمامهم بإعلان مكارم الأخلاق التى كانت سائدة فى عصرهم ، وهى النواة التى ارتكزت عليها كل الأخلاقيات الفاضلة بعد ذلك وفى العصور التى تلت العصر الجاهلى ، وإن كناقد غفلنا من قبل على بحث هذه الظاهرة فى الشعر الجاهلى ، فهذا يدل على أن باب البحث والدراسة لن يوصد فى وجه الباحثين والدارسين لهذا الشعر الجاهلى ، بل يظل الباب مفتوحا دوما فى استخراج كنوزه وفك مغاليقه ...

هذا الشعر الجاهلى الذى اتخذه الشعراء فى مختلف العصور أصلا يحتذون حذوه وينهجون نهجه ، ويبنون عليه ويقلدونه فى مناهجه الفنيهة والأدبية تقليدا كبيرا . هذا الشعر هو الذى نريد أن نتحدث عن موقف الشعراء الذين انتجوه من مكارم الأخلاق ، فقد أعلنوها وعلينا أن نمعن النظر فى قصائدهم ، وأن نحاول فهم المغزى من وراء معانيهم وألفاظهم وأساليبهم

وطرائقهم فى عرض الموضوعات التى يتناولونها ، وسنجد بعداً يحاول الشاعر أن يصل إليه ، وأن يحققه ، ويتمثل هذا البعد فى إعلان مكارم الأخلاق .

وتدور مكارم الأخلاق حول الفضائل المتمثلة فى الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف والشجاعة والإقدام ، والذود عن المحارم ، والدعوة إلى القتال من أجل إنصاف المظلوم وإظهار الحق ، هذا إلى جانب تمسكهم بالصبرعلى الشدائد والمحن والحظوب والمكاره ، واستبسالهم فى الوصول إلى الحق ورفع رايته ، ثم الفخر بتلك الصفات التى يتصفون بها والتى تميزهم عن غيرهم ممن كان يهاجمهم ..

وأنت تعلم أن كل قبيلة فى الجاهلية كانت ترفع منزلة شاعرها على غيره لأنه يدافع عنها ويحميها ويدعو إلى التحلى بالصفات الكريمة التى تجعلهم فى المقدمة وتجعلهم فى منزلة رفيعة ، من أجل ذلك كانت تذهب القبيلة إلى أن تجعل شاعرهم إمامهم وأولهم فى دولة الشعر ، فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكانوا بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وبكر تقدم المرقش الأكبر . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيرا والنابغة ، ولا يعدلون بالنابغة أحدا ، ولا يعدلون بزهير أحدا ، وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ القيس : هو سابق الشعراء ، ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه ، وكان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ . كانت تأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ، أتاه الأعشى يوما فأنشده ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده ، وقال يا ابن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدته الخنساء :

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم أقفزت إذ خلت من أهلها الدار

فلما بلغت قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال : مارأيت امرأة أشعر منك . قالت : ولا رجلا .. وهكذا .

وجاء الإسلام فكان له ولرسوله الكريم موقف جليل من الشعر الجاهلى ، أنكر بعضا وعرف بعضا ، أنكر هذا الشعر الذى ينافى الأخلاق الكريمة والمثل العليا ، من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المغرق ، والفخر الممعن فى الغلو والمبالغة . وعرف هذا الشعر الذى يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية فى سبيل الأمة والإنسانية ،فكان هذا الموقف الخالد من الإسلام ونبيه العظيم لرسالة الشعر ، وتهذيبا نبيلا للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، ومجال الحق والعدل والحرية والنور ، وهذا ما نسعى إليه وما حاولنا بيانه فى هذا العمل الذى نقدمه لأول مرة . ولقد ظهر أثر الإسلام والقرآن فى تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه ، وفى البعد عن الحوشية والغرابة ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة . كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة وكذلك الشعر المنتقى من أشعار الجاهليين فى عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وخيالاتهم .

وفى عصر دولة بنى أمية انتشرت العصبيات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية ، وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم فعادوا إلى مذاهب الجاهليين واتخذوه أداة للدفاع عن الرأى والعقيدة . وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلى ؛ والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه .

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلى ونقاده فى القرن الثانى الهجرى : أبو عمرو بن العلاء البصرى ، وحماد الراوية الكوفى ، وخلف الأحمر البصرى ويونس البصرى ، والمفضل الضبى ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب " المفضليات " وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين ، وإن كان الراجح أن حمادا سبقه فى هذا الميدان ، ومنهم : ابن الكلبى ، وأبو زيد الأنصارى صاحب كتاب الجمهرة ، وأبو عبيد البصرى صاحب "النقائض" و"مجاز القرآن" والأصمعى البصرى .

كان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكبارا للجاهليين وتعظيما لشأنهم . جلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى . ويروى عنه : لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهليين ما قدمت عليه أحدا وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين . وكان كما يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء أشد الناس تسليما له .

وكتاب ابن سلام مشهور وهو أول عمل أدبى منظم ، وقد قسم الجاهلين عشر طبقات ، ووضع فى الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيرا والأعشى والنابغة . ويذكر ابن سلام فى طبقاته الشعراء الإسلاميين كذلك ويقسمهم طبقات عشرا أيضا .

وقد تعصب العلماء والأدباء فى العصور الوسطى للشعر القديم لقدمه ، فكان يحيطون الشعر الجاهلى بهالة من التقديس والجلالة ، ولا يرون أحدا أحسن مثل إحسان الجاهليين ، ولا أجاد إجادتهم ، ورأوهم معصومين من الخطأ والعيب ، واستمر هذا المذهب سائدا حتى العصر الحديث .

فى الشعر الجاهلى جمال ، وفيه روعة ، وهو صورة من صور الفن والخيال . ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ، لا يمكن الاستغناء عن هذا الشعر القديم ، ففيه البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق فى الأداء ، وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به ، وإلى البحث والدراسة فيه من جوانب عديدة ومختلفة ، فالبحث فى مكارم الأخلاق فيه يدعو إلى الإعجاب والحب والمتعة ، وهذه الميزة تدل على البساطة والإخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسنا له .

وقد جاء أسلوب الشعر الجاهلى متينا جزلا قويا فى معانيه عن الأخلاق الفاضلة والمثل العليا ، ويظهر فيه أثر الحياة والحضارة مما يجعله عذبا رقيقا ، وقد قصد الشاعر الجاهلى فى هذه الفضائل إلى المعنى فى إيجاز ويسر وقلة إطناب .

من أجل ذلك أدعو إلى قراءة الشعر الجاهلى ، وافهموا هذه المثل التى يدعو إليها الشاعر فهما جيدا ، وربوا ذوقكم الأدبى بمداومة قراءتها لتصلوا لإلى المرحلة التى تمكنكم من استنباط الأخلاقيات التى تؤثر فى الشخصية وتكونها ، وتؤدى إلى الذاتية السوية السليمة ، ولتكتمل بذلك النهضة الشاملة .

وأنت ترى حين تقرأهذا الشعر ما يضمنه شعراؤه من القسم على ما يريدون تأكيده ، وأنهم فى قسمهم يعمدون إلى ذكر الله فيقسمون به ولا يحلفون بغيره ، وحتى لو حلفوا بغيره كالقسم بالكعبة فهم يدركون مكانتها عند الله وأنها شيء مقدس فهم يضمرون فى أنفسهم قدرة الله وعظمته المتمثلة فى هذه الأشياء كقول الشاعر :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

فهو يمين مقدس عندهم ، وذكره بذاته فى قصائدهم دليل على تمسكهم به واعتمادهم عليه وإيمانهم بقدرته فمثلا يقول المثقب العبدى فى قصيدته :

وأيقنت إن شاء الإله بأنه ... سيبلغنى أجلادها وقصيدها

وذلك فى مدحه للنعمان ابن المنذر :

ولو علم الله الجبال عصينه ... لجاء بأمراس الجبال يقودها

وكثيرا ما كان العربى يشيد بأنه يكرم الصاحب ، ولا يقرب السوء ، وأنه لا يعرف البخل ، ولا يعرف الجبن ، وإنه يكرم نفسه دائما فى بذل ماله وفى حمل السلاح ساعة الطعان ، يقول ذو الإصبع العدوانى :

أجعل مالى دون الدُّنا غرضا ... وما وهى مِلأمُور فانصدعا

وفى قصيدة له يفخر على ابن عمه بنسبه ، وبأنه رجل أبى عفيف كريم ، طيب النفس حسن الرأى ، ويقسم بأن أحدا لا يستطيع أن يخزيه غير الله ، ولا أحد يستطيع أن يرزقه وأبناءه غير الله ، وأن بابه مفتوح للصديق وغيره ، من قصده يجد عنده الخير كل الخير ، وهو ليس بذى طمع وما فى يده لغيره .

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب ... عنى ولا أنت ديانى فتخزونى
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة ... ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
إنى لعمرك ما بابى بذى غلق ... عن الصديق ولا خيرى بممنون
ولا لسانى على الأدنى بمنطلق ... بالفاحشات ولا فتكى بمأمون
عف يؤوس إذا ما خفت من بلد ... هونا فلست بوقاف على الهون
كل امرئ راجع يوما لشيمته ... وإن تخالق أخلاقا إلى حين
الله يعلمنى والله يعلمكم ... والله يجزيكم عنى ويجزينى

وكان العربى القديم يجول فى صحرائه واقفا وباكيا على الديار التى أصبحت خالية من أصحابها ، فيحن إلى هذه الأيام التى أصبحت ذكرى ، ثم يأخذ فى وصف هذه الديار ووصف أصحابها ، ويسترجع الأيام الماضية فى شوق وحنين ، ولا يجد عزاء له إلا مع ناقته التى تنقله من مكان إلى مكان صابرة على جو الصحراء القاتل ، ويتخذها صديقة له وعونا له فى حله وترحاله ، ثم هو يصف ما حوله من جبال وأكام وغير ذلك ويصف الكلاب والثور والحمر الوحشية ، ويصور لنا مشاهدة الصيد التى تحدث فى هذه الصحراء ، ويعمد إلى الحديث عن الغيث والكلأ وما يسبق ذلك من برق ورعد ، ثم يصف الليل وصفا رائعا يبين من خلاله عن حالته النفسية وما يتركه فيه هذا الليل من أثر .

وأنت تشاهد هذه الصور فى الشعر الجاهلى وتقوم بالتحليل والدراسة لكل ما تشاهد ، ونسينا أن نذكر أمرا مهما فى هذا العرض الشعر القديم ، ذلك أن الشاعر إنما كان يصف ما حوله متأملا ممعنا فى التفكير عن خالق هذه الأشياء ، وهو فى هذا المحراب عابد مفكر متأمل ، ومن هنا كانت مكارم الأخلاق محور قصيدته التى ينشدها ...

إن الإنسان فى الحياة رهن لتقلب هذه الأيام والليالى به ، فلا عليك ولا تجزع إذا رأيت الإنسان وقد تقدمت به السن ، وتغير حاله بعد أن بدأ زحف السنين عليه ، فالدهر يتجه للمرء بعد أن كان فى ماض أيامه يتجه إليه بالقوة والشباب ، فسهام الدهر تصيب ولا تخطئ .

فزعت تكتم وقالت : عجيبا أن رأتنى تغير اليوم حالى

جلح الدهر وانتحى لى وقدما كان ينحى القوى على أمثالى

أقصدتنى سهامه إذ رمتنى وتولت عنه سليمى تبالى

فليس عجيبا أن يتقدم العمر بالإنسان ، ويقترب من نهايته ، فهذه سنة الحياة ، ولكن العجيب أن يتأخر الأجل عما يفترض أنه موعده :

لا عجيب فيما رأيت ولكن عجب من تفرط الأجال

تدرك التمسح المولع فى اللجـ ـة والعصم فى رؤوس الجبال

والفريد المسفع الوجه ذا الجد ة يختار آمنات الرمال

وتصدى لتصدع البطل الأر وع بين العلهاء والسربال

والأروع : الشجاع الذى يرومك بشجاعته . والعلهاء : ثوبان يندف فيهما وبر الإبل يلبسهما المقاتل تحت الدرع . والسربال : القميص يريد به هنا الدرع ، وفى القرآن الكريم أطلقت السرابيل على الدروع : " وسرابيل تقيكم بأسكم " (النمل ٨١)

وهذه عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى فى قصيدة له طويلة تدور حول خلاف بينه وبين زوجته التى تريد فراقه لكبر سنه وقلة ماله .

وهو ينكر عليها هذا التصرف لا يليق بها . ثم ينطلق إلى ذكريات شبابه يستعيدها ويتغنى بها ، وكأنه يذكرها بها لعلها تراجع نفسها وترجع عن موقفها ، يقول :

زعمت أننى كبرت وأنى قل مالى وضن عنى الموالى

وصحا باطلى وأصبحت شيخا لا يواتى أمثالها أمثالى

أن رأتنى تغير اللون منى وعلا الشيب مفرقى وقذالى

در در الشباب والشعر الأسـ ـود والراتكات تحت الرحال

ذاك عيش رضيته وتولى كل عيش مصيره لزوال

صبر النفس عند كل مُلم إن فى الصبر حيلة المحتال

فلا شئ يدوم ، وكل شئ هالك إلا وجهه ، وميمية علقمة بن عبده يقول فيها :

وكل حصن وإن طالت سلامته على دعائمه لابد مهدوم

فلا شئ يستقر على حال ، والناس مختلفون ، منهم الغنى المكثر ومنهم الفقير الذى لا مال عنده ، فلا الفقير يظل فقيرا ، ولا الغنى يظل غنيا ، ويبقى حسن الخلق ، وكريم الخصال ، وعدم إهانة النفس طلبا للحق واكتسابا للمجد ، ولكن يشرف المرء ويكتسب حمد الناس حين يستخدم علمه ويكظم غيظه ، ويصبر على المشقات ، ويعذب النفس فى سبيل الحق والمجد ، يقول السموءل :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

وإن لم يحمل على النفس ضيمها   فليس إلى الحسن الثناء سبيل

يقرب حب الموت آجالنا لنا   وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات مناسيد حتف أنفه   ولا طل مناحيث كان قتيل

وللشاعر طرفة بن العبد مجموعة من الحكم تعكس إحساسه بالحياة ، يقول فيها إن الموت مورد لابد أن ترده كل نفس ، وهو مورد لا ينقطع ورود الأحياء له ، فمن لم يرده اليوم فسوف يرده غدا ، وما أقرب اليوم من غد :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى   بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول المتلمس الشاعر الجاهلى فى أبيات مختارة تصور نظرة الجاهلى إلى الموت والدعاء للميت بأن يسقى الغيث قبره :

خليلى إما مت يوما وزُحزحت   منايا كما فيما يُزحزحه الدهر

فمرا على قبرى فقوما فسلما   وقولا : سقاك الغيث والقطر يا قبر

كأن الذى غيبت لم يله ساعة   من الدهر والدنيا لها ورقٌ نضر

وهذا عمرو بن كلثوم يشيد بقوته وكرامته وبأس قومه ، ويفخر بقبيلته ولا يقبل الخسف والظلم . يقول :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

إذاما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن نقر الخسف فينا

نسمى ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

إذا بلغ الفطام لنا رضيع ... تخر له الجبابر ساجدينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤه سفينا

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أما ذو الإصبع العدوانى ، فهو شاعر جاهلى قديم ، عمر دهرا ، وهو فارس مذكور وحكيم كانت تحتكم إليه العرب ، وله وقائع كثيرة سجلتها له بعض روايات العصر الجاهلى .

وهو هنا يصور الدهر الذى لا يدوم على حال ، وهو يتحكم فى البشر بلينه وغلظته حسب إرادته :

أمسى تذكرها من بعد ما شحطت ... والدهر ذو غلظة حينا وذو لين

ويخاطب ابن عمه وأنه لا يفضله فى حسب حتى يخزوه ويقهروه ، وحتى يعطيه أو يمنعه فالله هو المعطى وهو المانع ، وهو المعز وهو المذل ، ولا يفتأ يذكر الله حتى تشعر بإيمانه به وبقدرته عليه :

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب ... عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

ولا تقوت عيالى يوم مسغبة ولا بنفسك فى العزاء تكفينى

فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتى فإن ذلك مما ليس يشجينى

ولا يرى فى غير الصبر منقصة وما سواه فإن الله يكفينى

لولا أواصر قربى لست تحفظها ورهبة الله فى حولى يعادينى

إذن برتيك بريا لا انجبار له إنى رأيتك لا تنفك تبرينى

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ولا خيرى بممنون

عف يؤوس إذا ما خفت من بلد هونا فلست بوقاف على الهون

ولا لسانى على الأدنى بمنطلق بالفاحشات ولا فتكى بمأمون

عنى إليك فما أمى براعية ترعى المخاض ولا رأيى بمغبون

كل امرئ راجع يوما لشيمته وإن تخالق أحيانا إلى حين

عندى خلائق أقوام ذوى حسب وآخرون كثير كلهم دونى

يارب ثوب حواشيه كأوسطه لا عيب فى الثوب من حسن ومن لين

إنه كريم النفس لا يطمع فيما ليس له ، وأمه ليست جارية ترعى الغنم ، وهو ينـأى بنفسه عن التحاور مع ابن عمه أو مناقشته لأنه يضيق به ، وهو واضح كالكتاب لا يظهر أمام الناس خلاف ما يبطن ، وعنده مايرضى الكرام من طيب أخلاقه ومحاسن صفاته ، مما لا يتحقق لدى الآخرين وكأن الصفات الطيبة كلها لا تلتقى إلا فى شخصه ، وهو يسمى الثوب سيفا أو السيف ثوبا لأنه يثوب إليه كل ذى سلاح .

ويظل الشاعر ذو الإصبع العدوانى على خلقه وهو يعرض لهذا الموقف ذاكرا الله فى كل ما يقدمه من دليل على صدق ما يقول :

الله يعلمكم والله يعلمنى والله يجزيكم عنى ويجزينى

الله يعلم أنى لا أحبكم ولا ألومكم ألا تحبونى

ولم تخل قصائد الشعراء الجاهليين من صورة البرق ووصف المطر ، وهى صورة نراها فى القرآن الكريم آية من آيات الله ، ففى سورة الروم يقول الحق تبارك وتعالى :" ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لأيات لقوم يعقلون "(٢٤) وهكذا تأملها الشاعر أوس بن حجر ، وهو من شعراء تميم فى الجاهلية ، وشعره يضم الكثير من الحكم ووصف مكارم الأخلاق . وصوت البرق ووصف المطر تأخذ عنده التفكير فى الحياة والموت ، ويتحول عنده إلى لون من التأملات فى مصير الإنسان فى الحياة ، يخرج منها إلى التأمل والتبصر فيما حوله ، فيقف أمام البرق الذى نفى النوم عن عينيه يرصده ويراقبه ، ويصف السحاب الذى أخذ يتدفق بالمطر ، ويطيل الوقوف أمام المطر الذى تحولت معه الصحراء إلى رياض مخضرة وأودية مُمرعة ، وهو نفس المغزى والمعنى من قول الله تعالى الذى أشرنا إليه فإحياء الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله على إحياء الموتى وبعث من فى القبور ، وتحول الصحراء إلى رياض مخضرة بعد تدفق المطر عليها هو نفس الدليل على إحياء الموتى وعلى قدرة الله ، ومن ثم يكون الإيمان بالبعث ، والإيمان بقدرة الله ، فالبرق يوحى بالخوف والطمع ، والخوف من أن يصيب الإنسان مكروه من حدوثه كالصواعق والحرائق ، والطمع فى الخير من

ورائه عندما يتدفق الماء من السحاب في السماء ، ولعلك قد تشوقت لأن تقرأ وتسمع أبيات الشاعر أوس بن حجر فى هذا المشهد ، يقول :

إنى أرقتُ ولم تأرق معى صاح　　لمستكف بُعيد النوم لواح

لقد نمت عنى وبات البرق يُسهرنى　　كما استضاء يهودى بمصباح

يا من لبرق أبيتُ الليل أرقُبه　　فى عارض كمضئ الصبح لماح

دان مُسف فويق الأرض هيدبُه　　يكاد يدفعه من قام بالراح

كأن ريقه لما علا شَطبا　　أقرابُ أبلق ينفى الخيل رماح

هبت جنوب بأعلاه ومال به　　أعجاز مزن يَسُحُ الماء دلاح

فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله　　وضاق ذرعا بمحمل الماء مُنصاح

كأنما بين أعلاه وأسفله　　ريط منشرة أو ضوء مصباح

ينكر على صاحبه أن ينام دونه ويتركه لأرقه مع البرق والمطر ، وكأنما يعجب من صاحبه أن تفلت منه هذه المتعة الرائعة ، وهذا المنظر الخلاب ، وهو يشبه لمعان البرق بمصباح اليهودى يوقده فى الليل ، يقصد أحبار اليهود وهم يتعبدون بالليل فى معابدهم ، وهى صورة مألوفة فى الشعر الجاهلى ، وكذلك يشبه البرق وهو يومض فى السحاب بنور الصباح يغمر الأفق بالضياء ، فيقول إن البرق يلمع فيبدو ما أضاء من السحاب أبيض ، ويظل الباقى أسود ، فيتراءى كأنه جواد أبلق يشتد فى عدوه ، فيبدو بياض أقرابه ، وباقى جسمه أسود .

ويقول إن صوت الرعد بدأ يرتفع فى أعالى السحاب ، وأخذت أدانيه تهتز بالماء ، فأخذ ينهمر بغزارة ، وقد انتشر السحاب فى السماء كأنه ملاءات منشورة ، والبرق يلمع من خلاله كأنه ضوء مصباح يتوهج ...

والظلم ظلمات يوم القيامة ، وقد كان للشعراء الجاهليين رأى فى الظلم ، وقد مر بنا قول عمرو بن كلثوم عن الظلم :

نسمى ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

ويقول عنترة:

فإذا ظُلمتُ فإن ظلمى باسلٌ مر فداقتُه كطعم العلقم

ويقال لكل مر علقم وهو الحنظل .. ويقول زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يُهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

وقد أقسم زهير بالكعبة وأشاد ببناتها وهم جرهم قبيلة قديمة كانوا أرباب البيت قبل قريش ، يقول :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

فهو يؤمن بمكانة الكعبة وبقدسيتها ، ويوحى بألا يضمر الناس خلاف ما يظهرون :

فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيُدخر ليوم الحساب أو يعجل فيُنقم

يؤمن بيوم الحساب وبالجنة والنار والثواب والعقاب ، وأن الله لا تخفى عليه خافية فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما يكتمه الإنسان فى

نفسه يعلمه الله ، يعلم ما فى نفوسنا ولا نعلم ما فى نفسه وهو علام الغيوب ، والله يمهل ولا يهمل ، وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

هذا هو زهيرا بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى ، وتلك مكارم الأخلاق التى يدعو إليها ، وله فلسفته فى الحياة حين صور متاعب الحياة ومشقاتها :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش	ثمانين حولا لا أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تُخطئ يعمر فيهرم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة	يُضرس بأنياب ويُوطأ بمنسم
وأعلمُ علم اليوم والأمس قبله	ولكننى عن علم ما فى غد عمى
ومن يكو ذا فضل فيبخل بفضله	على أهله يُستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه	يَفرهُ ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه	وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه	يُطيع العوالى رُكبت كل يهزم
ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه	إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه	ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن لا يزال يستحمل الناس نفسه ومن لم يُغنها يوم من الدهر يُسأم

إنها حكمة بالغه وأقوال رشيدة بها حكموا على صاحبها بأنه أشعر العرب ، حين قيل أشعر العرب من بدئت أبياته بمن ، وصاحب هذه الحكم متواضع فهو يصور جهله بالمستقبل وعلمه بالماضى والحاضر فقط ، وهو من هذا المنطلق يوحى لنا بمكارم الأخلاق فالمستقبلُ بيد الله وبمشيئته وإرادته ، ثم هو لا يفتأ يذكر الموت ويذكرنا به ، ومن تذكر الموت كان محمودا عند الله ، وكان موقنا بالقضاء والقدر ، وأن الموت نهاية كل من على الأرض ، كل شئ هالك إلا وجهه ، وسيموت الإنسان وإن عُمِر ماعُمِر نوح ، فلنجعل من هذه الحكم منهاجا لنا فى حياتنا نقتدى به ، ونعمل له ، ونسعى فى سبيله.

ويقول فى الحياة والموت :

فلو كان حمد يُخلدِ الناس لم يَمُتْ ولكن حمدَ الناس ليس بمُخْلِدِ

ولكن فيه باقياتِ وِرَاثة فأورث بنيك بعضها وتزود

تزود إلى يوم الممات فإنه ولو كرِهَتهُ النفسُ آخر موعد

فلو كان الفعل المحمود يجعل صاحبه خالد لخلدك فعلك فلم تمت ، ولكنه لا يجعل الأنسان خالد . فأورث بعض مكارم أخلاقك ومحامدها بنيك ، وتزود ببعضها لما بعد الموت ، لأن الموت يلزمه الزاد ، وإن الموت موعد لابد منه وإن كرهته النفس ، ولذلك ينبغى التزود له .

وفى نفس المعنى يقول :

لو كان يخلد أقوامٌ بمجدهُم أو ماتقدم من أيامهم خَلدوا

أو كان يقعد فوق الشمس من كرم قومٌ بأولهم او مجدهم قعدوا

والكرم هنا مكارم الأخلاق .

أما عَدِي بن زيد فينسب إلى "عبّاد" الحيرة ، وهم جماعات من قبائل شتى اجتمعوا في الحيرة واستوطنوها واعتنقوا المسيحية ، فلقبوا بهذا الاسم ، يريدون أنهم عباد الله في مقابل العرب الوثنيين .

وللشاعر قصائد سجل فيها طائفة من تأملاته في الحياة والموت ، فالحياة لا تدوم على حال ، وكل شئ فيها يتغير ويتحول ، والمصير المحتوم في انتظار الجميع . والموت هو نهاية رحلة الحياة ، وتنتهي إليه قوافل البشر قافلة في إثر قافلة ..

يقول :

أيها الشامتُ المعير بالـ ـدهر أأنت المبرأ الموفور ؟

أم لديك العهد الوثيق من الـ أيام ؟ بل أنت جاهل مغرور

من رأيتَ المنونَ خَلّدن أم من ذا عليه من أن يُضام مُجيرُ ؟

أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان أم أين قبله سابور ؟

وبنو الأصفر الملوك ملوك الـ ـروم لم يبق منهم مذكورُ

وأخو الحضْر إذ بناه وإذ دجـ ـلةُ تُجبى إليه والخابور

شاده مرمرا وخلله كلـ ـسا فللطير في ذُراه وُكور

لم يهبه ريبُ المنون فبادا الـ ملك منه فبابه مهجور

وتأمل رب الخورنق إذ أشـ ـرف يوما وللهدى تفكير

سره ماله وكثرةُ ما يمـ ـلك والبحر مُعْرِضا والسدير

فارعوى قلبه وقال وما غبـ ـطة حى إلى الممات يصير ؟

ثم بعد الفلاح والملك والـ إمة وارتهم هناك القبور

ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

وكسرى أنو شروان : أحد ملوك الفرس ، وسابور اسم لعدة ملوك من الفرس وبنوا الأصفر : لقب كان العرب يطلقونه على الروم . والحضر : مدينة قديمة كانت قائمة بأرض الجزيرة مابين دجله والفرات ، وقد حكمت فيها أسرة عربية لمدة ثلاثة قرون ، وأول حكامها أمير عربى ، والخابور : نهر من روافد الفرات ، وخلله : سد خلاله ، وهى مابين أحجاره . والكلس الجير ، والخورنق : قصر كان للنعمان بن المنذر بالحيرة ، وهى كلمه فارسية معربة . البحر هنا هو نهر الفرات الذى كان قصر الخورنق قائما على ضفافه ، ومعرضا أى متسعا . والسدير : قصر آخر للنعمان فى الحيرة وهى أيضا كلمة فارسية معربة ، وارعوى قلبه : أقصر عن الجهل والباطل . والفلاح : البقاء . والإمة : النعمة . وألوت به ذهبت به ، والصبا : ريح شرقية والدبور : ريح غربية . ويستمر الشاعر فى فلسفته وتأملاته فيقول :

إن يُصبنى بعض الأذاة فلا وا نٍ ضعيفٌ ولا أكبُّ عثور

غير أن الأيام يَغْدِرْنَ بالمر ء وفيها الميسور والمعسور

فاصبر النفس للخطوب فإن الدهر يدجو حينا وحينا يُنير

وأنا الناصرُ الحقيقةِ إذ أظـ ـلم يومٌ تضيقُ فيه الصدور

يوم لا ينفعُ الرواغُ ولا ينـ ـفع إلا المُشيّعُ النّحْرِيرُ

والأذاة : الأذى اليسير ، والوانى : الضعيف ، والأكب : الذى يسقط على وجهه .

والعثور : الكثير العثار ، فهو لا يضعف أمام مايصيبه به الدهر من أذى ، وإنما يتجلد ويتماسك ولا ينهار ، ولكن ماذا يملك أمام الأيام التى من طبيعتها الغدر ، والتى تأتى أحيانا باليسر وأحيانا بالعسر ، والأمر فى الحالين لها . والدهر لا يدوم على حال فمن طبيعته التقلب فتارة يظلم ، وتارة يشرق ويضئ . وكلمة يدجو يعنى يظلم ، وكلمة الحقيقة مايجب على الإنسان أن يحميه ويدافع عنه ، ويريد به هنا الحق . والرواغ : الفرار والهرب . والمشيع : الجرئ ، والنحرير : الحاذق الماهر المتقن لكل شئ ، يريد يوم الحرب والقتال .

وقد أكثر الشاعر من الحديث حول المصير المحتوم واتجه الى الزهد فى الدنيا والتفكير فى الموت . فالموت قدر مقدور على الإنسان لا مفر منه ، وهو يقف له بالمرصاد مصوبا إليه سهامه كأنه صياد لاقى غفلة من صيد أتيح له فقتله .

والموت يقف بين الإنسان وآماله ولا يترك له فرصه لتحقيقها ، ومرور الأيام يقربه منه ، فكل يوم يمضى إنما هو فى الحقيقه خطوة نحو النهاية التى يدفعنا الدهر الموكل بنا نحوها .

رُبَّ مأمـــولٍ وراجٍ أمَـــلا قد ثناه الدَّهرُ عن ذاك الأمـــل

وفتـــىً مـــن دَولَةٍ مُعجِبَةٍ سُلِبـــت عنهُ وللدَّهـر دُوَل

كيفَ يَرجُو المرءُ قُوتا للـــرُذى   وَهيَ في الأسبابِ رَهنٌ مُختبَـل

كُلَمَـــــا خَلَفَ يوما فَمَضَــــى   زادهُ ذلِـــــــكَ قُربـــــا لِلأجَـل

وينظر الشاعر إلى هذا المصير من زاوية أخرى ، فيتخذ من التاريخ موضوعا للعظة والاعتبار ، ومجالا يتحرك فيه ليضرب الأمثال على فناء الحياة الذى بدأ مع بداية الحياة ، فمنذ نوح حتى اليوم ومنهج المنايا واحد لا يختلف ، تسلكه قوافل البشر قافلة فى إثر قافلة ، ولكن حركتها فوقه لا تعرف لها قانونا يضبطها ، فالمريض يموت ، وطبيبه يموت ، وكذلك يموت السليم ، ولكن الموت ليس النهاية ، فوراء الموت حياة أخرى فيها الوعد وفيها الوعيد ، هكذا يصدر الشاعر عن إيمان عميق بالعث انطلاقا من نصرانيته ، على عكس ما نراه عند غيره من الشعراء الوثنين الذين كانت تتراءى لهم فكرة البعث فوق تصورهم .

أين أهـل الديار من قوم نوح   ثم عـاد مـن بعدهم وثمـود

أين آباؤنـا وأيـن بنـوهم   أين آبـاؤهم وأيـن الجـدود

سـلكوا منهـج المنايـا فبادوا   وأرانـا قـد حـان منـا ورود

بينما هم على الأسرة والأنما   ط أفضـت إلـى الـتراب الخـدود

ثم لم ينقض الحـديث ولكن   بعـد ذاك الوعيـد والموعـود

وأطبـاء بعـدهم لحـقوهم   ضـل عنهـم صعوتهم واللدود

وصحيح أضحـى يعود مريضا   هـو أدنـى للموت ممن يعـود

ومن شعراء الصعاليك السنفرى ، له أبيات قالها مستهينا بالحياة والموت أيضا ، وما الذى يبكى ؟ وما الذى ينتظره بعد الموت ؟ إن حياته بعد الموت لن تكون خيرا من حياته قبله ، وإن جرائمه التى ارتكبها فى حياته ستظل تطارده بعد موته . وفى هذه اللحظات - وهو على البرزخ الفاصل بين شاطئ الحياة وشاطئ الموت - لم ينس رفاقه ،الذين اتخذ منهم فى حياته رفاقا له يأنس إليهم ، ويطمئن لهم وثيق فيهم ، ومن بينهم تطل عليه صورة الضبع الجائعة ، فيوحى بجسده بعد موته وليمة لها تسد به جوعها ، وكأنه يريد ألا يودع الحياة إلا بعد أن يقدم أخر وجبة يملكها لآخر جائع فتراءى صورته أما عينيه اللتين يوشك الموت أن يلقى عليها غطاءه الأبدى ، إيمانا برسالة الصعلوك التى عاش حياته لها ، ولا يتردد فى أن يقدمها قربانا على مذبح هذا الإيمان :

لا تقبرونى إن قبرى محرم عليكم ولكن أبشرى أم عامر

إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثم سائرى

هنالك لا أرجو حياة تسرنى سجيس الليالى مبسلا بالجرائر

وأم عامر : كنية الضبع عند العرب ، وسجيس الليالى : أبد الدهر ، ومبسلا بالجرائر : مسلما لها مرهونا بها ن مسئولا عنها .

وما أشبه إحساس الشاعر فى قوله بإحساسنا فى هذه الأيام ، فما أشبه الأمس باليوم حيث يودع المرء ماضيه وحاضره ، ليوم تشخص فيه الأبصار ، ويجد ما عمله حاضرا .. وقد يوصى إنسان اليوم بالتبرع ببعض من اعضائه بعد موته ظنا منه بأنه يقدم خيرا يحتسب له بعد موته ، ويجزيه الله عليه ، والله أعلم بالمراد ...

وهذا ساعدة بن جُوية ، وهو شاعر مخضرم من أشعر شعراء قبيلة هذيل ، له قصيدة يبدؤها بالشكوى من الشيب والهرم ، والضعف الذى يعترى كبار السن ، يقول :

يا ليت شعري، ألا منجي من الهرم ... أم هل على العيش بعد الشيب من ندم

والشيب داء نجيس، لا دواء له ... للمرء كان صحيحا صائب القحم

وسنان، ليس بقاضٍ نومةً أبدا ... لولا غداة يسير الناس لم يقم

في منكبيه، وفي الأصلاب واهنة ... وفي مناصله غمزٌ من القسم

إن يأته في نهار الصيف لا تره ... إلا يجمع ما يصلى من الحجم

حتى يقال وراء البيت منتبذا ... قم لا أبا لك سار الناس فاحتزم

فقام تُرعد كفاه بمحجنه ... قد عاد رهبا رذٍ يا طائش القدم

إن المرء بعد أن كان إذا اقتحم فى امر أصاب وقصد فى اقتحامه يعتريه الشيب ذلك الذى لا يكاد يبرأ منه من الأدواء ، فلا تراه أبدا إلا كأنه وسنان ، مسترخ كأنه نائم من الضعف وليس بنائم ، ويصبح وقد يبست مفاصله ، ووهنت عظامه ، واشتعل رأسه شيبا ، حتى يقال له وهو وراء البيت والدار يحدث نفسه ، قم فقد سار الحى فاحتزم أى شد وسطك ، فيقوم بمجحنه الذى يتوكأ عليه وكفاه ترتعدان ، رهبا رقيقا ضعيفا ..

ألست معى أنك تقرأ هذه الأبيات وكأنه يعنينا ويقصد ما يصل إليه حالنا عند المشيب وعند الكبر .. ؟

ويعتبر الكرم من مكارم الأخلاق ،وقد ضربت الأمثال بكرم حاتم الطائى فى جاهلية العرب وما بعدها . وقد وصفته ابنته بين يدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه " كان يفك العانى ، ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط " وقد رود عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن هذه صفة المؤمن ، وقال : إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وهو حكم يؤكد سلامة المسلك الاجتماعى الذى سلكه حاتم مع نفسه ومع مجتمعه ..

وفى شعر حاتم ما يصور طبيعة هذا المسلك ، ويرسم صورة المثالية للرجل العربى ، وتحكى شخصه ، وتصور ما قتنع به فى فلسفة حياته الخاصه ، وبما حفلت به من اعتزاز بالسخاء والبذل والعفة والوفاء وحماية الجار والصدق فى القول والفعل معا :

سلى الأقوام يا ماوى عنى   وإن لم تسأليهم فسألينى

يخبرك المُعاشر والمُصافى   وذو الرحم الذى قد يجتدينى

بأنى لا يهر الكلب ضيفى   ولا تقضى نجى القوم دونى

ولا أعتل من قَنَع بمنع   إذا نابت نوائب تعترينى

ويقول مفلسفا موقفه ، ومصورا أبعاد علاقته الاجتماعية من خلال حسه الغيبى والقبلى معا ، ومن خلال تجربة حياته مع قومه وما تعلقت به نفسه من حسى حضارى يتجاوز به مسلك شباب العصر :

أماوى إن المال غاد ورائح   ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوى إما مانع فمبين   وإما عطاء لا ينهنه الزجر

أماوى إنى لا أقول لسائلى   إذا جاء يوما حل فى مالنا نزر

ماوى ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وهكذا فالمال فى حياتنا هو قبلة الناس أجمعين ، يغدون ويروحون من أجل المال ، وحب المال ، وما دروا أن ما جمعوه من مال لا يحقق لهم البقاء ولا يضمن لهم نهايتهم التى يصلون إليها ، إلا اللذين كان لهم فى أموالهم حق للسائل والمحروم ، ونفقونها فى سبيل الله ، وفى وجوه الخير والصلاح ..

وعرف عروة بن الورد بكرمه حتى قورن بحاتم الطائى المثل الأعلى للكرمن عند العرب ، فقد قال عنه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان : " من زعم أن حاتما أسمعُ الناس فقد ظلم عروة بن الورد " ولقد أعلن مذهبه فى الكرم ، وأنه لا يرضى لنفسه ان يبيت شبعان وجاره جائع ، وانطلاقا من زعامته لحركة الصعاليك فهو يقول : أيها الصعاليك إما أن تنالوا حقكم وإما أنا تموتوا فى سبيله ، وحسبكم - على الحالين - إحساسكم بالحرية والكرامة .. يقول فى قصيدة له :

أفى ناب منحناها فقيرا   له بطنابنا طنب مصيت

فالناب : الناقة الكبيرة فى السن ، والطناب : جمع طنب وهو الحبل تشد به الخيمة والمصيت : الذى يسمع صوته . والشطر الثانى رمز لصلة الجوار التى تجمع بينه وبين الفقير ، والتى تفرض عليه حقوقا لا يملك أن يتنكر لها . ووصف طنب هذا الجار بأنه مصيت تصوير لنداء جاره الفقير له ، ورفع صوته ليشعره بوجوده إلى جواره ، وبأن له عليه حقا .. إنه لا يرضى لأبنائه الصعاليك أن يعيشوا حياتهم عالة على الأغنياء ، ينتظرون فضلة عطائهم

وإحسانهم عليهم ، وإنما يريد لهم أن يخرجوا مطالبين بحقهم على مجتمعهم ، ويعلنها صيحة عالية مدوية توقظهم من نومهم الذليل خلف أديار البيوت فى انتظار ما يجودون عليهم به ..

ونحن نحذوا حذو هذا الشاعر فى مجتمعنا فندعوا أبناءنا فى أن يهبوا من سباتهم وأن يعملوا ما وسعهم العمل ، ويهدفوا إلى تحقيق الحرية والعدالة ، نشر الأمن والأمان ، وأن يحتضنوا الذين أفسدوا فى الأرض حتى يضمنوا بعد قورتهم الثورة المضادة ، وأن ينادوا فى حقهم بالعيش الكريم وألا يكونوا عالة على غيرهم ، وأن يعدوا عدوا نجو إعادة مجدهم ومجد أبائهم الأولين .

إن العدو الاول إنما هم أولئك الذين كدت لهم الحياة أسباب الثراء ، فاغتنوا بعدما سرقوا حقوق مجتمعهم ، وحرموا حقهم المشروع فى أن ينالوا مثلهم نصيبهم فى الحياة ، فكان لزاما عليهم أن يشدوا عزائمهم ، ويشمروا عن سواعدهم ، ويتخذوا من القوة سبيلا لانتزاع حقهم من هؤلاء القلة الباغية ، فالحق للقوة ، والقوة فى الجماعة ، والضعيف ضائع حقه فى مجتمع يسوده الظلم والفساد والقهر ، فكان لابد أن ينتهز الشباب أيامه ، وألا ينتظروا حتى حل بهم أيام الشيخوخة والضعف ولقد جمعوا جمعهم ، وأحكموا خططهم ، حتى حققوا أهدافهم ، وإلا ماتوا فى سبيلها ، فالموت خير من حياة الذل والفقر والجوع والهزال .

أليس ورائى : أى وراء قعودى حتى الشيخوخة ، ويجوز ان تكون ورائى بمعنى أمامى على التضاد ، أى أمامى إن امتدت بى الحياة وسلمت من الموت ، والدبيب على العصا رمز للشيخوخة المتقدمة وللشاعر صور إنسانية من فلسفته يسجلها فى أبيات قليلة ، يبين فيها رأيه فى قضية الفقر والغنى ، وهى

القضية التى لا تزال خيوطها موجودة حتى يومنا هذا . فالفقير شر الناس ، وأحقرهم عندهم ، وأهونهم عليهم مهما يكن له من فضله . يجافيه أهله . أما الغنى فمهما يفعل يقبل منه ، ومهما يخطئ يغفر له . زهو يقول للناس جميعا : هذا هو مجتمعكم العجيب ، يحتقر الفقير لا لشئ إلا لأنه فقير ، ويقدر الغنى لا لشئ إلا لأنه غنى ، ولا يهتم إلا بالمظاهر المادية . أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء إهتمامه .

وقصيدة الشاعر التى يصور فيها فلسفته هذه جعلت عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب ، يطلب إلى معلم أولاده ألا يرويهم هذه القصيدة ، ويقول له : "إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن اوطانهم " يقول فى قصيدته :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وادناهم وأهونهم عليهم ... إن أمسى له حب وخير

يباعده القريب وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

ويُلْقَى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد لاقيه يطير

قليل ذنبُهُ والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

ولا يقف الشاعر عن توضيح فلسفته حول الفقر والغنى عن هذا الحدبل يرسم صورة لنزعته الإنسانية التى كانت تملأ عليه أرجاء نفسه ، فهو يوازن نفسه بين نفسه وبين رجل من الاغنياء ، أو بينه وبين واحد من القطط السمان والذين نعرفهم اليوم فى مجتمعنا الحديثة ، الذين أتخمهم الغنى ، والذين أكلوا حقوق مجتمعهم عليهم فأكتست أجسامهم شحما ولحما . أما هذا الفقير فخور

بفقره لأنه يؤثر غيره من الفقراء الجياع على نفسه ، فهو لا يعيش لنفسه كما عاش هؤلاء الفسقة ، وإنما يعيش لهم وبهم ، يقول :

إنى امرؤ عافى إنائى شركة   وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أتهزأ منى إن سمنت وأن ترى   بجسمى مس الحق والحق جاهد ؟

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة   أحسو قَراح الماء والماء بارد

إنه لا يأبه بالحياة ، ولا يخشى الموت ، فقد يدركه الموت وهو مقيم بين أهله ، لان الموت هو المصير المحتوم الذى لا مفر منه . غنه فرض نفسه لمساعدة الفقراء والمحتاجين ، وعمل من إجل إسعادهم . إنه من اجلهم يبذل كل ما جمعه من مال ، وكل ماحققه من غنى ، ولابد أن يحقق هدفه ، ولا يتوقف فى منتصف الطريق ، ولا يقتنع بأنصاف الحلول ، ولن يثنيه شئ عن تحقيق هدفه ورغبته .

لعل الذى خوفتنا من ورائنا   يصادفه فى أهله المتخلف

إن الموت الذى يخوفونا منه قد يصافنا فى أى مكان ، وفى أى موقف ، ففيم الخوف إذن إذا خرجنا فى الغزو والغارة أو إذا تخلفنا عن الركب ؟ ولعروة بن الورد مقطوعه قصيرة يرسم فيها صورة لجانب آخر من نزعته الأنسانية التى وهب حياته لتحقيقها ، ويحدد هدفا آخر من أهداف حركته الاجتماعيه . إنه يريد أن ينطلق فى آفاق الأرض الواسعة بحثا عن المال الذى اتأثرت به لنفسها طبقه ظالمة لتتحكم فى توجيه حياة المجتمع كيف تشاء ، وليكون بين يديها وسيلة لتحقيق مراكز قوة لها فيه ، ولتفرض نفسها عليه ، وتصبح اليد العليا فيه .. ولكنه لا يطلب الغنى لشئ من ذلك ، ولكنه يطلبه ليكون عنصرا مؤثر فى

حياته الاجتماعية ، وعاملا لتحقيق أهدافه الأنسانية التى يعمل لها ، من الوفاء بحقوق مجتمعه عليه ، والدفاع عن سلامته الاجتماعية ، ونصرة الضعفاء والمظلومين والمعذبين من إخوانه فى الانسانيه ، يقول :

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى	أفيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيما أن تُلم ملمة	وليس علينا فى الحقوق معول ؟
فإن نحن نملك دفاعا بحادث	تُلم به الأيام فالموت أجمل

وعن ميراثه الذى يخلفه يقول :

وذى أمل يرجو تراثى وإن ما	يصير له منه غدا لقليل
ومالى مال غير درع ومغفر	وأبيضُ من ماء الحديد صقيل
وأسمر خطى القناة مثقفٌ	وأجرد عريانُ السراة طويل

إنها أسلحته ، وهى الشئ الوحيد الذى حرص عليه طول حياته : درعه ومغفره وسيفه ورمحه وجواده ، ثم لا شئ غير ذلك .. ونأتى إلى شاعر آخر ، هو الحادرة ، عاش فى آخر العصر الجاهلى قريبا من الإسلام ، وربما أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم ، وقد جعله محن بن سلام فى الطبقة التاسعة من فحول شعراء الجاهلية ، وله قصيدة يعدد فيها صفاته السامية النبيلة ، وهى فى الحقيقة لا تنطبق عليه وحده ، بل هى مثل عربية ذات مكارم أخلاقية يفخر بها الإنسان العربى ، وتنحصر فى البعد عن الفواحش ، والتزام العفة ، وتجنب العيب ، والصبر على الشدائد والمكروه ، والتجمل عند الرزينة ، والكرم فى وقت الشدة ، وتقديم العون للضعيف ، ونجدة الملهوف ، والشجاعة الفائقة فى وقت القتال :

أدع الفواحش أن أسب بها   وشريكها فكليهما أقلى

ووجدت آبائى لهم خُلق   عف الشمائل غير ذى دَخَل

لو تصدقين لقلت إنهم   صُبُرٌ على النجدات والأزل

وعلى الرزية من نفوسهم   وتلاتل اللزبات والقتل

ألا ترى أن هذه المثل من مكارم الأخلاق التى ننادى بها ، ونسعى لتحقيقها ، كما التزم بها السابقون ، وساروا على نهجها ؟ وما أحرانا أن نتمسك بها ، ألسنا مثل هؤلاء الذين عاشوا قبل الإسلام ، ولم يعرفوا ما يدعو إليه ، لكنهم تعلموا هذه المثل بالفطرة ، فتعلقوا بها وساروا عليها وكانت من صفاتهم التى نعلمها لأبنائنا .

إننا فى حاجة إلى أن نروض أنفسنا على هذه الخصال الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، وأن نتبين كنه حديث رسولنا الكريم - عليه الصلاة والسلام - الذى يقول فيه :" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

وتطالعنا عقيدة الشاعر أمية بن الصلت ، الذى كان ينتمى إلى من سُموا "بالحنفاء" الذين تركوا مفاسد الجاهلية قبل الإسلام ، ونبذوا عبادة الأصنام ، واتجهوا إلى التوحيد الخالص ، وبحثوا عن دين ابراهيم - عليه السلام - كذلك اتصل بثقافة الأديان التى كانت تحيط به . وإن كانت جميع الروايات قد أجمعت على عدم إسلامه بعد بزوغ عصر الإسلام .

لكن شعر أمية لا تكاد قصيدة من قصائده الدينية تخلو من معانى التوحيد أو ذكر الحساب والقيامة ، أو ذكر الأنبياء والرسل ، ثم إن شعره يكاد يزخر

بمناظر الطبيعة ، وما فيها من مخلوقات تدل على حكمة الله وقدرته ، ففى السماء يرى الشمس والقمر ، والأفلاك والنجوم ، وفى الأرض يرى الحرث والنبات ، والعيون والأنهار ، والطير والحيوان . وقد قامت شهرة أمية على هذه النزعة الدينية فى حياته وفى شعره على السواء ، وقد فطر أمية على التأمل فيما حوله من عجائب الطبيعة ، ومن هنا كان تفاعل عبقرية الشاعر بعبقرية المكان .

ويقدم أمية بن الصلت فى قصيدة له صورة فنية رائعة تجسد قصة نوح والطوفان فيقول فيها :

جزى الله الأجل المرء نوحا	جزاء البر ليس له كِذاب
بما حملت سفينته وأنجت	غداة أتاهم الموتُ القُلاب
وفيها من أرومته غُراة	لديه لا الظماء ولا السغاب
وإذ هم لا لبوس لاهم تقيهم	وإذ الصخر السّلام لهم رطاب
عشية أرسل الطوفان تجرى	وفاض الماء ليس له جراب

وفى قصيدة أخرى يقدم أمية بن الصلت ، مفهومه للخلق ممزوجا بطائفة من القصص الدينى ، كقصة فرعون ، وقصة ثمود ، يقول :

مجدوا الله فهو للمجد أهل	ربنا فى السماء أمسى قديرا
ذلك المنشئ الحجارة والمو	تى وأحياهم وكان قديرا
بالبناء الأعلى الذى سبق النا	س وسوى فوق السماء سريرا

ويقول فى عرق فرعون :

ولفرعون إذ تشاق له الماء فهلا لله كان شكورا

قال : إنى أنا المجير على النا س ولا رب لى على مجيرا

فمحاه الإله من درجات ناميات ولم يكن مقهورا

سُلب الذكر فى الحياة جزاء وأراه العذاب والتدميرا

وتداعى عليه البحر حتى صار موجا وراءه مستطيرا

فدعا الله دعوة لا يُهنا بعد طغيانه فصار مُشيرا

وفى قصيدة لأمية بن الصلت يبلور مفهومه للخلق والكون ، ويتحدث عن قدرة الله كما رأى لها مثلا فى قصة أصحاب الفيل :

إن آيات ربنا ثاقباتٌ ما يمارى فيهن إلا الكفور

خلق الليل والنهار فكل مُستبين حسابه مقدور

ثم يجلو النهار رب رحيم بمهاة شعاعها منشور

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

كل دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلا دين الحنيفة بُور

وفى هذه القصيدة يبرز لنا أمية بن الصلت مفهومه للحياة والموتوالجنة والنار ، وفيها يركز على الجانب الأخلاقى والوعظى ، وتتردد فى بعض أبياتها بعض الصور والعبارات القرآنية ، وكأنها منقولة عن القرآن نقلا :

أقترب الوعد والقلوب إلى الـ ـلهو وحب الحياة سائقها

ما رغبة النفس فى الحياة وإن عاشت طويلا فالموت لاحقها

من لم يمت عبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها

وهكذا نحس فى قصائد أمية بن الصلت النزعة الدينية ، والنزعة الأخلاقية ، وقد ساعدته نشأته على هاتين النزعتين ، وكذلك تنقله بين الأمصار المختلفة فى ذلك الوقت .

الخاتمـــــــة

الخاتمة

تلك نماذج من الشعر الجاهلى أقدمها وأقدم معها هذا التصور الجديد للبيان مكارم الأخلاق فيها على امتداد الشعراء فى هذا العصر .

ولست أدعى أننى وضعت الصورة النهائية لمكارم الأخلاق عند الشعراء الجاهليين كما كانت ممثلة فى هذا العصر حتى جاء الإسلام ليتممها وليدعو إليها ، وأن أحدد خطوات هذا المنهج المثالى عند شعراء هذا العصر وتطوره حتى وصل إلى العصر الإسلامى وما بعده من عصور ، ولست أدعى أن ما قمت به جاء جديدا فى كل جوانبه ، أو أننى أتيت بما لم تستطعه الأوائل ... وإنما كل ما أملكه أن أقول إنها محاولة جديدة فى دراسة هذا الشعر ، وكل ما أتمناه أن أكون قد وفقت فيها ، وأن أكون قد استطعت الوقوف على المثل الفضلى التى عرفها العربى القديم ، وعمل ونادى بها بعد أن اتصفت شخصية بهذه الصفات الكريمة ..

ولعلى أرى بعد ذلك دراسة للشعر الجاهلى على أساس التصور الأخلاقى الجديد ، رغم كثرة الكتب والأبحاث والدراسات التى تناولت الشعر الجاهلى لما فيه مما يدعو إلى الأخلاق والفضائل وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به ، واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، وصدق الدكتور طه حسين حين قال : هو مظهر من مظاهر الجمال الفنى المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم ، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه . وهو من ناحية أخرى مرآة تمثل فى قوة أوضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره وثقافته ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ..

وبعد هذا التوضيح لموقفى من النصوص الجاهلية لشعراء هذا العصر ، أكون قد استشهدت بهذا الشعر على قدرته لتفسير بعض آيات القرآن الكريم ، وأن له قيمة كبيرة على معرفة اللغة واستنباط معانيها ، ومن أجل ذلك جاءت آراء العلماء والأدباء والنقاد معبرة أصدق تعبير على صدق ما نقول ، ومؤيدة لهذا التصور ..

قال أبو بكر الأنبارى : قد جاء عن الصحابة والتابعين - كثيرا - الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر . وأنكر جماعة - لا علم لهم - على النحو بين ذلك وقالوا : إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن ، قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن ، وهو مذموم فى القرآن والحديث . قال : وليس الأمر كما زعموا من أنا جعلنا الشعر أصلا للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : (إنا جعلناه قرآنا عربيا) - الزخرف ٣- وقال :" بلسان عربى مبين " - الشعراء ١٩٥- .

وقال ابن عباس . الشعر ديوان العرب ، فإذا اخفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه .

ثم أخرج عن طريق عكرمة عن ابن عباس ، قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب .

وقال عبيد فى فضائله · حدثنا هُشيم ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس ، أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر .

قال أبو عبيد : يعنى كان يستشهد به على التفسير .

قلت : قد روينا عن ابن عباس كثيرا من ذلك ، وأوعب ما رويناه عنه مسائل نافع بن الأزرق ، وقد أخرج بعضها ابن الأنبارى فى كتاب الوقف ، والطبرانى فى معجمه الكبير ، وقد رأيت أن أسوقها هنا بتمامها لتستفاد :

أخبرنى أبو عبد الله محمد بن على الصالحى بقراءتى عليه ، عن أبى اسحق التنوخى عن القاسم بن عساكر ، أخبرنا أبو نصر محمد بن عبد الله الشيرازى ، أخبرنا أبو المظفر محمد بن أسعد العراقى . وغيره عن حُميد الأعرج وعبد الله بن أبى بكر بن محسن عن أبيه قال : بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآ بما لا علم له به : فقاما إليه فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ؛ فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى :" عن اليمين وعن الشمال عزين " - المعارج٣٧ - قال : العِزُون الحَلق الرقاق ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم : أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يُهرعون إليه حتى ... يكونوا حول مِنْبَره عِزِينا

أى مجتمعين حلقات حول المنبر ..

قال : أخبرنى عن قوله :" وابتغوا إليه الوسيلة "- المائدة٣٥ - قال : الوسيلة الحاجة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم : أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلى وَتَخَضبى

وفيما يلى بعض مما أُخبر به نافع عن ابن عباس ، من أقوال فى القرآن الكريم كانت العرب تعرفها ، وسمعوا بها من الشعراء من قبل :

فمن قوله تعالى :" لقد خلقنا الإنسان فى كبد "(البلد ٤) قال لبيد بن ربيعة :

ياعين هلا بكيت أرْبد إذ قُمنَا وقام الخصوم فى كَبَدِ

أى : القيام على الأمر الشديد فى اعتدال واستقامة .

وعن قوله تعالى :" وحنانا من لدنا "(مريم ١٣) أى رحمة من عندنا .

قال طرفة بن العبد :

أبا مُنذِرٍ أفنَيتَ فاستَبْقِ بعضنا حَنانَيْكَ بعضُ الشر أهون من بعض

وعن قوله تعالى :" فأجاءها المخاض "(مريم ٢٣) أى : ألجأها قال حسان بن ثابت :

إذْ شَدَدْنَا شَدّةً صادِقةً فأجَأناكُم إلى سَفْحِ الجَبَلْ

وعن قوله تعالى :" شوَاظٌ "(الرحمن ٣٥) أى اللهب الذى لادخان له ، يقول أمية بن الصلت :

يظل يشبُّ كِيراً بعد كِيرٍ وينفخ دائبا لهب الشّواظِ

وعن قوله تعالى :" قد أفلح المؤمنون "(المؤمنون ١) أى فازوا وسعدوا ، قال لبيد بن ربيعة :

فاعقلى إن كنت لما تَعْقلى ولقد أفلح من كان عَقَلْ

وعن قوله تعالى :" يؤيد بنصره من يشاء " (آل عمران ١٣) أى يقوى ، قال حسان بن ثابت :

برجال لَسْتُمُو أمثالَهمْ أيّدوا جبريل نَصْراً فَنَزَلْ

وعن قوله تعالى :" أمْشَاج "(الإنسان ٢) قال أبو ذويب :

كأن الرِّيش والفُوقَيْ منه خلال النصل خالطه يُشيجُ

وأمشاج اختلاط ماء الرجل زماء المرأة إذا وقع فى الرحم .

وعن قوله تعالى :" لا فيها غَوْلٌ "(الصافات ٤٧) أى ليس فيها نتن ولا كراهية كخمر الدنيا ، قال امرؤ القيس :

ربَّ كأس شربتُ لا غَوْلَ فيها وسَقَيْتُ النَّدِيمَ منها مِزاجَا

وعن قوله تعالى :" والقمر إذا اتَّسَقَ " (الانشقاق ١٨) اتساقُه اجتماعه ، قال طرفة بن العبد :

إن لنا قلائصا نقانقا مُسْتَوسِقات لو تَجِدْنَ سَائِقَا

وعن قوله تعالى :" وَجِفانٍ كالجَوَابِ "(سبأ ١٣) أى كالحياض قال طرفة بن العبد :

كالجوابى لا تَنِى مترعة لِقِرَى الأضْياف أو للمحتضِرْ

وعن قوله تعالى :" فيطمع الذى فى قلبه مرض "(الأحزاب ٣٢) أى الفجور والزنى ، قال الأعشى :

حافظٌ للفرج راضٍ بالتُّقَى ليس ممن قلبه فيه مرض

وعن قوله تعالى :" من طِينٍ لازِبٍ "(الصافات ١١) أى الملتزق ، قال النابغة :

لا يَحْسبُونَ الخيرَ لا شَر بَعدَه ولا يَحسَبُونَ الشَّر ضَربَةَ لازِبِ

وعن قوله تعالى :" أندادا "(البقرة ٣٣) أى الأشتباه والأمثال ، قال لبيد بن ربيعة :

أَحْمدُ الله فلا نِدَّ له ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بيديْهِ الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ

وعن قوله تعالى :" عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا " (ص ١٦) القط الجزاء ، قال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بنعمته يُعْطى القُطوط ويُطلِقُ

وعن قوله تعالى :" البائس الفقير "(الحج ٢٨) أى الذى لا يجد شيئا من شدة الحال ، قال طرفة :

يغشاهُمُ البائس المدقع ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ والضَّيف وجارٌ مجاورٌ جُنُبُ

وعن قوله تعالى :" بِشِهابٍ قَبَسٍ "(النمل ٧) أى شعلة من نار يقتبسون منه ، قال طرفة بن العبد :

هَمٌّ عَرَانِى فَبِتُّ أدْفَعُه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ دون سُهادِى كشُعْلَةِ القَبَسِ

وعن قوله تعالى : " فى جناتٍ ونهرٍ " (القمر ٥٤) النهر السعة ، قال لبيد بن ربيعة :

ملكت بها كفى فأنْهرتُ فَتْقَهَا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ يَرى قائمٌ من دُونها ما وَرَاءَهَا

وعن قوله تعالى : " وضعها للأنام " (الرحمن ١٠) أى الخلق ، قال لبيد بن ربيعة :

فإن تسألينا مِمّ نحنُ فإنَّنا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عَصَافيرُ من هذى الأنَامِ المسحَّرِ

وعن قوله تعالى : " وهو مليم " (الصافات ١٤٢) أى المسئ المذنب قال أمية بن أبى الصلت :

من الآفات ليس لها بأهلٍ ولكنَّ المسئ هو المليمُ

وعن قوله تعالى : " ما ألفينا " (البقرة ١٧٠) أى ما وجدنا ، قال نابغة بنى ذبيان :

فحسبوه فألفوه كما زعمتْ تسعا وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ

وعن قوله تعالى : " الفلك المشحون " (الشعراء ١١٩) أى السفينة الموقرة الممتلئة ، قال عبيد بن الأبرص :

شَحَنَّا أرضَهُمْ بالخيلِ حتى تركنا هُم أذلَّ مِنَ الصِّراطِ

وعن قوله تعالى : " برب الفلق " (الفلق ١) الصبح إذا انغلق من ظلمة الليل ، قال زهير بن أبى سلمة :

الفارجُ الهمّ مسدولا عساكرهُ كما يُفرِّجُ غمّ الظّلْمةِ الفَلَقُ

وعن قوله تعالى : " مِنْ خَلَاقٍ " (البقرة ١٠٢) نصيب ، قال أمية بن أبى الصلت :

يَدْعُونَ بِالوَيْلِ فيها لا خلاق لهمْ إلا سرابيلُ من قَطْرٍ وأغلالِ

وقال أيضا عن : " أرْكَسَهُم " (النساء ٨٨) أى حبسهم :

أُرْكِسُوا فى جهنّمَ إنهم كا نُوا عُتاةً تقُولُ كذبا وزُورَا

وعن : " أمرنا مترفيها " (الإسراء ١٦) أى سلطنا ، قال لبيد :

إن بغبطوا يَيسَرُوا وإن أمِرُوا   يوما يصيدوا المهلكَ والفَقَدِ

وقال أيضا عن : " كأن لم يَغْنَوا " (الأعراف ٩٢) كأن لم يكونوا :

وغنيتَ سَبْتاً قبل مَجْرى دَاحسٍ   لو كَانَ للنَّفْس اللجوج خُلودُ

وعن : " الخيط الأبيض من الخيط الأسود " (البقرة ١٨٧) بياض النهار من سواد الليل ، وهو الصبح إذا انفلق ، قال أمية :

الخَيطُ الأبيضُ ضوء الصبح منفلقٌ   والخيط الأسود لونُ الليل مَكْمُومُ

وعن : " حسباناً من السماء " (الكهف ٤٠) أى نار من السماء ، قال حسان :

بَقِيَّةُ معشرٍ صُبَّتْ عَلَيْهِم   شآبيبٌ من الحُسْبَانِ شُهْبُ

وعن : " ذات الحبك " (الذاريات ٧) أى ذات طرائق والخلق الحسن ، قال زهير بن أبى سلمى :

هُم يضربون حبيك البيض إذْ لَحِقُوا   لا ينكِصُون إذا ما استُرْحِمُوا رحموا

وعن : " حَتْماً مَقْضِيا " (مريم ٧١) الحتم الواجب ، قال أمية :

عبادك يُخطِئون وأنت ربٌّ   بكَفَّيْك المنانيا والحتُومُ

وعن " نفَشَتْ " (الأنبياء ٧٨) النفس الرعى بالليل ، قال لبيد :

بُدِّلْنَ بَعْد النَّفْس الوَجِيفَا   وبعد طول الجرَّةِ الصَّرِيفَا

وعن : " ولات حين مناص " (ص ٣) ليس بحين قرار ، قال الأعشى :

تذكرتُ ليلى لاتَ تذكُرٍ وقد نبتُ منها المناصُ بعيد

وقال أمية بن الصلت ، عن قوله تعالى : " جد ربنا " (الجن ٣) أى عظمة ربنا :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شئ أعلى منك جَدا وأمْجَدُ

وعن قوله تعالى : " حميم آن " (الرحمن ٤٤) الآن الذى انتهى طبخه وحره ، قال نابغة بنى ذبيان :

ويخضب لحية غَدَرَتْ وخَانَتْ بأحْمَر من نجيع الجَوْف آنِ

وعن قوله تعالى : " سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ " أى الطعن باللسان ، قال االأعشى :

فيهمُ الخِصْبُ والسَّمَاحَة والنَّجـ ـدةُ فيهم والخاطِبُ المِسْلاقُ

وعن قوله تعالى : " لا وزر " (القيامة ١١) الوزر الملجأ ، قال عمرو بن كلثوم :

لَعَمْرُك ما إنْ لَهُ صَخْرة لَعَمْرُكَ نا إنْ لَهُ من وَزرْ

وعن قوله تعالى : " قضى نخبه " (الأحزاب ٢٣) أجله الذى قدر له .
قال لبيد بن ربيعة :

ألا تَسْألانِ المرء ماذا يحاول أنَحْب فيقضى أم ضلالٌ وباطِلُ

وعن : " ذو مرة " (النجم ٦) ذو شدة فى أمر الله ، قال نابغة بنى ذبيان :

وهنا قِرَى ذِى مِرَةٍ حَازِم

وعن : " المعصرات " (النبأ ١٤) أى السحاب يعصر بعضها بعضا فيخرج الماء من بين السحابتين ، قال النابغة :

تُجر لها الأرواحُ من بين شَمْألٍ وَبَيْنَ صَباها المعصِرَاتُ الدَّوَامِسُ

وعن : " سنشد عضدك " (القصص ٣٥) العضد المعين الناصر قال النابغة :

فى ذمةٍ من أبى قابُوس منقذة للخائفين ومَنْ ليست له عضُدُ

وعن : " فى الغابرين " (الشعراء ١٧١) أى فى الباقين ، قال عبير بن الأبرص :

ذهبوا وخلفنى المخلَّفُ فيهمُ فكأننى فى الغابرين غريبُ

وعن : " فلا تأس " (المائدة ٢٦) لا تحزن ، قال امرؤ القيس :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لا تَهْلِك أسى وتجمَّلِ

وعن : " أن تُبْسَل " (الأنعام ٧٠) تحبس ، قال زهير :

وَفَارَقَتْكَ بِرَهْنٍ لا فَكَاكَ لَهُ يَوْمَ الوداعِ فَقَلْبِى مُبْسَلٌ غَلِقَا

وعن : " فلما أفلت " (الأنعام ٧٨) أى زالت الشمس عن كبد السماء ، قال كعب بن مالك :

فتغير القمر المنير لفقده والشمسُ قد كُسِفَتْ وكادت تأفَلُ

وعن : " ثقفتموهم " (البقرة ١٩١) أى وجدتموهم ، قال حسان :

فإما تَثْقَفنْ بنى لُؤى جذيمة إن قتلهمْ دواءُ

وقال حسان ، عن " فأثرن به نقعا " (العاديات ٤) النقع ما يسطع من حوافر الخيل :

عَدِمنا خَيْلَنا إن لَمْ تَرَوْها تُثير النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ

وعن : " سِدْرٍ مَخْضُودٍ " (الواقعة ٢٨) الذى ليس له شوك ، قال أمية بن أبى الصلت :

إن الحَدَائِقَ فى الجِنانِ ظَلِيلة فيها الكواعِبُ سِدْرُها مَخْضُودُ

وعن : " طلعها هضيم " (الشعراء ١٤٨) منضم بعضه إلى بعض ، قال امرؤ القيس :

دارٌ لبيضاءِ العَوَارِض طَفْلَةٍ مَهْضُومَةِ الكَشْحَينِ رَيَا المِعْصَم

وعن : " خَامِدِينَ " (الأنبياء ١٥) ميتين ، قال لبيد :

حلُوا ثيابَهُم على عوراتهم فهم بأفنِيَةِ البيُوتِ خُمُودُ

وعن : " فَسُحْقاً " (الملك ١١) أى بعدا ، قال حسان :

ألا مَنْ مبلغٌ عَنِّ أبيًا فقد ألقِيتُ فى سُحْقِ السَّعِير

وقال أيضا عن : " إلاَّ فى غُرُورٍ " (الملك ٢٠) أى فى باطل :

تَمَنَّتْك الأمانى من بعيد وقول الكُفْرِ يَرْجِعُ فى غُرُورِ

وعن : " إيابهم " (الغاشية ٢٥) الإياب المرجع ، قال عبيد بن الأبرص :

وكلُّ ذى غيبةٍ يئوبُ وَغائِبُ المَوْتِ لا يئُوبُ

وعن : " حُوباً " (النساء ٢) إنّما بلغة الحبشة ، قال الأعشى :

فإنى وما كلفتمونى مِن أمركُمْ ليُعلم من أمْسَ أعَقَّ وأحْوَبَا

وعن : " فَتِيلاً " (النساء ٤٩) التى تكون فى شق النواة ، قال النابغة :

يَجْمَعُ الجَيْشَ ذا الألوف ويَغْزو ثم لا يَرْزَأ الأعادى فَتِيلا

وعن : " من قطمير " (فاطر ١٣) أى الجلدة البيضاء التى على النواة ، يقول أمية بن أبى الصلت :

وعن : " بَاسِرةٌ " (القيامة ٢٤) أى كالحة ، قال عبيد بن الأبرص :

صبحنا تَميماً غداة النِّسَا وشهباءَ مَلْمُومةٌ بَاسِرَة

وعن : " ضيزى " (النجم ٢٢) أى جائرة ، قال امرؤ القيس :

ضازَتْ تبنُو أسد بحكمهِمْ إذ يعْدِلُونَ الرأسَ بالذَّنَبِ

وعن : " اشْمَأَزَّتْ " (الزمر ٤٥) أى نفرت ، قال عمرو بن كلثوم :

إذا عَضَّ الثِّقافُ بها اشمأزَّتْ وولَّتْهُ عَشَوْزَنَةٌ زَبونَا

وعن : " أغنى وأقْنى " (النجم ٤٨) أغنى من الفقر ، وأقنى من الغنى فقنع به ، قال عنترة العبس :

فاقْنَىْ حَيَاءك لا أبَالِك وَاعلَمى أنّى امْرؤٌ سَأمُوت إنْ لم أنْ لم أقْتلِ

وعن : " لا يَلِتْكُمْ " (الحجرات ١٤) أى لا ينقصكم بلغة بنى عبس ، قال الحطيئة العبس :

أبلِغْ سَرَاةَ بنى سَعْدٍ مُغَلْغَلَة جَهْدَ الرِّسَالَةِ لا ألتاً ولا كذبا

وعن : " لا تُوَاعِدوهُنّ سِراً " (البقرة ٢٣٠) السر الجماع . قال امرؤ القيس :

ألا زَعَمَتْ بسَبْاسةُ اليوم أنّنى كَبِرْتُ وألا يُحسنُ السِرَّ أمثالى

وعن : " فيه تُسِيمُون " (النحل ١٠) أى ترعون ، قال الأعشى :

وَمَشَى التّوْم بالعِمَادِ إلى الرّزْ خى وأعيا المسيمُ أيْنَ المَسَاقُ

وعن : " لا تَرْجُونَ للهِ وَقاراً " (نوح ١٣) لا تخشون لله عظمة ، قال أبو ذؤيب :

إذا لسَعته النّحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا وخالَفَها فى بَيْتِ نُوبٍ عَواسلِ

وعن : " لَتَنُوءُ بالعُصْبَة " (القصص ٧٦) أى لَتُثْقِل ، قال امرؤ القيس :

تمشى فتُثقلها عجيزتُها مَشْىَ الضعيف ينوء بالوسْقِ

وعن : " كُلَّ بَنَان " (الأنفال ١٢) أطراف الأصابع ، قال عنترة :

فَنِعْمَ فوارسُ الهيجاء قومى إذا عَلِقُوا الأسنّة بالبَنَانِ

وعن " لأجْرا غير مَمنُون " (القلم ٣) غير منقوص ، قال زهير :

فَضْلَ الجواد على الخيل البطاء فلا يُعطى بذلك مَمنُونا ولا نزقا

وعن : " جابُوا الصخر " (الفجر ٩) أى نقبوا الحجارة فى الجبال فاتخذوها بيوتا ، قال أمية :

وَشَقّ أبْصَارَنَا كيما نعيش بها وَجَابَ للسّمع أصْماخاً وآذانا

وقال عن : " حبا جما " (الفجر ٢٠) أى كثيرا :

إن تغفرِ اللّهُم تَغْفر جَمّا وأى عبدٍ لك لا ألمّا

وعن : " غاسِقٍ " (الفلق ٣) أى الظلمة ، قال زهير :

ظَلَّتْ تَجُوب يَدَاهَا وَهْيَ لَاهِيَة حتى إذا جنح الإظلام والغَسَقُ

وعن : " يَعْمَهُونَ " (البقرة ١٥) أى يلعبون ويترددون ، قال الأعشى :

أرانى قد عَمِهْتُ وشاب رَأسِى وهذا اللَّعبُ شَيْنٌ بالكَبِيرِ

وقال : " ختم الله على قلوبهم " (البقرة ٧) اى طبع عليها :

وَصَهْبَاء طاف يَهُودِيُّها فأبْرَزَهَا وعليها خُتُمْ

وعن : " صفْوَانٍ " (البقرة ٢٦٤) أى الحجر الأملس ، قال أوس بن حجر :

على ظَهْرِ صفوانٍ كأن مُتُونَه عُلِلْنَ بِدُهْنٍ يُزْلِقُ المتنزّلا

وعن : " فيها صِرّ " (آل عمران ١١٧) أى برد ، قال النابغة :

لا يبْرمُون إذا ما الأرضُ جللها صِرُّ الشتاء من الإمحال كالأدَمِ

وعن : " تُبوئ المؤمنين مقاعد للقتال " (آل عمران ١٢١) أى : توطن المؤمنين ، قال الأعشى :

وما بوأ الرحمنُ بيتك منزلا بأجياد غربى الصفا والمحرم

وعن : " ربيون " (آل عمران ١٤٦) أى جموع كثيرة : قال حسان :

وإذا معشر تجافوا عنِ القصد حملنا عليهم ربّيًا

وعن : " مخمصة " (المائدة ٢) أى مجاعة . قال الأعشى :

تَبيتون فى المشتَى مِلّاء بطونكُم وجاراتكُم غرثى يبتن خمائصا

وعن : " وليقترفوا ما هم مقترفون " (الأنعام ١١٣) أى ليكتسبوا ما هم مكتسبون ، قال لبيد :

وإنى لآتى ما آتيت وإننى لِمَا اقْتَرَفَتْ نفسى علىَّ لَرَاهِبُ

وهكذا كان العرب القدامى يعرفون غرائب الكلم ويسمعون بها ، ويقفون على معناها ، ويستخدمونها فى ألفاظهم الشعرية ، وهم بذلك يتقنون اللغة بحيث أقاموا لها أسواقا تعرض فيها من مثل سوق عكاظ والمربد والمجن ، وكانت قصائدهم تعلق على أستار الكعبة لنفاستها وقيمتها .. وهى بعد ذلك متضمنة أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتحمل الصبغة الروحية التى تكشف عن سلوكياتهم وتمسكهم بالقيم والمثل والفضائل والمبادئ السامية ، ويظهر ذلك جليا فى استخدامهم لغرائب الألفاظ فى القرآن الكريم ، واستعمالها فى حياتهم اليومية ، فظهرت طبيعتهم السمحة التى تدل على فطرتهم المسلمة ، وإن لم يلحقهم الإسلام .

وإذا كان ما أشرت إليه التى جمعتها من كتاب : " الإتقان فى علوم القرآن " فصل " غرائب اللفظ فى القرآن " ، ولم آت بالمسائل كلها واكتفيت بما جمعته كدليل على سماع العرب بغرائب هذه الألفاظ ومعرفة معانيها ، هذا إلى جانب ما استخدموه فى أشعارهم من صيغ وتراكيب تشبه فى تراكيبها ما جاء به القرآن الكريم ، فمثلا نجد عن زهير بن أبى سلمى صيغا تشبه فى تراكيبها صيغ القرآن الكريم من مثل قوله :

بها العين والأرام يمشين خلفه أى يخلف بعضها بعضا

إذا مضى قطيع منها جاء قطيع آخر .. كقوله تعالى : " وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه " يريد أن كلا منها يخلف صاحبه ، فإذا ذهب النّهار جاء الليل ، وإذا ذهب الليل جاء النّهار ... وهكذا

ونرى عند زهير مثل هذه التراكيب كالنابغة : وعنترة وغيرهما مما يكشف عن صنعتهم جميعا فى هذا العصر .

وسنرى فى الفصول القادمة من هذا البحث ما تناولناه من شعر الشعراء فى العصر الجاهلى الذى يبين ما قصدته من خلال هذا العرض ، وما يكشف عن الجوانب الأخلاقية التى يتصف بها هؤلاء الشعراء ، وما كان عليه هذا العصر من رقى .

د. خالد الزواوى

المراجع

* الروائع من الأدب العربىّ جـ١ - العصر الجاهلى . د / يوسف خليل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .
* تاريخ الشعر العربى حتى أخر القرن الثالث الهجرى - د / نجيب محمد البهبيتى دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب ١٩٨٢ .
* شروح الشعر الجاهلى جـ١ نشأتها وتطورها ط١ - د/ أحمد جمال العمرى دار المعارف بمصر ١٩٨١ وكذلك الجزء الثانى - مناهج الشراح ط١ .
* الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى وشعره جـ١ د / صلاح عبد الحافظ - دار المعارف بمصر ١٩٨٢ .
* مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ط٦ - د / ناصر الدين الأسد دار المعارف بمصر ١٩٨٢ .
* فى الأدب الجاهلى ط١٥ - د / طه حسين - دار المعارف بمصر ١٩٨٤ .
* شرح المعلقات السبع للزوزنى - فاروق الدرة - منشورات مكتبة المعارف - بيروت د . ت .
* معجم ديوان الأدب - أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم الفارابى تحقيق د / أحمد مختار عمر ، مراجعة د / ابراهيم أنيس الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجان ٢٠٠٣ .
* مختصر صحيح مسلم للحافظ المنزرى - تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - إحياء التراث الإسلامى ط١ بإشراف الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٦٩ .

* فقه السنة - السيد السابق - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط١ بيروت - لبنان ١٩٧٧ .

* فى ظلال القرآن - سيد قطب - دار إحياء التراث العربى ط٣ - بيروت ١٩٦١ .

* الاتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .

* قاموس الأديان الثلاثة - تحقيق نور الدين خليل - مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع - الإسكندرية ٢٠٠٧ .

* العهد الجديد - دار الكتاب المقدس - شركة الطباعة المصرية ط١ ٢٠٠٦ .

* معجم ألفاظ القرآن الكريم - إعداد مجمع اللغة العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

* معجم أعلام القرآن الكريم - د / محمد الونجى - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - ٢٠٠٤ .

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى - دار إحياء التراث العربى - مطبعة دار الكتب العربية - بيروت ١٩٤٥ .

* لسان العرب لابن منظور - الجوهرى ، الصحاح ، الفيروزبادى ، القاموس المحيط .

* الحيوان للجاحظ ، تحقيق د / عبد السلام هارون - مكتبة الأسرة ، هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٤ .

* العصر الجاهلى - د / شوقى ضيف دار المعارف بمصر ط١٥ ١٩٨٤ .

* حياة محسن - د / محسن حسين هيكل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥ .

* معجم التعابير الاصطلاحية - د / محسن البطل - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ٢٠٠٠ .
* سيرة الرسول عن طبقات ابن سعد - دار الفكر للجميع ١٩٦٨ .
* البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق د / عبد السلام هارون - الهيئة العامة لقصور الثقافة - الذخائر - ٢٠٠٣ .
* دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى - محمود محمد شاكر - مكتبة الأسرة هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٠ .
* طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى - محمود محمد شاكر - الذخائر الهيئة العامة لقصور الثقافة د.ت .
* سماحة الأديان والسلام العالمى - د / خالد الزواوى - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية ٢٠٠٤ .
* اكساب وتنمية اللغة - مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع - الإسكندرية ٢٠٠٥ .
* الشعر الجاهلى - د / ابراهيم عبد الرحمن - مكتبة الشباب بمصر ١٩٧٩ .
* التفسير الأسطورى للشعر الجاهلى - د / ابراهيم عبد الرحمن - مجلة فصول المصرية مجلد ١ - عدد ٣ إبريل ١٩٨١ .
* المعلقات العشر - أحمد الأمين الشنقيطى - دار الكتاب العربى ط١ دمشق - سوريا ١٩٨٣ .
* المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - د / جواد على - دار العلم للملايين بيروت - لبنان ١٩٧٠ .
* الصورة الفنية عند النابغة - د / خالد الزواوى - الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع - لونجمان ١٩٩٢ .

* الشعر الجاهلى - د / سيد حنفى - القاهر ١٩٧١ .
* تطور الصورة فى الشعر الجاهلى - د / خالد الزواوى - مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع - الإسكندرية ٢٠٠٠ .
* اللغة العربية - د / خالد الزواوى - دار طيبة للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٠٢ .

المؤلـف :

د / خالد محمد الزواوى

* دكتوراة فى الأدب العربى من كلية الأداب جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى .
* عضو هيئة تدريس اللغة العربية بالكويت ومصر سابقا .
* صاحب نتاج علمى فى اللغة والأدب والثقافة ، ودراسات نقدية وأبحاث ومقالات أدبية .
* مشارك فى عديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية .
* حصل على وسام عيد العلم ، وجائزة الدكتور محسن شوقى الفنجرى فى خدمة الدعوة الإسلامية ، وجائزة الاستحقاق من لبنان ، وجائزة نادى الأهرام للكتاب ، وجوائز وشهادات تقدير فى مجالات مختلفة ، جائزة نادى الأهرام للكتاب ، وجوائز وشهادات تقدير فى مجالات محتلفة ، جائزة وزارة الشئون الاجتماعية فى الأدب .
* عضو اتحاد كتاب مصر ، وعضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وعضو نادى الأهرام للكتاب .

* العنوان :

بولكلى - أمام ١٩ شارع أبو هيف شقة ٣ - الإسكندرية .

* تليفون :

٠٣ / ٥٤٦٣٤١٩

٠١٢٢٢٧٣٨٠٤٤

٠١١١١٣٠٠٠٩٢

Email : elzawawykhaled@hotmail.com

كتب للمؤلف :

* كتاب النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالكويت ١٩٦٩ .
* كتاب التربية الإسلامية للمرحلة الثانوية بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالكويت ١٩٧٥ .
* الصورة الفنية عند النابغة .
* تطور الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى .
* التعليم المعاصر .
* مشاهد أبكتنى .
* اللغة العربية .
* الجودة الشاملة فى التعليم .
* البطالة (المشكلة والحل) .
* الماء (الذهب الأزرق) .
* سماحة الأديان والسلام العالمى .
* اكساب وتنمية اللغة .
* الشباب والفراغ ومستقبل البحث العلمى .
* قصص الحيوان فى القرآن .
* الإسلام فى القرن الحادى والعشرين .
* من روائع فاروق شوشة .
* الحوارات الإلهية .
* رسائل أبى الوليد الزواوى .

* مقالات ودراسات أدبية ونقدية نشرت بالصحف والمجلات العربية من ١٩٦١-٢٠١١ .
* الموقع على الإنترنت : النشر الإلكترونى
www.askzad.com

م		رقم الصفحة